قرية ظالمة

الدكتور
محمد كامل حسين



ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

فهـــرس

صفحة

عند بنى إسرائيل

عند الحواريين

عند الرومان

صفحة



قرية ظالمة

الدكتور

محمد كامل حسين



ملتزم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

يوم جمعة

كان اليوم يوم جمعة

لكنه لم يكن كغيره من الأيام

كان يوما ضل فيه الناس ضلالا بعيدا ، وأوغلوا فى الضلال حتى بلغوا غاية الأثم ، وطغى عليهم الشر حتى عموا عن الحق ، وهو أوضح من فلق الصباح . وكانوا مع ذلك أهل دين وعلم وخلق ، وكانوا أحرص الناس على اتباع الهدى ، واحبهم للخير ، وأعمقهم تفكيرا ، وأقدرهم على تعقب دقائق الأمور . وكانوا أكثر الناس حباً لقومهم ، وحدباً على وطنهم ، واخلاصا لدينهم ، وكانت بهم حمية وشجاعة واخلاص ، فلم ينجهم تفقههم فى الدين من الضلال ولم يعصمهم عقلهم من الخطأ ، ولم يهدهم اخلاصهم إلى الخير ، وكانوا أهل شورى ، فأضلتهم الشورى . وكان حكامهم الرومان أهل نظام ، فخذلهم النظام . وتألبت على أهل أورشليم فى ذلك اليوم كل عوامل الغى ، وهم عنها

غافلون ، فترددوا فيه ، وغابت عنهم كل عوامل الرشاد ، فتخبطوا تخبطاً شديدا ، كأنهم لم يكن لهم دين ولا عقل .

فى ذلك اليوم أجمع بنو اسرائيل أمرهم أن يطلبوا إلى الرومان صلب المسيح ، ليقضوا على دعوته . وما كانت دعوة المسيح إلا أن يحتكم الناس إلى ضميرهم فى كل مايعملون وما يفكرون ، فلما عزموا أن يصلبوه لم يكن عزمهم إلا أن يقتلوا الضمير الانسانى ويطفئوا نوره ، وهم يحسبون أن عقلهم ودينهم يأمران بما يعلو أوامر الضمير ، ولم يفطنوا إلى أن الناس حين يفقدون الضمير لايغنيهم عنه شىء ؛ فالضمير الانسانى قبس من نور الله ، لايكون للناس هدى بغيره ، وكل فضيلة تنقلب نقصا ، وكل خير يصبح شرا ، وكل عقل يصير خبالا ، مالم يكن للناس من ضميرهم هاد ؛ مثلهم فى ذلك مثل المدينة المظلمة ، إذا طلع عليها القمر كانت معالمها ومبانيها هداية لأهلها ، تريهم أى طريق يسلكون ، أما إذا أظلمت عليهم حقا فان هذه المعالم الجميلة ، والمبانى الرائعة ، تصبح كلها عقبات وعثرات يصطدمون بها فتؤذيهم وتضلهم . كذلك الناس فى حياتهم ، أن يشرق عليهم الضمير تكن فضائلهم رشداً ، وأن يظلم عليهم يكن كل مافيهم من عقل وخير عليهم وبالا .

في ذلك اليوم أراد الناس أن يقتلوا ضميرهم ، وفى هذا الذى أرادوه تتمثل نكبة الإنسانية الكبرى ، وفى أحداث ذلك اليوم تبيان لكل مايدفع الناس إلى الأثم ، فلم يحدث فى العالم شر إلا كان أصله مايريد الناس من قتل ضميرهم ، واطفاء نوره ، والتماس الهدى من غير سبيله ، ولن يصيب الناس شر الا أن يكون مرجعه مايعتريهم من رغبة فى تجاهل أوامر الضمير.

وليست أحداث ذلك اليوم من أنباء القرون الأولى ، بل هى نكبات تتجدد كل يوم ، فى حياة كل فرد . فالناس أبدا معاصرون لذلك اليوم المشهود ، وهم أبداً معرضون لما وقع فيه أهل أورشليم حينذاك من اثم وضلال ، وسيظلون كذلك حتى يجمعوا أمرهم أن لا يتخطوا حدود الضمير .

عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيل

قمة الجبل

لم يكن أحد من أهل أورشليم يدرى حين أقبل هذا اليوم أنه سيكون يوماً يذكره الناس كافة على مر الدهور كان يوماً من أيام الربيع التى ألفها اهل فلسطين ، هادئا صافياً مشرقا . وما كادت شمسه تطلع حتى أخذ الناس يعدون أنفسهم لما تعودوا عمله كل يوم . بكر الرعاة يسوقون أغنامهم إلى المراعى الخضر حول المدينة العتيقة . ولم يكن حولها إلا كثبان سهلة المرتقى ، يبلغ السائر أعلاها فى غير مشقة أو عنف ، وأودية مطمئنة ينحدر إليها الرعاة فى سهوله ويسر . . أرض لاتشعر بالعنف ، ولاتوحى بالقسوة . وكان الرعاة يسيرون فى هذه المراعى الشاسعة حتى يرهقهم حر الشمس ، فيقيلون تحت الأشجار القليلة التى حولهم . ذلك دأب الرعاة ، يوماً بعد يوم ، وعاما بعد عام ، وقرناً بعد قرن . ومن الناس من يظن أن حياة الرعى حياة خافتة ، يذبل معها الفكر ، ويخمد الذكاء . على أن الواقع أن الذين أفاض الله عليهم من نوره يفيدون من هذه

الحياة الصبر والأناة ، وحب التأمل الطويل ، والتفكير العميق ، فيبلغون بذلك أرقى مراتب الحكمة ،

وخرجت فتاة صغيرة رثة الثياب ، بادية الفقر ، تسوق قطعة من الغنم ، فيها النمراء ، وغير النمراء ، وكان لهذا شأن عند الرعاة ؛ فقد جاء فى التوراة أن الله بارك ليعقوب فى النمر . تركت الفتاة جبل الزيتون وما حوله من المراعى الخصبة ، لمن أكثر أغناما وأقدر على الكفاح ، وما زالت تسير على غير هدى حتى بلغت جبل كالفارى ويعرف عند أهل البلاد بجبل الجولجوتا أى الجمجمة . بقعة موحشة ، كلها حجارة صلدة ، لاينبت فيها شيء ، وفيها أخشاب منتثرة ، وعظام مبعثرة ، وشجرة واحدة . وكانت الأغنام أعلم بالرعى من هذه الراعية الصغيرة ، فشرد كثير منها إلى حيث يطيب المرعى . وأجهد الفتاة أن تجرى وراء كل شاردة من أغنامها لتردها إليها ، فلما أعياها الجهد استظلت بهذه الشجرة ، يائسة متعبة ، وعادت أغنامها إليها عند الظهيرة تلتمس الظل ، ونامت بجوارها ، فلم يبق على هذه الراعية الصغيرة إلا أن تنتظر مغرب الشمس ، على عادتها كل يوم ، ولم يكن لها أن تعلم شيئا سيحدث عصر ذلك النهار ، على بعد خطوات من حيث كانت تنام أهدأ نوم .

أما المدينة فلم يكن من شأن أهلها أن يبكروا إلى عملهم كما يبكر الرعاة ، بل خرج أكثرهم يتثاقلون إلى السوق والحوانيت . وكان من طبعهم الجدل والخصومة فى أكثر أمرهم ، صغيرة وكبيرة ، وكان جدلهم اليوم عنيفا ، لايكاد الرجل يلقى صاحبه حتى يحدثه عن ماتم فى دار ندوتهم بالأمس . وكان جلهم يرون أن ماقرره علماؤهم حق من غير شك .

أما أصحاب الرأى منهم فقد أرهقهم ماقضوا فيه ليلتهم ، من جدل ونقاش عاليين ، إذ دار بحثهم حول هذا الرجل الذى جاءهم ببدعة أقضت مضاجعهم . ذلك أنه أخذ يدعو الناس إلى دين جديد ، وما زال يسفه أحلامهم ، ويضل رجالهم حتى خيف من دعوته على دينهم ونظامهم . وكانوا قد حكموا عليه بالصلب . وتواعدوا دار ندوتهم يوم الجمعة ، ليبلغوا حكامهم الرومان ماقرعليه رأيهم فى شأن هذا النبى الجديد .

رجل الاتهام

كان من بين أولى الأمر فى بنى اسرائيل شاب يتولى اتهام من يخرجون على القانون · وكانت أسرته من أعرق أسرهم ، وأعظمها شأن ، وأكثرها علماء . وكان قد بلغ من النجاح مبلغا عظيما ، وهو بعد فى مقتبل العمر . وكان الناس يحبونه ويعجبون به ولا يحسدونه ، لما لأهله عليهم من فضل ، أبا عن جد . وكانوا يعلمون أنه أسعد الناس ، فقد كان حديث عهد بالزواج ، وكانت امرأته أجمل فتاة فى أورشليم ، ومن أوسط أهلها حسباً ، وكان بها مغرما ، وكانت به حفية . وكانت نؤوم الضحى ، على عادة المترفات الفاتنات فى كل عصر . ولكنها رأت أن تبكر فى هذا اليوم ، على غير ما ألفت ، لتحدث زوجها أعذب الحديث ، وكانت تريد أن تطلب إليه أشياء ، ولم يكن يجهل ماتريد . وهم أن يسبقها إلى ماترغب ، ثم رأى أن يمهلها حتى تتقدم إليه فى دلالها العذب . ولم يخطىء ظنه ، فلم يلبث إلا قليلا حتى أقبلت عليه تقول :

ـ اليوم عيد مولدى .

ـ وهل تظنين أنى أنسى ذلك ؟

ـ وأريد أن تجعله يوماً لا أنساه أبداً .

ـ لك ذلك .

ـ وأريد أن تختصنى به ، فلا يشغلك عنى أمر آخر .

ـ ما كان أسعدنى بذلك لولا ما سيجرى فى أورشليم اليوم .

ـ لا يعنينى من ذلك شىء . وأحب أن لا تلتمس الأعذار ، فانك تعلم أنى لا أغفر مثقال ذرة إذا كان الأمر يتعلق بحبك اياى .

ـ وأنا لا أطيق أن يمر بخاطرك أنى أقصر فى ما ترغبين إلى عمله ، ولكن لى فى دار الندوة اليوم شأنا أى شأن !

ـ وماذا فى دار فى الندوة اليوم ؟

ـ أنهم يطالبون بدم رجل قامت عليه قيامة الناس عامة ، جمهوراً وعلماء ، ولا بد أن نحسم أمره اليوم .

ـ ومالى وذلك كله . أترى أن موت رجل من عامة الناس أدعى إلى عنايتك من حبك إياى . إنهم يصلبون

رجال كثيرين كل يوم أما اليوم فهو يومى ، ولا يكون إلا مرة كل عام .

— وقد لا يتكرر صلب رجل مثل هذا النبي أبد الآبدين .

— وماذا تنقمون منه ؟

— أنى عددت عليه بالأمس من الذنوب ما أحفظ عليه قوم إسرائيل كافة ، وجمعت عليه من التهم ما جعل جريمته واضحة لا تقبل فيها رأفة ولا رحمة ، فحكموا عليه بالصلب ، وأعجب الناس ببلاغتى ، وهنأونى على ما أبديت من حرص على الإيمان ، وعناية بالوطن ، وعلم بالتوراة ، ولا بد من أن اتبع نجاحى بالأمس نجاحاً جديداً اليوم ، حتى لا تهن عزائمهم فينكصوا .

— ألا يزال النجاح معبودكم الأكبر ، إنه ليفترسكم ويقضى على فضائلكم كلها .

— إن تعلقى بالنجاح يرجع إلى حبى لك ، انكن لا تعبأن بمن يخفقون .

— أنا لنزهد فى النجاح إذا صحبه نقص فى اخلاصكم لنا ، وأخشى أن تكون قد بلغت هذا الحد من النجاح .

وما الذى دفعك إلى هذا الاتهام العنيف ، أكان ذلك حبا فى النجاح أم كنت مخلصا ، وماذا علمت عنه حتى ألبت عليه قومك . أنك موجدة عليه ؟

— أنه يريد أن يجعل الجهلاء أندادا لأمثالنا ، ويريد أن يجعل الفقراء وإيانا سواء ، وفى ذلك قضاء على نظام بنى اسرائيل كله . أيرق لك أن يساوى بيننا وبين ذلك والحداد الذى يعمل أمام بيتك ؟

— أنى لا أرى لك فضلا عليه إلا أنى أمرأتك وليست له امرأة مثلى ، ولا أعتقد أن مساواته بك تكون جريمة يصلب من أجلها الناس .

— ثم أنه كفر بالله ، وأنكر الصفات التى له فى التوراة ، فهو لا يقول بجبروته وانتقامه ، وإنما يقول أن الله هو الحب . ويريد أن لا يخاف الناس الله ، وإنما يريد لهم أن يحبوه لأنه يحبهم ، وفى ذلك خروج على تعاليم التوراة،لا بد أن يؤدى إلى الفوضى .

— أتقتلون رجلا أن يقول أن الله هو الحب ، تلك كلمة لا يقولها مجرم . الله هو الحب !

— أنك ممتعة حقا ، وجمالك ولطفك يضفيان على

خطئك عذوبة ، وعلى سوء فهمك للأمور لذة ليست إلا لك .
أتظنين أن الحب الذى يدعو إليه يمت إلى حب المرأة بصلة ،
أنه لا يعرف شيئاً عن المرأة .

ـ إن المرأة تحب الرجل الذى يفهم الحب أكثر من
حبها الرجل الذى يفهم النساء ، فأكثر هؤلاء منافقون . إن
حب المرأة هو الخطوة الأولى إلى حب الله .

ـ أنا لا أعرف رجلا خرج من حب المرأة إلى حب الله .

ـ قد يصدق ذلك على الرجال أما النساء فيخرجن من
الحب إلى حب الله .

ـ المرأة لا تعرف الحب كما يعرفه الرجل ، فالرجل
يحب المرأة ، ولكن المرأة تحب أن ترى نفسها محبوبة عند
رجل بعينه ، فهى تحب أن ترى نفسها فى مرآة ، هى ذلك
الرجل الذى تحبه .

ـ إن رأيك فى المرأة لعجيب . وهل هذا رأيك فى ؟
أترى أن حبى هو الذى قعد بك عن حب الله ؟

ـ إنك لا تزالين على ضلالك القديم . تجعلين كل
حديث بيننا ، مهما يكن عاماً ، يرجع فى نفسك إليك وإلى .
إن الحب يملأ قلوبكن ولكنه لا يملأ قلوب الرجال ، إذ ليس

للمرأة فى الحيـــاة شىء غير الحب . أما الرجل فله بعد ذلك عقله وعمله .

— أترى أن العقل يصحبه البرود حتما .

— قـد يكون ذلك غير محتـوم ، ولـكنه أمر مألوف أن يسمو الحـكماء فوق العواطف .

— إن البرود العقـــلى ليس غاية الـكمال . إنى أراك تبدلت منذ الأمس ، كان قلبك يخفق لأشيـاء غير العقل والحـكمة ، أترى ذلك راجعاً إلى ما وفقت إليه من نجاح .

— إن قمم الجبال العالية مغطاة دائماً بالثلج .

— إنى على ذلك أفضـــل أسفل الوادى ، حيث يكون الدفء ، ولك أن ترقى وحدك إلى حيث تـكون الثلوج .

ثم سكت كل منهما ، وكان رأسها إلى صدره ، فرفعته ونظرت إليه ، فوجدت رجلا غير الذى تعرفه . خيل إليها أن هذا الذى كانت تحبه قد تغير فى غمضة عين ، وهمت أن تتركه . وأحس هو بذلك فأزعجـه أن يكون قـد دب بينهما شقاق ، وهو على حبهـا حريص أشد الحرص . وخشى أن يكون تلاعبـه بالالفاظ والمعانى قد حملها على الشك فيه ، وهو لم يقصد إلى شىء من ذلك .

وأدركت هى أنها أسرفت ، وأن ما حدث لا يتعلق بحبه أياها ، فثاب إليها اطمئنانها وقالت :

— أنى أقدر واجبك حق قدره ، وأعلم ما يجب عليك عمله اليوم ، فأعفيك من التفكير فى ، وفى عيد مولدى .

— الآن عرفت فيك العقل وحسن التقدير ، بعد أن كدت أنكر منك هذا الغضب . إن عهدى بك أنك غاضبة أجمل منك راضية ، ولكن غضبك اليوم جد لم أفهمه . وسنكون غدا أسعد الناس ، فما يوم واحد بمغير شيئا من حب أعتقد أنه أخلص ما يكون الحب .

— وأن غدا لقريب . وستكون قد نصرت الدين والوطن والأخلاق .

— الآن اطمأن قلبى ، وسأعود إليك عما قريب فأجدك على ما عهدتك محبة رقيقة .

وأراد أن يقبلها فأشاحت بوجهها فى رفق وقبل جبهتها فأحس عرقا باردا يتصبب منها ، وأصابه من ذلك قلق شديد :

خرج من بيته وهو أقل ما يكون ثقة بنفسه ، ولم يعد مطمئنا إلى ما كان يراه بالأمس ، من أنه قام بواجبه خير

قيام ، ولم يعد يؤمن أنه كان فى جانب الحق حين حملت بلاغته الناس على المطالبة بدم هذا الرجل الغريب :

أما هى فقد أنهكها هذا التغير العميق فى احساسها : فقد كان طريقها إلى السعادة الحب الذى دفعها إلى اللذة ، وكان الحب يزيد فى سرورها بلذات الحياة ، وهذه تزيد فى الحب ، وبين هذه وذاك ، كانت أسعد الناس ، ثم جاء عيد مولدها ، وكانت ترجو أن يكون أجمل الأيام ، فحال بينها وبين السعادة أن رجلا سيصلب فى هذا اليوم ، ثم ملأ قلبها حديث هذا الرجل حتى نسيت نفسها ، وكان ذلك عليها جديدا :

« الله هو الحب ! » رأى لايضع من قدر الله ، ولكنه يرفع من قدر الحب ، إن إله اليهود جبار هائل ، وقد يكون مصدر خير أو شر ، ولكن إله هذ الرجل لا يكون إلا خيرا ، سيصلبونه اليوم على أنه كفر بالله ، وما كفر إلا برأيهم فى الله ، سيقتلونه لأنه أجرم ، إذ يقول إن الله هو الحب ، تلك كلمة لا يقولها إلا ملك كريم ، ليتنى أذهب إلى حيث يريدون قتله ، فأنظر إلى وجه هذا الذى يقول إن الله هو الحب ، ومن يدرى لعلى أعكف حينذاك على هذا الحب الجديد ، إنى أخادع نفسى إذا حاولت أن أتجاهل ما غمرنى من هذا

النور . قد يفسد ذلك علىّ حبى الذى تمتعت به حتى الآن ، وقد لا أصلح بعد اليوم أن أكون امرأة جذابة محبة ، أو زوجاً شغوفاً . أيحسب زوجى أنى سأظل كما كان يعهدنى بالأمس حين كنت فى حال طبيعية أحبه حباً هادئاً معقولا . إنى اليوم محمومة ، أكاد لا أدرى ما أفعل وقد أقدم على ما لم أكن أرضاه لنفسى قبل أن تعترينى هذه الحمى .

والرجال لا يفهمون النساء حين تشتد بهن حمى الحب . عند ذلك يكن أحدّ طبعاً وأرهف حساً من أن يخضعن لعقل أو لحكمة أو يقين على عهد . إن حمى الحب تجعل المرأة أشد تقلباً ، وأقرب إلى التحول ، وأسرع غضباً على من تحب ، وأسهل عدولا عن الشغف بمن شغفت به قبلا ، وأقبل لحب جديد حتى إذا كان على غير إرادتها وهواها . فليحذر الرجال النساء حين تشد بهن حمى الحب ، فليس فى طبعهم ما يدلهم على بطشه بهن . .

أما هو فأخذ طريقه إلى دار الندوة مهموماً ، يفكر فى أمر نفسه ، وساوره الشك فى صدق اتهامه العنيف لرجل لم يقترف إثماً ولم يدع إلى منكر . ثم ذكر ما قال بالأمس من أن الرجل سيكون سبب فتنة وشقاق بين بنى إسرائيل ، وأن دعوته تهدم نظام أمتهم ، وهم من تقوم حياتهم على

احترام كتابهم ودينهم وعاداتهم . وكان قد ثبت عنـدهم أن ذلك الدين قد أصبح جنتهم دون خطر التفـكك الذى تعرضوا له منـذ احتل الرومان بلادهم ، وأن المحافظة على الدين أصبحت أملهم الوحيد فى الحياة . ذكر كل ذلك ليقنع نفسه أنه كان على حق فى موقفه من الدعوة الجديدة ، وخيل إليه أنه اطمأن ، وإن يـكن فى الواقع إنما أحاط نفسه بسياج من حججه القديمة ، حتى لا ينفذ إليها وخز الضمير وألم الشك .

دكان حداد

خرج هـذا المدره النابغة من داره ، وسلك طريقه إلى دار الندوة . وكان أمام داره دكان صغير قذر لحداد فقير . وكان يرى من واجبه نحو نفسه ودينـه وعلمه أن لا يلقى بالا إلى هـذا الجار الجاهل الفقير . ولم يكن ذلك منه غروراً ولا زهواً ؛ بل كان يعتقد مخلصاً أن الدنيا لا تستقيم أمورها إلا أن يكون الناس طبقات تحترم كل منها الطبقة التى هى أرقى منها وأعلم فلم يـكن ليعبأ بالوقوف عند هذا المصنع لولا حديثه مع امرأته عنـه ، ولولا أنه رأى أمام الدكان رجـلا من التجار استشاط غضباً فأمطر الحـداد وابلا من الشتائم ، وقد علا صوته حتى كاد يختنق :

— أين الحـديد الذى وعدتنيه بالأمس ، وأين المسامير الأربعة الـكبار التى أوصيتك أن تصنعها ، وما لـكورك خلوا من النـار ، أتدرى ما سيجره على إهمالك ، سأخلف موعدى مع أولى الأمر من الرومان ، ولم يحدث قط أن أخلفت وعداً وعدتهم إياه ، وإذا حدث ذلك اليوم فسأفقد

ثقتهم بى ، وهى أكبر ما أعتز به . إن ثقة الناس ببنى إسرائيل سر نجاحهم . والناس يعرفون عنا الجد والصرامة والصدق ، وهى فضائل ورثناها عن آبائنا الأولين ، وليس لمثلك أن يفرط فيها فيصرف الناس عنا ، وليس لرجل فيه جهلك وغباؤك أن يسىء إلى قومنا على هذا النحو . ثم أن كسلك سيكون سبباً فى بؤسك ، وسيذهب بقوت عيالك وستضطر إلى الاستجداء . إن من السهل على أن أتركك إلى غيرك ، فإنى أعرف حداداً آخر سأغدق عليه من المال ما يجعله فى سعة حين تكون أنت فى هاوية الفقر . ولكنى مع ذلك أريد أن أرفق بك . سأضاعف لك الأجر ، على أن توقد نارك وتبدأ العمل لساعتك ، فإن الوقت لم يضع بعد . خذ هذا المال ، وسأعطيك أكثر منه بعد أن تبدأ .

فأخذ الحداد المال ، وهم أن يلقيه فى أعماق الكور ، فهجم عليه الرجل ، واستنقذ ماله وقال له :

— ماذا تفعل ، أبك جنة ؟ إنك مريض ، إنك تؤذى نفسك وأهلك وقومك وصناعتك ، ألا تستطيع أن تذكر لى سبباً لذلك ؟

ولم يرد عليه الحداد بشىء . فلما ضاق به ذرعاً أراد أن يستعين عليه برجل ذى لحية طويلة كان قد جلس ببابه

الدكان منذ مدة ، مطرقا حزينا ، لا يلتفت إلى كثير مما يجرى حوله ، وكان يحمل مفتاحا كبيرا لا يفارقه .

ولما وقع نظر التاجر عليه ذكر أنه من أكبر أتباع النبى الجديد ، وأدرك إن هذا الرجل هو الذى منع الحداد أن يصنع ما يطلبه منه لأنه كان يعلم أن الحديد الذى يريده إنما كان لاعداد الصليب الذى يموت عليه نبيه وزعيمه ، وأن المسامير الكبيرة أعدت لتدق فى يديه ورجليه .

ـ الآن وضح السر الذى لم أتبينه من قبل ، أليس هذا الأحمق هو الذى طلب إليك أن لا تعمل ما أمرتك به ، أليس هو الذى أنبأك أن ذلك كله سيصنع منه الصلب الذى يموت عليه زعيمه ، أنه أغبى منك وأحقر ، أنى لا يغيظنى شىء أكثر من هذا الحمق الذى يدفعك ويدفعه إلى الظن بأن بنى اسرائيل ، وفيهم ما فيهم من ذكاء وجد وعلم يتبعون مثلك ومثله ، على أنى سألقى عليك قولا لا أظنك تفهم كثيرا منه ، استمع إلى :

ـ إن كان هذا الرجل كاذبا فموته حلال لا غبار عليه ، بل نثاب عليه جميعا ، وإن كان صادقا ، وكان قتله ظلما ، وكنتم تخافون عذاب الله ، فاعلموا أنى حسبت لذلك حسابا طويلا . هب قتله جريمة كبرى يعاقب عليها الله فنحن

فى منجاة من هـــذا العقاب . إنى أعلم ما سيعمل بالحديد ، ولـكنى لا أصنعه ، بل أبيعه وأشتريه ، والله لا يعاقب على البيع والشراء ، فليس ذلك فى التوراة . وأنت تصنع الحديد ولا شأن لك بمـا سيعمل به ما دمت لا تعلم عنه شيئاً . ثم إنى لن أمسه بيدى ، بل إنى مرسله إلى الرومان مع طفل لا يدرى شيئاً ولا يعاقب على ما يعمل . أفهمت ؟ إن أكبر الجرائم إذا وزعت على عـــدد من الناس أصبح من المستحيل أن يعاقب الله أحداً من مرتـكبيها ، فنحن نحاجه بالتوراة ، وهو لا يجوز عليه أن يخالف ما جاء فى كتابه . وإذا كان الذى يعلم الجريمة لا يصنـــع أداتها ، والذى يصنع أداتها لا يعلم عنها شيئاً فإنها تتم فى سهولة . إن هذا التوزيع يجعل الناس فى حيرة ، أين يقع عذاب الله . هكذا ترتـكب أكبر الجرائم دون عقاب . ألا ترى أن الله والناس لا يعاقبون أحداً على ما يرتـكب فى الحروب من فظائع يرتعد من حولها كل من يسمع بحديثها بعد أن تذهب عن النـاس الحمى التى تعتريهم عند نشوبها . وإن الله والناس لا يعاقبون على هذه الجرائم ، لأنها ترتـكب باسم الجماعة ، ولأن الذنب فيهـا موزع توزيعاً يجعـــل العقاب الرادع ظلماً إذا عوقب به فرد بعينه ، ولا يجوز على الله أن يظلم أحداً ، وإذا عوقب

كل فرد على قدر نصيبه من الذنب ، وهذا وحده هو العدل ، فان التوزيع يجعله أقل من أن يحفل به أحد . أتراك تفهم شيئا من هذا ؟

عند ذلك هم الحداد أن يقذفه بمطرقة ، لو أصابته لقتلته لساعته . ولكن الشيخ الذى كان بباب الدكان منعه من ذلك ، ونظر كلاهما إلى هذا الشيطان وشيعاه ، وهو يبتعد عنهما ، بنظرات كلها بغض وأحتقار .

ولما سمع رجل الاتهام هذا الحديث سرت الرعدة فى ظهره ، وامتقع لونه ، أيكون هو أيضا ممن يشاركون فى الخطيئة الكبرى مجزأة حتى لا يدرى أحد — ولو كان اله بنى اسرائيل نفسه — على من يكون العقاب ، وفكر طويلا فى قول هذا الشيطان ، وأخذ يحدث نفسه :

— إن ضمير الفرد لا يمنع أن ترتكب الجماعة أعظم الذنوب ، ما دامت ترتكب باسم الجماعة . والضمير وحده هو الذى يصرف الناس عن الشر ، والجماعات لا ضمير لها ، ولا يزعج ضمير أحد من افرادها ما ترتكبه جماعته ، مهما يكن الاثم عظيما . أنظر إلى ما يحدث فى الحروب ، أن الذين يتقصون أخبارها بعد أن ينتهى أمرها ، يذهلهم ما يحدث فيها من مالا يطيقه ضمير انسان ، مهما يكن فيه

من غلظة وقسوة ، ولعل الفئتين المتقاتلتين لا يكون فيهما رجل واحد يرضى عن الحرب التى يقاتل فيها لو أحتكم إلى ضميره وحده . ولكن الجماعة تقدم عليها راضية مستريحة ، بل قد تقدم عليها مبتهجة فرحة . تلك أمور لا يقبلها العقل ، ولم أهتد إلى فهمها من قبل ، ولكنى سمعت الآن ما يفسر هذا التناقض : أن الجريمة مهما تكن مبينة يسهل وقوعها إذا وزعت توزيعا يجعل نصيب الفرد من ذنبها أصغر من أن يضطرب له ضميره .

ألم نسمع حديث قائد جيش هزم عدوه ، وأراد أن ينتقم من الأسرى ، ففتق له ذهنه أن يفقأ أعينهم جميعا ، على أن يترك على رأس كل مائة واحدا أعور يقودهم ، ولو أنه تولى هذا التعذيب بنفسه لهاله ما أقدم عليه . ولو أن القاضى حين يحكم بالاعدام يتولى هو تنفيذه لكان له رأى آخر فى قيمة الأدلة . والقائد الذى يأمر جيشه أن يسرف فى القتل أثما ، يأمر وعلى غيره أن يقتل . وقديما قتل الأنبياء . وكان قتلهم يتم على هذا النحو ، موزعا على الناس توزيعا يجعل الجماعة وحدها هى القاتلة .

ثم هدأت نفسه قليلا حين أخذ يفكر فى طريق الخلاص من هذا كله .

— إن ضمير الفرد الإنسانى أقوى ما يهدينا إلى الخير ، بل هو وحده سبيل الهدى إلى الحق ، ولكنه يخطىء ويضطرب ويحار ، حين تعرض له أمور الحياة ، ويكون عليه أن يختار بين أمرين لكل منهما وجه من الحق .

ثم عاوده الاضطراب واليأس ، وأخذ يحدث نفسه :

— أن الخير والشر واضحان وضوحاً لا ريب فيه حين تتحدث عنهما التوراة ، وكنت أحسبهما لا يختلطان . ولكنى لم أعد أتبينهما على ما كنت أعهد من وضوح . إنى كنت أسمع جدى ، وهو شيخ كبير ، يقول أنه لم يعد يعرف الفرق بين الخير والشر ، وانهما اختلطا عليه ، حتى لايدرى على التحديد أين يقع الحد الفاصل بينهما . وكنت أعده ذلك منه تفاخراً ، كأنه يقول أنه سما فوق الناس ، خيرهم وشرهم ، وكنت أعد هذا التسامى نقصا ، بل كنت أعده دليل على أن الإنسان تضعف إنسانيته حين يكمل عقله . وكنت أرى قوله هذا يدل على ما أصابه من ضعف حين أسن وكبر . أيمكن أن أكون قد بلغت هذا الحد من الضعف النفسى ، وأنا بعد فى عنفوان الشباب ، أيكون شأننا فى التفريق بين الخير والشر ، أو بين الحق والباطل ، إنما يتعلق بقربنا منهما أو بعدنا عنهما ، كما تكون الحال

عند التفريق بين الجمال والقبح . ألا ترى أن أجمل النساء يستوين وأقلهن جمالا إذا نظرت إليهن من قمة جبل ، كما يستوين إذا نظرت إليهن عن قرب يجعلك لا ترى منهن ما يزيد على قدر الأنملة . ولعل قربنا من حادث الأمس يمنعنا أن نرى أحق هو أم باطل . ألم يعبد آباؤنا العجل ، ونحن نرى ذلك أكبر الخطأ ، ولم يكونوا يرونه كذلك لقربهم منه زماناً . ثم إن قيصر لا يعرف الفرق بين الثلاثة الذين سيصلبون اليوم لبعده عنهم مكاناً ، ونحن لا نفرق بينهم لقربنا منهم . أيكون خير اليوم شراً بعد عشر سنين ، ثم يعود خيراً بعد عشرين ، أيكون مانراه هنا خيراً يراه الناس فى روما شراً . أين الخير وأين الشر ، أنهما يتشابهان ما لم تكن منهما على بعد خاص فى الزمان والمكان . وما هذا البعد ، وماذا بقى بعد ذلك من قدسية الخير .

وأصابه من هذا التفكير دوار ، فعرج على دار صديق له ، وأخذ يحدثه عن ما رأى وما سمع ، وعن ما جال بفكره منذ الصباح ، وكأن بادي الاضطراب . قال له :

— ما كنت أحسب أن فى قومنا مثل هذا التاجر . أن الشيطان نفسه لا يزين للناس أعمال السوء بأكثر من هذا

الذى قاله ذلك الرجل . أنه يؤكد لهم أنهم بمنجاة من الخطيئة والعقاب ما دام الجرم موزعاً بينهم .

— لا تسرف فى الطعن على قومك . أن أمة إسرائيل هى الإنسانية كلها ، ولكنها مشوهة كما يشوه الناس أمام المرآة المقعرة المحدودبة يمر الناس أمام هذه المرآة فترى جزءاً من جسمهم يعظم جداً ، وآخر يصغر جداً ، ثم ينتقلون فاذا الجزء الضخم يصبح دقيقاً ، والدقيق يصبح ضخماً . هكذا إسرائيل ، فيها كل الصفات الإنسانية خيرها وشرها ، إلا أنها تتضخم فضائلها وتصغر عيوبها حينا ، ثم تصغر هذه الفضائل وتعظم العيوب حيناً آخر . أننا لم نأت بجديد وإنما نمثل الناس جميعاً على هذا الوجه .

— إنى إنما أريد أن أعلم شيئاً واحداً : أنحن على صواب فى اتهام هذا الرجل وصلبه ، أم على خطأ .

— احتكم فى ضميرك وحده فهو الذى يهديك .

— ليس الأمر للضمير وحده . إنما يتعلق أكثره بالعقل وعقلى هو الذى يوحى إلى أن فى دعوته خطراً على بنى إسرائيل ، ولذلك طالبت بدمه . وإنى أريد أن أتبين هل هو حقاً خطر علينا ؛ أريد أن أعلم إلى أى طريق يسير بنا العقل ، أإلى الحق أم إلى الضلال .

ـــ ليس إلى ذلك سبيل إن كان العقل وحده دليلك . أتستطيع النملة أن تعلم أسائرة هى صوب قمة الجبل أم إلى أسفل الوادى ؟ إن قصر نظرها ، وصغر خطواتها يمنعانها أن تدرك الغاية البعيدة ، وهى مع ذلك أكثر ما خلق الله صواباً فى عملها ، أنها تقدر الخطأ والصواب القريبين ، ولا شأن لها بالغايات البعيدة .

ـــ ولكن الإنسان ليس نملة ، أنه يرى الغيب بعقله .

ـــ وهذا مصدر أخطائه الكبرى . أنه يظن فى نفسه القدرة على أن يرى المستقبل بعقله ، ويخيل إليه أنه يستطيع أن يهيىء الأسباب التى تؤدى به إلى غايات يعينها ، وهو تقدير كل عناصره خطأ . ولو أنه دبر أمره على ما يوحيه إليه ضميره حاضراً ، ولم يسرف فى الثقة بما يصوره له عقله من نتائج بعيدة لقل خطؤه .

أن أعظم الناس ذكاء لا يدرى ما سيكون لما يعمله من أثر بعد عام أو عشرة . والذين يحسبون مثل هذا الحساب يظلون يتخبطون فى ظلمات الضلال . ألم يأتك نبأ ذلك البناء الذى عرفه المصريون واليونانيون ، ذلك البناء الذى جعلوا له طرقا ملتوية ، من دخلها صعب عليه أن يجد لها منها مخرجاً ، ما لم يرشده دليل . أن السائر فيه لا يستطيع أن

يقدر ، عند كل مفترق ، أمخطىء هو أم مصيب . كذلك الحياة ، لا يدرى أحد عندما يختار طريقاً بعينها ، أسائر هو إلى النجاح أم إلا الاخفاق ، وهل ما يعمله صواب أو خطأ .

— إنى أريد أن أهتدى إلى الصواب فى هذا الأمر البسيط ، أصلب هذا الرجل اليوم حق أم باطل .

— حاسب ضميرك وحده . ثم أخلص لهذا الضمير ، وليس عليك أن تعلم هل سيرى الناس عملك حقاً بعد مئات السنين ، فليس للانسان سبيل إلى علم ذلك .

— إن ضميرى وحده لا يرى عليه مأخذا .

— وهل سنقول ذلك اليوم .

— وددت لو استطعت انقاذه .

ثم سكت وسكت صاحبه برهة ، ثم استأنفا الحديث :

— ألا تريد أن تقوم مقامى اليوم فتدعو الناس أن يعدلوا عن قرارهم بالأمس ، إن ذلك عليك أسهل .

— لعلى أشد حرصاً على هداية نفسى منى على هداية غيرى . ثم أنى لا أرى أن الذين يقومون على أمور الناس يحق لهم أن يتولوا ذلك ، إلا أن تكون قد كملت شخصيتهم ،

واستقرت طباعهم ، وهدأت نفوسهم ، وبرئت من أدرانها ، حتى لا يصيبوا الناس بأدوائهم . ولم يتهيأ لى شيء من ذلك بعد . والذين يعملون فى الحيـــاة العامة يجب أن يكونوا قد خلصوا من صعاب حياتهم الخاصة ، ولما أبلغ هذه الغاية ، فليس لى فضل من جهد أبذله فى الحياة العامة .

— ألا يستهويك أن يكون لك على الناس سلطـــان ، وأن تشعر بسبقك غيرك ، وأن يكون بيدك البطش والعفو ، كأنك تخلف الله فى خلقه . ألا يغريك النجاح . أو لا تدفعك نفسك أبداً إلى الشهوات ، فتخرج بك عن حد العقل . إنى لأغبطك على هذه السكينة التى تمـلأ قلبك ، وهـذا البعد عن ما تأمر به النفس إرضاء لجشعها . إنى أشعر وأنا أغالب الناس فأغلبهم ، وأتولى الحكم فيهم ، أن الأنانية هى الدافع الأول لى ، ويزيد من ألمى لهذا الذى أشعر به أن أتحدث إلى أمثالك ، ممن لم تفتك بهم الأثرة .

— لنفرض أن الأنانية وحـدها هى التى تدعوك إلى خدمة الناس ، فأى أثرة فى ذلك . إن الترهب أكبر مظاهر الأنانية ، مهما يكن فيه من إرهاق وحرمان . إنه لا يراد به إلا أن ينفع الراهب نفسه فى الدنيا أو فى الآخرة ، ولا ينفع تبتله أحداً غيره ، ثم إنك إن تـكن تغبطنى على السكينة فإنى

أغبطك على هذا الشعور الحـــاد بالحياة ، وحبك التمتع بها كاملة . ولو أنك أخلدت إلى السكينة ، وهى ليست من طبعك ، لشقيت بها . ولو اندفع مثلى إلى الـكفاح ، وليس من طبعه ، لـكان شقياً .

— ولـكنى قد أضر أو أنفع ، وقد أخطىء أو أصيب وقد أوذى الأبرياء ، أو أرفع المجرمين ، وقد أفعل كل ذلك فى سبيل إرضاء نفسى وبلوغها أمانيها ، وفى سبيل التمتـع بهذا الشعور العميق بالحياة .

ـ إن خدمتك للناس فضل منك ، مخطئاً كنت أو مصيباً : إنما يرهق أمثالك أنهم يرون الحياة سباقاً ، ومن رآها كذلك فلن يقنع بشىء ، ولن يرضى عن نفسه ، ولو أوتى ملك القياصرة . ولو أنهم راضـو أنفسهم على أن الحياة ليست سباقاً ، وإنما هى تحقيق ما ركب فيهم من قوة وقدرة ، ولو أنهم علموا أن كل واجبهم أن لا تقصر همتهم عن تحقيق ما خلقوا له . وما ركب فى طباعهم من قوة أو ضعف ، لاتفق لهم بذلك كل ما به يسعدون .

ـ إن قولك هذا يخفف عنى كثيراً من ألمى واضطراب نفسى ولـكنى مع ذلك أريد أن لا أذهب إلى دار الندوة اليوم حتى لا أحمل الوزر كله .

ثم خرج صاحبنا ولم يكن فى الواقع أقل قلقاً وحيرة ، ولم يكن لهـذا الحديث أن يهدىء من ثورته ، أو يهديه طريق الصواب . وأخـذ يقول لنفسه : إن أكبر الجرائم ترتكب فى سهولة ويسر ، إذا وزعت توزيعاً يجعل نصيب كل فرد أصغر من أن يضطرب له ضميره ! لم يجد الشيطان إغراء للناس يسوقهم إلى جهنم أقوى أثراً من هذا القول . أترانى أسير أنا أيضاً وراءه إلى جهنم ، غير عالم بما يدفعنى إليه عقلى وعلمى ؟

المفتى

كان فى أورشليم عالم فقيه تقى ، وكان قومه يحبونه ويجلونه ، وكان يتولى افتاء بنى إسرائيل فى أمور دينهم . وهم قوم فى حاجة دائما إلى الفتيا ، ذلك أنهم لا يفتأون يلتمسون تأويلا لنصوص التــوراة حين تعترض ســبيل حياتهم ، وما أكثر ما يحدث هذا الاعتراض . ومما يؤثر عن المتدينين منهم أنهم يرون أن الرجــل يجب أن يمهر عرسه قطعة من ذهب . فإن كان من الفقر بحيث لا يملك ما يقدمه لها فانهم يبيعونه خاتما من ذهب بثمن بخس ، درهم أو اثنين ، يقدمه إليها ؛ ثم يشترونه منها بعد ذلك بدقائق ، ويرون ذلك خيرا من إعفاء الفقير من هدية الذهب ، لأن الاعفاء لم يرد به نص فى كتبهم . ولمثل هذا كان لرجل الافتاء عند اليهود شأن ، وكان لهذا المفتى شأن أكبر ، إذ كان حريصا أشد الحرص على أن تكون فتواه خالصة لوجه الله .

وكان له ابن من أذكى الناس ، يصحبه دائما إلى الندوات ، يستمع ويتعلم ، وكان يعد نفسه لأن يلى الافتاء

من بعد أبيه . وكان فى صباح ذلك اليوم ممتلئا نشاطا وسروراً ، حين جاء إلى أبيه مبكرا فسلم عليه وقبل يده ، وجلس إليه ، على عادته كل يوم .

— يا أبت أنى سمعت بالأمس حديث رجل الاتهام عن صاحب الدعوة الجديدة ، وما كان أسعدنى بهذا الحديث العجيب الذى جمع إلى العلم الغزير حدة الذكاء ، وسحر البلاغة المتدفقة . ولا شك أنك أعجبت به كما أعجب الناس ، فقد كانوا يستمعون إليه فى دهشة ، وهم منصتون إلى كل كلمة يقولها ، كأنما بهرهم جميعا حسن بيانه ، وصدق اخلاصه ، وعظيم حبه لوطنه . وما كنت أحسب قبل اليوم أن أحد يستطيع أن يبهر علماء بنى اسرائيل ، فيملك عليهم قلوبهم وعقولهم كما فعل هذا العالم الخطيب . وما أعجبت بشىء اعجابى بقوة حجته ، فقد أخذ يسرد وقائعه منظمة على أدق وأحكمه ، كان يبدأ بأصغرها ، ثم يتبعها ماهو أكبر منها ، ويأتى بعد ذلك بما هو أشد خطرا ، وتراه يقوى أسلوبه ويعلو صوته تبعا لذلك . وهكذا أخذت حججه يتلو بعضها بعضا ، على نظام منطقى بديع ، حتى لم يعد أحد يشك فى شر هذه الدعوة . ولم يكفه ذلك ، فعطف على مستقبل بنى إسرئيل ، وصوره لنا

صورة رائعة ، ووصف ما سيحيق بأمتنا لو أن رجال عصرنا خارت قوتهم ، فتركوا الفوضى تدب فى حياتنا وعقائدنا . وأخذ يشرح لنا أن مستقبل اليهود بعد ألف عام أو أكثر سيقوم على ما نفعله اليوم ، فإن أخذتنا الشفقة ، وأحجمنا عن القيام بواجبنا قضى على أمة اسرائيل كلها ، فاذا قاومنا البدع فسيحمدلنا قومنا شجاعتنا هذه بعد ألفى عام . وكان كل ذلك واضحا كأنه يراه رأى العين ، وهو بعد لا يزال من أنباء الغيب البعيد . أليس الذكاء نورا الهيا نرى به ما سيقع بعد أن توارى التراب نحن وأبناؤنا وأحفادنا ، أيمكن أن يكون هذا تنبأ به خطأ مع هذا الوضوح كله ؟

وما أنس لا أنس قوله : « أن حياة بنى اسرائيل ، شعبا وديانة ونظاما ، أمانة فى عنقنا ، فليس لنا أن ندع أمتنا يعصف بها كل من يأتيها ببدعة جديده . أن البدع لا تؤثر فينا ، وأن كثرت ، فنحن أقوى إيمانا من أن نضطرب لشىء مما سمعتم ، ولكن البدعة كضربة المعول فى الجدار ، قد لا تؤثر فيه أول مرة أثرا ظاهرا ، ولكنها تفعل به فعلا خفيا يجعله أسهل سقوطا عند الضربات التالية . فاقطعوا دابر الفتنة فانها فتنة حقا . وقد رأيتم من فتوى المفتى ، وهو على ما تعلمون علما وفضلا ، أن معجزات صاحب

الدعوة الجديدة أن صحت لا تدل على صدقه ، ورأيتم ما قاله شيخ علمائنا من أن المبـــادىء الخلقية التى يدعو اليهـا ـ بالغـة ما بلغت من السمو ـ تنقص ما أمرنا به الله . أليس الله أعلم بما يصلح للنـاس ، أيجوز لمثل هذا الرجل أن يرتفع فوق ما أمرنا به سبحانه وتعالى . أنه يأمر رجاله أنـ يحبوا أعداءهم ، ونحن وأن كنا أسلم عقلا من أن نستدع إلى هذا الـكلام الخلاب ، لانستطيع أن نسكت عنه ، فان فيه القضاء التام على بنى اسرائيل . ولو آمنوا به لانحلت وحدتنا وضاعت شخصيتنا وتلاشت أمتنا فى من حولنا من أعدائنا وهم أقوياء . أن ذلك لن يكون أبدا . أن كل ما نعلمه عنه يرجح كذبه وشدة مكره ، ويحتم علينا أن تقضى عليه . على أنى أذهب إلى أبعد من ذلك ، هبوه صادقا ، وهبوه ذا قوة وسلطان ، يأمر الجبال فتسير ، والموتى فيقومونـ ، هبوه يستطيع أن يرسل الصواعق فتقضى علينا نحن الذين نحاكمه ، هبوا ذلك كله واقعا علينـا لا محـــالة ، فانى أدعوكم ، رغم هذا كله ، أن تتمسكوا بالقضاء عليه . من منا لايقبل أن يموت فى سبيل حياة بنى اسرائيل ، وأية تضحية لاتهون فى سبيل شعب كشعبنا ، ودين كديننا ، اذكروا قوم اسرائيل بعد ألفى عام ، واحـكموا على هـذا الداعى إلى

البدعة بما يكون فخراً لكم ولهم فى ذلك المستقبل السحيق » .

أليس ذلك أجمل ما سمع الناس وما قرءوا ؟

فقال له والده :

— وهل فى هذا الجمال ما يدل على صواب رأيه ، وصدق حكمه ؟

أنه إنما استرشد بفتواك ، ورأى كبير العلماء .

— كلانا يعلم أنه أخذ من قولنا ما يعجبه ، وترك ما لا يوافق هواه . ألم أحذرك نصف الحق فهو شر من الباطل .

— ولم لم تذكر ذلك بالأمس ؟

— سأذكره اليوم .

— لن يكون لذلك أثر ؛ فقد ثبت لدى الناس أن صلبه واجب .

— أهذا ذنبى .

— أتراه ذنب القائم بالاتهام ؟

— قد لا يكون ، وقد لا يكون ذنب الناس ، فهم إنما اقتنعوا بما قال كبراؤهم .

— إذا كان ما حدث بالأمس خطأً فمن المخطىء ؟

— علم ذلك عند الله وحده .

— ألا يمكن أن يكون ما قرر العلماء بالأمن صواباً .

— وقد يكون خطأ . قد يصير هذا اليوم سبة لبنى إسرائيل إلى الأبد ، وقد يكون سبب نكباتهم ، شعبا ودينا ونظاما ، مدى عشرات القرون ، وإنا لنعلم أن الصواعق لن تنزل علينا اليوم ، مهما يكن علمنا ضلالا . فدعوى التضحية بأنفسنا فى سبيل حياة قومنا ، وطهارة ديننا ، دعوى رخيصة ، إننا نريد إنقاذ اليهود بهذا القرار ، وقد يكون عملنا سبباً فى قتل آلاف اليهود ، وقد يعذب من قومنا مئات الآلاف وهم أبرياء لا ذنب لهم إلا هذا القرار الذى دفعنا إليه خطاب أعجبك زخرفه .

— إن الشك عندما يحين وقت العمل لا يغنى شيئاً ، أليست هناك وسيلة تعرف بها وجه الصواب فى مثل هذا الأمر .

— لا أدرى . ولكنى أعلم علم اليقين فن هناك طريقين تؤديان إلى الخطأ : أن نرجع إلى التاريخ نلتمس فيه الموعظة والأمثلة ، وأن نسترشد بالمستقبل كما يهيئه لنا تفكيرنا ، فنقدر حاضرنا على أساس ما نتصوره من نبوءات ، ولعل التاريخ ، على ما به من ضعف ، أهدى إلى الحق من دعوى

التنبؤ بالغيب ، فإن هـذا التنبؤ لا يمكن أن يقوم على صحته برهان ، وإنمـــا يعجبنا بريق الذكاء الذى يصحبه غالباً . ألم تركيف أعجب فرعـون بالنبوءات التى ذكرها يوسف ، قبل أن يقوم عليها برهان ، ولم يكن تصديقه له ، وإعجابه به إلا لما فى قوله من دليل على الذكاء . وإذا كان يوسف قد أصاب فى قوله ، فإن ذلك لم يكن من عمل عقله ، ولـكنه وحى أوحى إليه . أما غير الأنبياء من المتنبئين الذين يعتمدون على ذكائهم ، فإنهم كاذبون ، وخطؤهم أكثر من صوابهم .

— وما سبيل الناس إلى الصواب .

— اتركوا الغيب لله ، فليس إلى العلم به سبيل ، وهو علينا أشد ظلاماً من أن تـكون لنا فيه هداية . وليـكن حكمنا قائماً على ما فينا من قدرة على تقـدير الحاضر ، على أن لا تتعدى حـدود الضمير . وليس فينا من يرضى ضميره عن صلب هذا الرجل ، وإنما يرضى عنه عقلنا وحده أما الضمائر التى خلصت من شوائب التفـكير الخـاطىء فلن ترضى عن عملنا هذا .

عند ذلك أطرق الشاب ووجم . ودخلت عليهما أمه تحمل طعامهما فوجدتهما على غير ما تعهد ، وقال الأب أنه

لا يريد أن يأكل شيئاً ، وقال الإبن إن الحديث قطع عليه كل رغبه فى الطعام ، وكان قبله أكثر ما يكون نشاطاً . ولما علمت أمه بما دار بينهما قالت لابنها :

ـ إن أباك خلق وبه داء الشك والتردد ، ولم أعهده أفتى فتوى رائعة إلا عاد إلى نفسه يقول ليتنى لم أفعل .

ـ إنى لن أفتى بعد اليوم ، إنهم أساءوا فهم فتواى ، ويريدون أن يقتلوا بها رجلا لا أرى ضميرى يرضى عن قتله .

ـ لعلك تريد اليوم أن تعدل عن رأيك .

ـ وما الذى يمنعنى من ذلك . إنى لا أريد أن تبقى فتواى على الزمن سبباً فى صلب رجل لا أعلم عنه شراً .

ـ ألا يمكن أن تكون الفتوى صواباً .

ـ اثمها إن تكن خطأ أكبر من نفعها إن تكن صواباً .

ـ إن الناس جميعاً آمنوا أن صلبه واجب ، ولن يعدلوا عن رأيهم ، بعد ما سمعوا ما تداولتموه بينكم بالأمس ، ولن يكون لرأيك الجديد من أثر فيهم . فإن العاملة لا يفهمون التشكك ، حتى حين يكون الشك هو الصواب ، بل هم يتبعون من يؤكد لهم أن رأيه هو الحق الذى لا ريب فيه ، ولو كان خطأ كله .

ـ سأترك سيـــاسة العامة لغيرى ، فليس أمرهم من شأنى ، انما يعنينى أن لا يبنى الخطأ على رأى بنسب إلى .
وإذا كنتم تريدون الحق الثابت فابحثوا عنه فى غير هذه الدنيا ، أو عند غير الانسان . وأنا لا أريد أن أكذب على العامة فأصبغ لهم رأيا بعينه صبغة الحق الثابت ، ولا أريد أن أموه عليهم ، ولو كان ذلك خيرا لهم . وإذا كنتم ممن يرون أن الكذب تسوغه السياسة . فاعلمـــوا أن ذلك إنما يرجع إلى ما اختاره رجال السياسة لأنفسهم ، فهم يختارون أسهل السبل وأقربها إلى بلوغ غاياتهم . وأقلها مشقة .
وأنك لتراهم يتهافتون على الكذب ويتسابقون إليه ، حين يكون أسهل السبل إلى غاية يريدونها . ولو اتبعوا سبيل الصدق لبلغوا هذه الغايات على ما قد يكون فى طريقهم من مشقة وصعاب . وإذا كان من رجال الدين من يرى رأى أهل السياسة ، فذلك أنهم يضعون السياسة فوق الدين ، أو يضعون سياسة الدين فوق الدين نفسه ؛ وهـــذا هو الضلال المبين .

لازار

كان في أورشليم رجل أسمه لازار ، بعث بعد موت ، وكان بعثه معجزة تحدث بها الناس ، فآمن بها قليلون وأنكرها كثيرون . وكثر الحديث عنها في دار الندوة حين بحثوا في أمر النبي الجديد الذي يدعى له أنصاره القدرة على احياء الموتى . ولم يكن هناك شك أن لازار مات أياما ثم لجأت أخته إلى المسيح طالبة أن يبعثه من أجلها ، إذ لم يكن لها في الحياة غيره . وكانت مؤمنة بالمسيح ، فاستجاب لايمانها ، وعادت الحياة إلى أخيها . إلا أن الذين عرفوه من قبل شابا جميلا مرحا ذكيا ، أنكروه بعد أن بعث . فقد أصبح بعد البعث شاحب اللون ، غائر العينين ، قليل الكلام ، شارد الفكر . وكان الناظر إليه لا يرى في وجهه أثرا للعواطف الإنسانية الطبيعية ، فهو لا يفرح ولا يحزن ولا يضحك ولا يبكى ، وإنما كان يغضب غضبا عنيفا إذا غاظه أمر من الأمور ، ويهيج في غير اعتدال لأتفه الأسباب . وكان شديد الاضطراب ، دائم الخوف ، ترى ذلك في نظرته

الحائرة التى هى أشبه الأشياء بنظرة السبع حين يحاط به فلا يجد سبيلا إلى النجاة .

ولم يكن يألف أحدا من الناس ، حتى أخته التى من أجلها بعث ، ولم يعد يتحدث إلى أحد ممن عرفهم من قبل ؛ وصار لا يجلس إلى أحد ، ولا يسير إلا فى الدروب الضيقة وكانت أخته وحـدها من بين أهل أورشليم تجلس تحت قدميه وتقبله وتعطف عليه . وكانت هى وحدها التى ترى أن عودته إليها نعمة وبركة . ولم يكن يعنيها على أية صورة عاد ، فان فقدها أياه كان خليقا أن يحرمها كل أمل فى الحياة . وكان تعلقها به تعلق الذى بعث له أمنية عزيزة ، كان يظنها ضاعت إلى غير رجعة . أما أهل أورشليم فكانوا يتشاءمون به . وكانوا يبادلونه البغض والضيق والضجر ، وكلهم برم به ، لا يريد أحد أن يعرفه ولم يسأله أحد عن صفة الموت وهو وحده الذى عاد بعد أن ذاق طعم الموت وخبر أمره . ولم يقبل عليه أتباع النبى الجديد ولم يعدوه واحدا منهم . إنما كانوا يتخذونه آية من آيات الله ، وبينة على صدق رجلهم الذى آمنوا به . واتفق النـاس جميعا على أن بعثه لم يكن نعمة عليه ولا على أحد ممن حوله . وكانوا يعدونه أتعس أهل أورشليم ، كأنه حين بعث إنما عادت إليه الحياة

ولم تعد إليه الروح أو النفس. وتساءل الناس : هل البعث إلى هذه الحياة الدنيا ـ وهو حلم الانسانية كلها ـ لا يتم إلا على هذه الصورة ، وأجمعوا على أنه إذا كان هذا شأن البعث فلا حاجة بالناس إليه.

وبينا لازار يسير مبكرا فى ذلك اليـــوم إذ رآه بعض الأطفال فتجمعوا حوله ، وأخـذوا يرشقونه بالحجارة ويسخرون منه ويؤذونه ، واتبعوه فى الطرق الضيقة التى كان يألفها ، يبتعدون عنه حين يهجم عليهم ، ويجرون وراءه حين يريد الافلات منهم . وكان فى الطريق الضيق الذى سلكه وكان حداد فقير لا يكاد يكسب قوت يومه لقلة ما يطلب إليه عمله ، ولـكنه كان سعيداً فى ذلك اليوم أن قدم عليه تاجر معروف يطلب إليه أن يوقد النار من فوره ، وأن يعمل له أشياء لابد من صنعها اليوم ، ويخبره أن ذلك لأمر جلل لم يشأ أن يذكر عنه شيئا.

وأجزل التاجر العطاء لهذا الحداد ، ووقت غـير بعيد ينظر إلى الـكور بعد أن أوقدت فيه النـــار ، وإلى الحديد يطرق والشرر يتطاير منه ، واطمأنت نفسه أن ما وعد به أولى الأمر من الرومان سيتم عما قريب.

وأقبل لازار والأطفال من حوله ، وقد بلغ منه الذعر ،

ورأى أن يلجأ إلى دكان الحداد فدخل فيه . ولكن الحداد
حين وقع نظره عليه صاح صيحة انخلع لها قلب لازار ، أن
اخرج من هذا المكان فلن أدعك تدخله وأنت أشأم الناس ،
وكفانى بؤسا ما لقيته فى حياتى ، فلا تجلب على الشؤم
فى هذا اليوم الذى لاحت لى فيه بارقة أمل ولوح الحداد
بمطرقته وهو يتميز من الغيظ ، واضطربت يده ، فأفلتت
المطرقة ووقعت فى الكور فتطايرت قطع من النار ، أصابت
إحداها التاجر فى عينه فزأر من شدة الألم ، وهول الفاجعة .
وجن جنون الحداد فاندفع صوب التاجر ليرى ما حدث له
فزلت قدمه ووقع على الأرض فتلقاه بيده ، وكان فى الأرض
مسامير كثيرة ، دخل إحدها فى يده اليمنى فخرج من ظهرها ،
وعلا الصياح واشتد الهرج ، وأقبل الناس من كل فج ،
وشغلوا بانقاذ المصابين ، وكان فى الوقت متسع للازار ،
فهرب واختفى عن أعين المطاردين حتى بلغ مأمنه . فلما رأته
أختاه على هذه الحال من الرعب ، حزنتا حزنا شديدا ،
وطفقتا تصليان ، وتدعوان الله أن يتم نعمته عليه ، وإن يرد
إليه صحته وعقله وجماله ، فاستجاب لدعائهما ، ولكن لازار
لم يعد يطيق الحياة فى بلده هذا فعزم على أن يبرحه وأن
يهاجر إلى بلاد نائية يبشر فيها بالدين الجديد .

وأراد التاجر أن يطمئن إلى أنه لايزال يرى بعينه الأخرى فنظر إلى الحداد فوجده يلوح فى الهواء بيد فيها مسمار اخترقها ، عند ذلك هدأ صياحه ونزلت عليه السكينة ـ على ما كان فيه من ألم لا يطاق ـ وطلب إلى الناس أن يعينوه على الذهاب إلى بيته ، وأن يحملوا الحداد إلى طبيب وقال لأصدقائه إنه يريد أن يحتمل ألمه دون شكوى ، فانه يعلم ما لا يعلمون ولا يريد أن يبوح بما يعلم ، وأن فى ألمه شفاء من من داء لايعلمه الا هو

تجمع فى مكان الحادث خلق كثير ، وعلا ضجيجهم ، واشتد هرجهم ، وأخذوا يطالبون بالانتقام من أولئك السحرة الذين يعيشون فى الأرض فسادا ، ويؤذون الأبرياء . فلما سمع التاجر ذلك طلب إليهم أن ينصرفوا ، فهو لايريد انتقاما ، ولا يعتقد أن الحادث من أعمال أتباع النبى الجديد ولكن الذين تجمعوا فى ذلك المكان أحسوا بقوتهم ، وصمموا على الانتقام ، وقالوا إن كان هؤلاء يشفون المرضى فهم قادرون على أحداث المرض فى الأصحاء ، وإن كانوا يحيون الموتى فهم قادرون على قتل الأبرياء ، وتنادوا بينهم أن هلموا إلى دار الندوة نطلب دمهم جميعا ، هو وأتباعه ، ورأوا بينهم رجلا منعه ضعفه أن يشاركهم فى حماستهم ،

فحسبوا ذلك منه استنكارا لما يعملون ، فضربوه حتى أغمى عليه . وقال رجل منهم هذا ظلم ، انكم تقتلون بريئا لا ذنب له ، فنظروا إليه نظرة ملؤها البغض والغضب وحب الاجرام ، وقالوا هذا أيضا من رجاله ، اقتلوه . وهموا به فامتقع لونه ، وعلم أن الإنسان يقف أمام الجموع الهائجة كما يقف أمام الحيوان المفترس ، ونظر إلى من هم أقرب إليه ، فأجفلوا عنه واحدا واحدا ، ولكن الجمع لم يجفل ، وكادوا يبطشون به فى غير ذنب جناه ، لولا أن قيض الله له رجالا يعرفونه حق المعرفة ، أنقذوه منهم . ومنذ ذلك اليوم كرة الجموع الحاشدة ، إذ أيقن أنها لا تفهم الحق ولا العقل ولا العدل ، وأنها لا تفهم إلا القوة ، ولا تخضع إلا لها .

وأقبل على بيت التاجر رجل من علماء بنى إسرائيل كان من أشد الناس غضبا على صاحب الدعوة الجديدة وأتباعه . فلما سمع بما حدث تاقت نفسه أن يتثبت فيكون ذلك دليلا جديدا على فساد هذه الطغمة التى لا يمكن أن يكون فيها خير . واختلى بالتاجر ، وسأله عن حقيقة هذا الحادث العجيب .

— انى لا أرى فيه ما يدعو إلى العجب . كنت أقف بجانب النار ، وكان يجب أن أقف بعيدا عنها ، ولو فعلت

ما أصابنى شىء ، ثم سقطت مطرقة من الحديد فى النار ، فتطاير الشرر فأصاب عينى ، فأية غرابة فى هذا ، ثم وقع رجل على الأرض فدخل فى يده مسمار ، أليس ذلك طبيعيا جدا ، فما لكم تؤولون ما حدث كل هذا التأويل .

— ألم يحدث فى تلك اللحظة أن مر بكم هذا الذى بعث بعد موت ، وإنك لتعلم أن هذا الرجل هو أصل البلاء فى هذه الأيام ومصدر الشقاق بين بنى إسرائيل . إن الناس يكرهون أن ينظروا إليه . رعبا وفرقا ، وإن هيئته وحدها لتدل على أن بعثه من عمل الشيطان . والروح الذى نفخ فيه ليس هو روحا إلهيا ، بل هو روح الشر . إنه حى لم يفقد بعد صفات الموت ، كأنما بعثت فيه الحياة وحدها فبلغ مرتبة الدواب ، ولم يبلغ درجة الإنسان .

— أليس فى الناس من يتبرك به ويود أن يلمسه تيمنا به ، أو ليس الله قد اختصه بما لم يختص به غيره من العالمين .

— لا أظن أحدا يراه مباركا لا أخته ، فهى تكاد تعبده . أما الحواريون أنفسهم فلا يألفونه ولا يجلسون إليه ، إلا حين يريدون أن يقيموا الدليل على صدق نبيهم وقدرته .

— إنى لا أفهم سببا يدعو الناس إلى كل هذا التشاؤم . ألا يمكن أن يكون لبعثه معنى خاص .

— لقد سمعت شيخ علمائنا يذكره يوما فيقول : إنه رمز للضمير الإنسانى بعد ارتكاب الخطيئة والتوبة . إن الله يتوب على الناس بعد المعصية فيرد إليهم ضميرهم بعدموته — فإن ارتكاب المعصية قتل للضمير — ولكن الضمير يبعث على هيئة هذا الرجل ، شيئا بين الحى والميت ، ولا يمكن أن يكون ضمير الرجل بعد التوبة طاهرا ، كضمير البرىء الذى لم يرتكب إثما .

— هذا رأى جميل لا يستطيعه إلا من أوتى حظا عظيما من الحكمة والعلم ، أما جمهرة النـــاس فلا تفهم الرمز . على أنى لا أزال أؤكد أن وجود هذا الرجل لم يكن سببا فى ما حدث اليوم .

— إن الناس يتحدثون بشؤمهم ، ويقولون إن ما حدث لك نذير بما سيحيق بكثير منا إن لم نأخذ حذرنا منهم . وآخرون يقولون إن مثل هذا الحادث العجيب يكون عادة عقابا إلهيا يقع على من اقترف ذنبا أو خطيئة ، ونحن لا نعرف عنك ولا عن الحداد المسكين ذنبا يتفق وهذا العقاب . ولما كان الناس جميعا يرون أنكما بريئان فلا شك أن ما حدث

لكا من عمل الشيطان ، وهذا ما أعتقده . وسأذهب إلى دار الندوة اليوم أقص عليهم هذا النبأ ، وأسوقه دليلا على أن بين هؤلاء وبين الشيطان نسباً . وأنه يتخذهم أداة يؤذى بها الأبرياء أمثالك ، وأنه لا بد أن نقضى عليهم جميعاً .

ـ وهل تصر على رأيك هذا إذا قلت لك أن ما حدث لنا اليوم معجزة تدل على صدقهم . ألا فاعلم أن ما يدعوك إلى تكفيرهم يدعونى إلى الإيمان بهم . إن هذا الرجل لذو قوة خارقة ، وسأسر إليك ما أود أن لا تذيعه عنى . ذلك أنى كنت فى ذلك الدكان لأعد الحديد الذى لا بد منه للصليب الذى سيصلب عليه نبيهم اليوم . ولأعد المسامير التى ستدق فى يديه ورجليه . وكان أولو الأمر من الرومان قد طلبو إلى ذلك ووعدتهم به ، ولم أرد أن أخلف وعدى . فلما فتحت عينى ونظرت إلى الحداد ووجدته يلوح فى الهواء بيد قد نفذ فيها المسمار ـ بدا لى أن ذلك رمز للجرم الأكبر الذى سيرتكب اليوم ، كأنه عقاب إلهى لهذا الذى يصنع أداة الإثم ، فخفق قلبى بالإيمان ، وعلمت أن يد الله فوق أيدينا ، وأن رجله هذا مظلوم .

عند ذلك دهش هذا الصديق العالم وقال :

ـ أحق ما تقول ، إنك تكاد تقلب آرائى رأساً على

عقب ، أيمكن أن يكون هؤلاء من المخلصين لله ، لا من أتباع الشيطان ؟

ـ هذا ما لا أشك فيه منذ اليوم .

عند ذلك وجم هـذا الصديق ، وخارت قوة حجته ، وشك فى نفسه مدة من الزمن ، ثم غلب عليه الغرور وحب الظفر ، وخشى قـول الناس فيه وغضب الجمهور عليه ، فقال لصديقه :

ـ هذا كله من نسج خيالك . أترى شعب إسرائيل كله مخطئاً لأنك رأيت فى يد ذلك الحداد مسماراً فخيل إليك أنه عقاب له على صنعه مسامير يصلب بها صاحب البدعة الجديدة . أيسمح لى عقلى وعلى أن أتبع خيالك فأغلبه على الرأى الراجح والحكمة الناضجة ، وهل تظن أن الله فى حاجة إلى مثل هذا الرمز ليقنع الناس أن رجله مظلوم ، أليس الله بقادر على أن يرسل علينا صاعقة من السماء تذهب بنا جميعاً قبل أن نقتل نبيه ، وهل يبلغ الله عندك من الضعف أن لا يمنع صلب رسوله إلا بهذا الرمز البعيد . ألا أن خيالك لمريض ، ولن يكون لرأيك هذا وزن عندى .

ـ إنك لم تفقد عينك ، ولم يدق المسمار فى يدك ، ولو أصابك ما أصابنى لآمنت .

ـ وهل تظن أن سبيل الله إلى إيمان عباده به أن يفقأ أعين الناس ويدخل الحديد فى أيديهم .

ـ هذا سبيله فى الذين لا يؤمنون ، والذين فى طبعهم الكفر .

ـ ترى ما الذى سيصيبنى وأنا أصعب منك تصديقاً وإيماناً .

ـ إن الله يهوى من يشاء من غير بينة ولا آية ، ويهدى غيرهم بالبينات والآيات ، أما من أراد له الضلال فلا هادى له .

ـ إن رأيك فى الله بسيط جداً كرأى الجهلاء والأغبياء يظنون أنه ينظر إليهم أفراداً ويحصى عليهم أعمالهم واحداً واحداً وعملا عملا ، والذين أتوا قليلا من العلم والذكاء يضحكون من رأيكم فى الله . إن إيمان أمثالك أكبر سبب فى الحاد الملحدين الذين إنما ينكرون ما تواضعتم عليه أنتم من أنه صفات الله .

ـ فلتظل على علمك وذكائك : أما أنا فقد سمعت من أتباعه من يقول أن الغباوة والجهل والفقر طريق الهداية ،

وإذا كان يعنيك أن تعلم شيئاً عنى فاعلم أنى تركت قومك إلى قومهم وأنى بعد اليوم غبي جاهل فقير .

وسكت كل منهما ، وخرج هذا العالم محنقاً مغيظاً ، وسار إلى دار الندوة وقد أخذته العزة ، وصمم على أن يكون عند رأيه بالأمس ، وإن كان قد شعر فى قرارة نفسه أن الحق لم يعد بيناً كما كان يظن منذ ساعة .

قيافا

حين ألقيت مقاليد بنى إسرائيل إلى قيافا فرح أكثر الناس أن سيحكمهم رجل عالم عادل طيب . ولم يكن ذلك جديداً على بنى إسرائيل ، فقد ولى أمرهم من قبل أنبياء وقضاة وملوك ، وكان من بين الملوك رسل وأولياء . وكان اليهود قد سمعوا عن فلسفة اليونان ، وعلموا أن لهم حكمة وان لم ينزل عليهم كتاب ، ولم يذهب ضمائرهم دين . ونمى إليهم أن أحد كبار المفكرين اليونانيين كان يرى أن توكل أمور الحكم إلى الفلاسفه ، وكان قيافا فيلسوفهم وعالمهم فاطمأنوا إلى حكمه ، وحسبوا أن عهداً جديداً فى تاريخ قومهم قد بدأوا وأنه سيكون عهداً سعيداً .

وكان بنوا إسرائيل فى تلك الحقبة من حياتهم فى محنة لا تعدلها محنه ، منذ فتح الرومان بلادهم وأعملوا فيهم القوة . وكان أشد ما يزعجهم أن يتحكم فيهم وثنيون لا يفهمون من أمور الدين شيئاً وهو أعز شىء عليهم . وكان على من يتزعمهم أن يقيم شر الظلم وشر الوثنيه ، وأن يبقى

دينهم قوياً وحياتهم طاهـــرة ، على الرغم من الرومان وجبروتهم — كان عليـه أن يبقى النـار والمـاء متجاورين لا يطغى أحدهما على الآخر . وكانوا يرون أن قيافاً وحده قادر على تحقيق ما يريدون ان كان إلى ذلك سبيل .

وحسده فريق منهم فطعنوا عليه وقالوا أنه لن يستطيع حكم بنى إسرائيل فهم شعب صعب القياد شديد المراس . ذلك أن قيافا كان لا يؤمن بالقوة ، ولا يرى أن يكره الناس ، حتى على الخير . وكان يقول أن القوة إذا انتصرت للحق فالنصر للقوة لا للحق ، وأن القوة من طبعها الشطط فلا تلبس أن تنتصر للباطل . وكان يرى أنه إذا اصطدم الحق والباطل وانهزم الحق فان ضمير الناس وسير التاريخ كفيلان باصلاح الخطأ ، أما إذا استعان الحق بالقوة فالغلبة لهـا ، وما دام الحق فى المحل الثانى فسيبان أن يكون خاضعاً للقوة أو للباطل . ولمثل هذه المبادىء التى عرفت عن قيافا ظن بعض قومه أنه لن ينجح فى حكم بنى إسرائيل لشدة مراسهم ، ولن يفهموا شيئاً مما سيحاجهم به . أما أنصاره فكانوا يرون أن مقاومة بنى إسرائيل للرومان بالقوة مقضى عليها بالاخفاق حتما ، وأنه لابد من مقاومة الطغاة بشىء غير القوة ، وأنه

ليس فى بنى إسرائيل من هو أقدر على ذلك من رئيس كهنتهم هذا .

وعاب عليه قوم أنه كان يقول بالزهد فى السلطان ، وكان يزعجه أن يكون له من الأمر ما يغير به حياة الناس ومستقبلهم لكلمة يقولها قد تكون من غير أعمال روية أو كثير تفكير . وكانوا يقولون ماله قد قبل أن يتولى من السلطان ما يزعجه ويقلق ضميره ، وما كان ينبغى له إلا أن يظل عالماً فيلسوفاً ويدع أمور الحكم لمن لا يرى فيها إزعاجاً للضمير . والواقع أن الذين يتولون الصدارة صنفان ، منهم من يسعى إليها جاهداً مجاهداً يتخذ إليها كل سبيل حسن أو قبيح ، ومنهم من يضعهم قومهم فى الطليعه لثقتهم فيهم وكان قيافاً من هؤلاء ، فلم يكن له أن يحجم عن الزعامة وأن كان لها كارها ، لأنه كان يعلم أن الطامعين كثير ، وأنه أقلهم ضرراً وأبعدهم عن القسوة والأثرة .

وأما رجال السياسة فكانوا أشد الناس قلقاً حين رأوا قيافاً يتولى أمرهم ، فقد كان له فى السياسة وفى رجالها رأى معروف — كأن يرى أنهم لا يستطيعون أن يرتفعوا فوق الواقع ، وأنهم لذلك لايرجى منهم إصلاح ، بل الاصلاح عليهم مستحيل ، ذلك أن السياسيه عند أهلها غايتها تحقيق

الممكن ، أما الإصلاح فهو تحقيق ما يبدو أنه غير ممكن ، فكيف يتفقان . وكان يقول أن السياسيين أجهل الناس بما يتولون من أمر ، وأن عظماءهم قوم يسايرون الحوادث ويحسبون أنهم يسيرونها ، ويخضعون للعامة ويحسبون أنهم الأعلون ، ما دام لهم من العظمة مظهرها . ومن مأثور قوله أن بين أمر الله وأمر السياسة ما بين الأخلاق والحياة — تنافرا وتباعدا واختلافا ، ليس أصلها التناقض وإنما مرجعها إلى صعوبة ترجمة أوامر الله إلى أعمال السياسة كما تصعب ترجمة مبادىء الأخلاق إلى أعمال الحياة .

وقضى قيافا مدة يتولى حكم بنى اسرائيل ، ووفق فى كثير مما عمل ، واستطاع أن يقف من الرومان موقفاً وسطاً بين الشدة واللين ، ووقف من قومه موقف العادل المخلص لهم فآمنوا أنه لا يبغى إلا الحق . وحملهم هذا الإيمان على أن يحتملوا منه مالم يكونوا ليقبلوه من غيره . ذلك أن حسن ظن الناس بالحاكم أكبر أسباب نجاحه ، إلا أنه أمر شاق ، لا يناله إلا القليل ، وسر التوفيق فيه الإخلاص المطلق ، فى غير تدبير أو حساب أو تمويه أو ادعاء . وكان قيافا من هؤلاء الحكام الموفقين الذين يؤمن الناس بعدلهم ، وصدق حكمهم ، وشدة اخلاصهم .

لم تكن حياة قيافا سهلة لينة ، ولكنه كان يرى الحق بيناً ، والباطل بيناً ، فلم يخنه صواب الرأى ، ولم يضطرب حكمه إلا نادرا ، وكانت له قواعد خلقية بسيطة واضحة تهديه إلى الخير ، وقواعد عقلية ثابتة عنده تهديه إلى الصواب فكان صادق الحكم على الأشياء وعلى الناس . وأعانه على ذلك أن الحاكم الرومانى — على ما كان فى الرومان من صلف — كان ممن يقدرون المبادىء السامية ويفهمون مشكلات الحق والضمير إلى الحد الذى يستطيعه من نشأ بين القواد الرومان .

ظل قيافا موفقاً للخير ، راضيا عن نفسه حتى قامت الدعوة الجديدة بين بنى اسرائيل ، فملكته الحيرة فيما يجب أن يفعل بها وبصاحبها . وكان فى قرارة نفسه معجبا بكثير مما جاءت به ، إلا أنه حرص على أن لا يعرف ذلك عنه . ومما أعجبه من النبى الجديد أنه وافقه على سياسته أزاء الرومان ، فان قيافا رأى أن يترك الرومان يدبر أمر قومه فى الدين والحياة الخاصة على أن يترك لهم أن يحصلوا على ما يريدون من جزية . ولكنه كان يغبط صاحب الدعوة أشد الغبطة على تعبيره عن هذه السياسة بما لم يرتفع إليه علم

قيافا ولا ذكاؤه ، وذلك حيث يقول : أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

وبلغ اعجابه بالنبي الجديد غايته حين سمع بمملكة السماء ، ذلك أن قيافا ظل طول حياته يبحث عن حل حاسم لمشكلة خلقية لم يعثر لها على حل فيما بين يديه من آراء الأنبياء والفلاسفة . ولم تكن هذه المشكلة التى أهمته إلا البحث عن جزاء للفضائل السلبية ، والفضائل المستترة ، والسلبية المستترة . فالناس جميعاً يعلمون جزاء الفضائل الإيجابية كالشجاعة والكرم وعمل الخير ، جزاؤها واضح ، هو تقدير الناس واحترامهم وحبهم ، وحسن الأحدوثة ورضى النفس . أما الفضائل المستترة كالصبر والامتناع عن عمل الشر والعطف على الضعيف ، والبر بالفقير ، والأمانة ، فليس لها جزاء واضح إلا إذا علم أمرها وذاع خبرها ، وذلك يذهب بفضلها ، وقد ينزل بها إلى أن تصبح منا ورياء . والفضائل السلبية كالتواضع واحتمال الأذى ونبذ الشرحين تدعو إلى الشر دواعى المنفعة أو التقية أو الأثرة ، أو الرغبة فى تجنب الأذى أو نشوة النصر ، وكثيرا ما تكون هذه الفضائل السلبية أقسى على النفس ، وأصعب احتمالا من الفضائل الإيجابية البراقة الرنانة . وكثيراً ما فكر قيافا

فيما عند الفقراء والجهلاء وبسطاء النفوس ، من هذه الفضائل ، وكان يدرس حياة هؤلاء فيجد فيها من البطولة السلبية المستترة ما يملأ قلبه إعجاباً . بل كان يبحث فى حياة العاهرات ورجال الخمارات فيجد فيها مثلا عليا لشجاعة الاحتمال ، وبطولة التضحية ، وفضل الصبر ، وكان يود لو يستطيع أن يجد لهم جزاء . فانه من الظلم أن يكون تقدير الفضائل مقصورا على بعض الناس دون البعض ، وعلى طبقة دون طبقة . ولم يكن يكفيه ما يقال من جزاء هذه الفضائل رضى النفس ، فذلك وحده لا يفى لهم بما يستحقون من جزاء ، وإذا كان ذلك كل الجزاء فان أكثر الناس سيجدون من الصعب عليهم أن يتمسكوا بهذه الفضائل طول حياتهم ، دون أن يعتريهم يأس أو ملل .

واهتدى أخيراً إلى حل فرح به ، هو أن طبيعة الإنسان كل لا يتجزأ ، فهى وحدة متماسكة ، وكل فضيلة — مهما يكن أمرها خفيا — تعد حجرا فى بناء الشخصية ، ولا يضيع أثرها ، وإن خفى على الناس فضلها . والذين يظنون أن تضحياتهم تذهب هباء ، وأن صبرهم على المكروه لا يعرفه أحد ، وأن تعففهم عن السوء يحرمهم خيرا كثيرا ، ثم لا يعرف أحد عن هذا التعفف شيئا ، كأنهم والذين لم

يتعرضوا للإغراء سواء ، كل هؤلاء يجب عليهم أن يذكروا أن ما يعملون يكون لهم شخصية طيبة لا يخطئها أحد وأن خفيت على الناس أعمالهم تفصيلا ، وأن يعلموا أن فضائلهم وتضحياتهم لا تذهب سدى ، وعليهم أن يظلوا عاملين على شاكلتهم فان هـذه الشخصية الطيبة التي تعرف عنهم جزاء أوفى .

ولـكنه وجد أن النبي الجديد جاء لهـذه المشكلة بحـل أروع وأجـل ، ذلك أنه خلق لهم مملـكة السماء جزاء على هذه الفضـائل المستترة والسلبية ، وجعل دخولها حقا للفقراء والبسطاء والخاطئين والجهلاء . فرد لهم بذلك اعتبارهم وأعاد إليهم إنسانيتهم ، وجزاهم خيرا على ما يكون فيهم من فضائل . وكان ذلك عند قيافا حلا رائعا يحقق نوعا من العدل حرمه هؤلاء من قبل .

ولم يعجبه كثيرا ما تهجم به صاحب الدعـوة الجديدة على الفريسيين ، ولم يكن قيافا يحبهم أو يأبه لهم ، ولـكنه كان يقـول إن إعلان العبـادة والتقوى ينشر لواءها بين النـاس ، فان كان المتعبد التقي منافقا فسيحرمه الله ثواب عبادته وتقواه ، ولـكن هذا التظاهر يبقى على التدين حتى لا ينساه الناس ، وقد يدعو ذلك كثيرا منهم إلى التعبد الحق .

وأنكر قيافا إنكارا تاما ما حكم به صاحب الدعوة الجديدة في أمر المرأة التي أراد الناس أن يرجموها ، فكان يقول أن هذا الذي حكم به السيد المسيح - مهما يكن سموه ونبله - تهجم شديد على أمر صريح من أوامر الله لا سبيل إلى تأويله ، وأن هذه بداية إذا اندفع فيها من في قلبه زيغ فلن يعلم أحد مدى ما يبلغه الناس من تنكر للدين وتأويل لأوامره . وكان قيافا لا يعبأ كثيرا بمعجزات النبي الجديد ، إنما كان إعجابه به أنه أتى بمعجزات من المبادىء السامية ، والحلول الرائعة ، لمشكلات في الأخلاق لم يوفق أحد قبله إلى حلها على هذا النحو البديع .

وكان قيافا يعتقد أن أحدا لا يفهم الدعوة الجديدة ، مداها ومغزاها ، إلا هو وصاحبها . وكان يغبطه على توفيقه فيها من الناحية الخلقية ، ولكنه كان يؤكد أنها لن تنجح في تغيير طبائع الناس وحياتهم . وكان يقول لنفسه إن النبي الجديد - بالغاً ما بلغ من السمو في المبادىء ، والعمق في التفكير - لن يوفق إلى نجاح يذكر في إصلاح حال الناس ، وإنه إن يكن قد بين حدود الضمير الإنساني عند الفرد فانه عجز عجزا تاما عن أن يخلق للجماعات ضميرا ، كأنه يظن أن الجماعات تكون طيبة إذا كان أفرادها طيبين ،

وهو خطأ مشهور . إنما يجب أن نخلق للجماعات ضميرا يمنعها أن ترتكب الشر ، على أن يكون ذلك بوازع من الضمير وحده ، دون أن تحمل عليه قهرا ، وإن لم نفعل فسيظل الشر بيننا قائما وإن أنكره كل فرد منا . وكان يقول عن النبي الجديد ، أنه يريد أن يضع الدين فوق التدين ، ولكن أهل التدين سيقضون عليه قبل أن ينقذه أهل الضمير . ويريد أن يرفع صغار الناس إلى أن يساوى بينهم وبين من هم أعلى منهم ؛ ولكن هؤلاء سيقضون عليه قبل أن ينقذه من يريد أن يرفعهم . ويريد أن يرفع الإنسانية فوق الوطنية والقومية ، ولكن الوطنية ستقضى عليه قبل أن تنقذه الإنسانية . إنه لم يؤذ أى فرد من بنى إسرائيل ، ولن يؤذية أى فرد منهم ؛ ولكنه يؤذى إسرائيل مجتمعة ، وجماعتهم هى التى ستنتقم منه ، وإن كره كل واحد منهم أن ينتقم منه بنفسه . ثم يقول مع ذلك أنه نبى ويقول اتباعه أنه إله . أليس إخفاقه عجزا ، ومتى كان العجز من صفات الربوبية ، إلا عنده هو وأتباعه . سيتبين له بعد قليل أن مجرد إنسان مثلى أقدر منه على الإصلاح ، وإن أمدته روح القدس . ألا فليعلم أن الإصلاح أقرب ما يكون إلى النجاح حين يكون قريبا من الواقع ، وأن الاصلاح الجارف

الذى يسمو عن ما يكون عليه الناس سمواً كبيراً لأمـل له فى النجاح ، وأن المصلح الحق هو الذى يرتفع بالناس عن ما هم فيـه ارتفاعا قليلا . عليه أن يعـلم أن الزمن عامل من أكبر عوامل الإصلاح ، ولا يستطيع الأنبياء ولا الآلهة أن يغفلوه . والدعوة التى قد تصلح للناس بعد آلاف السنين تكون عليهم وبالا إذا عملوا بها قبل أن تتهيأ لها نفوسهم . انه أن يـكن خيراً منى ضميرا ، وأطهر منى نفساً ، وأسمى خلقاً ، فانى خير منه عملا ، وأجزل فائدة للناس .

كذلك كان يفـكر قيافا حين يخلو إلى نفسه ، يبحث فى أمر الدعوة الجديدة وصاحبها بحثا هادئا ، ولم يـكن فى حاجة إلى غير البحث الهادىء فى هــذه الأمور . ثم تألبت إسرائيل كلها على النبى الجـديد تطلب دمه وأجمعوا على أن يحكموا عليـه بالصلب . عند ذلك رأى قيافا أن الأمر أصبح جدا لا يحتمل البحث الفلسفى المجرد ، بل أصبح واجبا عليه أن يقبل ما رأوه بالأمس إن كان حقا ، أو أن يعـــارضهم إن كان ما قرروه باطلا .

لم يعرف قيافا فى حياته أمر حار فيه كما حار فى هذا الحـكم الذى أصدره قومه بعد بحث دقيق وجدل طويل . وكان من قبل يذهب إلى أن الحق أمر طبيعى واضح ، وأنه

ليس أسهل على المخلصين من أن يتبينوا سبيله فيتبعوه .
أما اليوم فقد ظهر له أن اخلاصه وعقله وحكمته لم تسعفه . وغم
عليه الأمر فلم يعد يدرى أين يكون الحق . وآمله أن يكون
الحاكم الرومانى الوثنى — على ما فى طبعه من جفاء —
أحد ذهنا وأرق طبعا . ألم يقل لبنى إسرائيل حين طلبوا
إليه أن ينقذهم من صاحب البدعة الجديدة باسم الحق « الحق!
وما هو الحق » . وندم قيافا على أنه لم يكن قائل هذه الكلمة ،
وود لو أنه قالها لقومه قبل أن يستفحل الأمر لعلهم
كانوا يهتدون .

قضى قيافا ليلته هذه مؤرقا يقلب الرأى على كل وجه .
وكانت أفكاره مضطربة تعلو وتهبط فترتفع به إلى أسمى
العواطف تارة ، وتنحدر به إلى ما دون ذلك تارة أخرى .
على غير نظام منطقى معقول . وحاول أن يجد لنفسه
قاعدة ، بها يمكن أن يجمع بين واجبات ضميره وواجبات
السياسة ، فلم يوفق . وحاول أن يغلب أحد الوجهين على
الآخر فلم يوفق وألمت بخاطره أشياء من أعماق تاريخ
حياته قديما ، وحوادث من عهد شبابه لم يكن يظن أنها
لا تزال تؤثر فيه بعد أن تقدم به العمر . وكانت ليلة
ليلاء ، واستعرض فيها — على غير إرادته — حياته كلها ،

العقلية والنفسية ، مما لا علاقة له بالأمر الذى أهمه ، وكان ذلك على نحو لم يعهد له مثيلا من قبل .

وأخذ يقول لنفسه . وهو يفكر هذا التفكير المضطرب :

- ما لهذا الرجل اختص بدعوته بنى اسرائيل ، ونحن أهل دين وخلق ، ونحن أكثر أهل الأرض تمسكا بأوامر الله . وما له يريد أن يطهر ضميرنا ، ونحن أطهر أهل الأرض ضميرا . ألم يكن أجدر به أن يذهب إلى روما ، يقوم بدعوته فيها فأهلها وثنيون ظالمون جهلاء . ولم لا يحاول هداية هؤلاء الظالمين من أهلها ، وهم أحوج الناس إلى حكمته . ولو وفق إلى ذلك لخدم الإنسانية خدمة كبرى . إن روما سيدة العالم وبيدها البطش والسلطان ، على حين أن دعوته إذا نجحت بين شعب إسرائيل لم تفد من ذلك أمة من سائر أمم الأرض . إنى لأعجب بدعوته الاعجاب كله ، ولكنى لا أريد أن يقوم دينه بيننا ، فنحن فى محنتنا هذه فى أشد الحاجة إلى التساند والتوافق والهدوء . والذى يعنينى أن لاتكون دعوته سبباً فى الشقاق والفرقة بين صفوفنا ، ويستوى عندى بعد ذلك أن يرتفع إلى السماء ، أو أن ينفى إلى أقصى الأرض ، أو أن يصلب إذا أراد الله له أن يقتل مظلوماً . وإذا تم له ذلك فانه يكون قضاء الله ولا راد لقضائه ، وهو أعلم بالغيب منا .

. لعل هذا أول النور الذى اهتـــدى به إلى الصواب فلأبدأ من حيث أريد أن أنتهى . إنى لا أريد أن يظل بيننا على أية حال ، فان لم يـكن إلا الصلب سبيلا إلى أبعـاده عنا فليصلب ، ويكون صلبه صواباً ، ويكون واجبا على أن أقر ما حكمنا به عليه بالأمس فى دار الندوة . ولـكن كيف يستقيم لى هذا الرأى . يجب على أن أقر ما اتهموه به ، وهو ما لا أراه ، فقد اتهموه بالباطل ، وهو برىء من كل ما ادعوه . وكيف أبرئه من الذنوب ثم أوافق على الحكم عليه بالموت . وإذا أعلنت براءته فيجب أن يظل بيننا ، وهذا فى رأيى يكون خطأ . فأنا منه بين أمرين ، إما التخلص منه ، وذلك لا يكون إلا باتهامه ظلماً وكذبا فى سبيل غاية أراها حقاً ، وأما أن أعلن براءته فيبقى يبث دعوته فينا ، وهو شر لا أرضاه . على أنى إذا اتهمته بالباطل أكون قد ارتكبت ما كنت أعيبه على أسوأ الناس انغماسا فى حمأة السياسة الجهلاء . وهل يليق بى أن أتبع الوسائل السيئة لبلوغ الغاية الحسنة ، ألم أقض عمراً أقول للناس أن من أكبر الخطأ أن يظنوا أن الغاية الحسنة تبرر الوسيلة السيئة ، لأن الوسيلة السيئة لا تؤدى إلى الغاية الحسنة أبداً ، فالشر لا يؤدى إلى الخير مطلقا إلا وهما وإلى حين ، ثم يغطى

الشر . ثم إن شعورى بالعدل ، وهو أعز شيء على نفسى ، يأبى على أن أترك هذا الاتهام يلصق به ظلماً . أنهم أخذوا عليه أرقى ما فى دعوته من مبادىء . اتهموه أنه يدعو إلى التوكل والبر وحب الأعداء ، وقالوا إن ذلك يقضى على فضائل شعب اسرائيل ونظام حياتهم . واتهموه بالسحر وما هو بساحر ، واتهموه بالدعوة إلى مخالفة كتاب الله ، وقالوا إن ذلك كفر به ، وهو إنما ذهب بالإيمان خطوة أبعد مما ذهب إليه موسى فى شريعته ، وما أرى فى ذلك كفراً ، بل هى سنة الله فى الرقى . أنما ذلك كله من عمل القائم بالاتهام . أنه يريد أن يصعد سريعاً إلى الزعامة ، ولو كان سبيله إلى ذلك الظلم والعدوان . إن الظلم فيه موروث . أليس هو من تلك الأسرة التى أبت على فى شبابى أن أتزوج فتاة منهم احتقاراً لشأنى ، ثم أليس غرضهم الأول أن يضعوه مكانى .

وعندما ألم به هذا الخاطر احمر وجهه خجلا واضطرب ، كأنه فاجأ نفسه وهو يفكر على نحو لا يليق به أبدا . ثم استمر يحدث نفسه .

كل هذا بالطبع لا شأن له فى انكارى موقفه بالأمس . انه ارتكب خطأ فى فى التفكير لا أحب أن أقع فيه ، ذلك أنه

تكون رأيه أولا وهو أن الرجل مجرم ، ثم أخذ بعـــد ذلك يبحث عن ما يسوغ به رأيه ، وأكثر الناس يقعون فى هذا الخطأ ، وقليل جداً من يجمعون الأسباب أولا قبل أن يتكون لهم رأى فى أمر من الأمور . فأكثرهم يكون الرأى ثم يلتمس الأسباب ، وهو خطأ كنت أظن أنى تحررت منه من قديم ، ولكنى أرانى أعمل اليوم ما أعتقده خطأ ، ألم أقرر أولا أنه لابد أن يزول من بيننا ، وها أنذا ألتمس الأسباب بعد أن قررت ما قررت ، وهل أستطيع أن أنقذه الآن بعد أن اقتنع الناس كافة بخطره عليهم . انى أخشى أن يكون انقاذه اليوم مستحيلا ، وكان على ان امنعهم من الاستمرار فى الاتهام ، وما منعنى من ذلك الا ان يظن بى الناس الظنون ، وأن يتهمونى بالخوف منه ، أو بالكفر ، كما اتهموه . إنى إن قاومتهم خلعونى ولا يكون انقاذه ، وأن خضعت لاجماعهم نفذ أمرهم فيه ، ففى كلتا الحالتين لن أستطيع أن أنقذه . ثم انى إذا استطعت ذلك فانه يبقى بيننا ويستفحل أمره ، وهو مالا أراه . إن الحيرة فى أمره ترجع إلى أن وجود خطر ، وهو برىء ، فكيف التخلص منه دون أن نظلمه . أليس هو صاحب المعجزات ، فليحدث له ما يحدث ، فان كان الله أراد له أن يقتل فما أنا بمنقذه ، وأن كان أراد

له النجاة فليس على أن أجد سبيلها . هذا أضعف الإيمان ، وما
كنت أظن أنى أبلغ هذا القدر من ضعف الرأى،ولكنى أستهدي
عقلى فلا أجد عنده هدى .

وأقبل الصباح ، وقيافا متعب محزون . خرج إلى دار الندوة
وهو لا يدرى ما يجب عليه عمله . وكان آخر رأيه أن يترك الأمور
تسير على هواها ، وأحس أنه ليس له سلطان يوجه به الاحداث
الوجهة التى يريدها فعزم أن يلزم جانب الحيدة ، وأن يقر ما يتفق
عليه أهل العلم وقادة الفكر من قومه ، وحسابه وحسابهم
على الله .

فقد ثقته بنفسه ، وفقد ثقته بالشورى ، وكان من
المؤمنين بها ، يراها وسيلة إلى خلق الضمير عند الجماعة ،
فان الجماعة وهى لا ضمير لها تختار أفراداً يتشاورون ،
ولهؤلاء الأفراد ضمير يرجى منه أن يؤثر فى ما يعملون باسم
الجماعة . وفقد ثقته بالحق وبالعدل وبالدين وتعاليمه ،
فهى لم تهده إلى الصواب فى هذا الأمر الذى غم عليه ،
وأصبح يعتقد أن هداية الدين إنما تكون هداية عامة لا
تنصب على موقف بعينه ، وأحس أنه أفلس افلاسا تاماً وأنه اليوم
أضعف الناس ، وأنه عند الشدائد يستوى وأجهل بنى اسرائيل
وأقلهم قدراً .

ولو قدر له أن يرى هذا الذى حكم عليه بالصلب لرأى رجلا آمناً مطمئناً هادئاً ، لا يرتقى اليه الشك أو القلق ، ولعلم أن الفرق بينهما أن النبى الجديد يتكلم عن يقين ، ولا يعبأ بما ستحدثه دعوته من أثر فى حياة الناس لأنه لا يعنيه منها إلا أنها الحق . إن دعوته تتعلق بالضمير وحده ، وهو قد أهمل سياسة الناس إهمالا تاما ، ولم يتمسك إلا بالروح والضمير . أما ضعف الطبيعة الإنسانية الذى يقلب الخير شراً ، ويخلط بين الحق والباطل فلم يكن يجوز عليه ، لأنه لم يكن يستمع إلا إلى الضمير خالصاً . ومن اهتدى بهــدى ضميره وحده فلن يضل أبدا .

دار النّدوة

اجتمع خلق كثير أمام دار النـدوة يصيحون بأعلى صوتهم : اقتلوه ، اصلبوه ، احرقوه ، انه ساحر خطير ، اقتلوا أتباعه الخونة المارقين ، ودخـل فيابا مكان الاجتماع مكتئباً حزيناً متعباً . وحيا الحاضرين تحية فاترة بعيدة ، وجال بعينيه فيهم فرأى رجل الاتهام ، ولما وقع بصره عليه علا الدم إلى وجهه ، وقال يحدث نفسه « ان قام اليوم يقول مثل قوله بالأمس تصديت له وحملت عليـه . وفندت قوله وسفهت رأيه ، وليـكن بعد ذلك ما يكون » ، وكان يظن هو وغيره أن هذا الشاب سيكون أول من يتـكلم ، وأنه سيتابع اتهامه بمثل ما تجلى فى قوله من قبل من قوة واقتناع ، وأنه سيحمل الحاضرين على التمسك برأيهم ، ولـكنه ظـل فى مكانه ساكتاً ، ونظر اليه الناس فاذا هو شارد الفـكر لا يريد أن يهم بالـكلام .

كان أول المتـكلمين شيخ حطمته السنون ، أخذ يقول :

— انى سألقى الله بعـد قليل ولا أحب أن ألقاه كاذبا

أومكذوبا على ، وقد سمعتم بالأمس عنى قولا كثيراً . قيل لكم إنى أرى أن أحداً لا يجوز له أن يدعو إلى قانون خلقى أسمى من القانون الذى نزل على موسى ، لأن ذلك يكون استدراكا على الله ، وهو كفر صريح ، أويكون دليلا على أن الله بعد أن وضع ناموسه بدا له أن يغير فيه ، كأن عمله كان ناقصاً ، وكلا الأمرين كفر لا يقبله أحد ممن يدينون بدين بنى اسرائيل .

وما قلت فى الواقع شيئاً من ذلك . انى لا أنكر المثل العليا التى يدعو اليها هذا الرجل ، ولكنى آخذ عليه أنه جعلها جزءاً لا يتجزأ من الدين ، وأنه يزيد أن يحمل الناس جميعاً عليها بقوة التنزيل ، والرأى عندى أنها يجب أن تظل نبراسا يهتدى به ، فمن استطاع أن يتبعها مختاراً فهو خير له ، ومن لم يستطع فلا ضير عليه ولا يعد مخالفاً للدين ، وإذا ظلت كذلك فليس فيها ما يمس العقيدة من قريب أو بعيد .

وما حملنى على أن أرى هذا الرأى إلا خوفى على الدين . فان علينا أن نحافظ على حرمته وقدسية أوامره ونواهيه ، ومن الخطر على الدين أن يتهامس الناس بينهم أن أوامره عسيرة لا يقدر عليها إلا القليل ، وأن نواهيه تمنع

خيرا كثيرا ولا ترد الأذى إلا نادرا . وقد دلتنى خبرتى بطبائع الناس على أن من يخالف أوامر الدين فيما هو عسير يسهل عليه بعد ذلك أن يخالفه فى ما هو يسير . وإذا أصبحت أوامر الدين من السمو بحيث لا يستطيعها الا قليل من الناس بعدت الشقة بينه وبين الحياة ، وذلك يضعف من أثره فى اصلاح حال الناس إذ أن قدرة الدين على الاصـــلاح مرجعها إلى هيبته . ومما يذهب بهيبته أن يتجرأ الناس عليه وأن يفشو فيهم القصور عن اتباع تعاليمه ،

ورجال الدين والعلم فى هذا الأمر فريقان ، فريق يرى أن الدين انما ينفع الناس إذا كان قوة مرغمة . هؤلاء يقولون ان الناس كالقافلة يجب أن تسير على قدر ما يستطيعه أبطأ فرد فيها ، مادام ذلك لايعطل سيرها ولا يعرضها لأذى ولا يفوت عليها نفعا . أما حملها على السير بأسرع ما يستطيعه أقواها فهو ارهاق يؤدى إلى تفككها فلا تقطع أرضا ولاتبقي ظهرا . وهؤلاء يقولون إن الله أعلم بما يصلح للناس ، وأن ما يأمرنا به يجب أن يتبع كما أنزله الله لا نزيد فيه ولا تنقص . وبنو اسرائيل من هـذا الفريق ، وهـذا ما أعتقده وما أدوعوكم إليه .

وهناك فريق آخر من كبار الأتقياء يرى أن الدين يجب

أن يكون فريق آخر من كبار الأتقياء يرى أن الدين يجب أن يكون جماع المثل العليا التى يعرفها الناس وسواء على الدين أن يستطيع الناس أن يوفقوا بين حياتهم وتعاليمه كلها ، إنما عليه أن يظل حقيقة ثابتة دائمة سامية ، وأنه إذا قيس بما يصلح لقوم بعينهم فى عصر من العصور فان ذلك يجعله عرضة للأخطار التى تأتيه من الرقى الطبيعى ، ومن الزمن ، وتقدم الناس ، واتساع العقل والعلم . وقد تتغير النظم الاجتماعية وقد يسمو شعور الناس بالعدل الاجتماعى إلى ما هو أرقى مما يصلح لنا فى عصرنا هذا عند ذلك تكون أوامر الدين أقل شأنا مما تأمر به القوانين الوضعية ، وفى ذلك الخطر كل الخطر على الدين كله .

هذا رأى أعتقد أن النبى الجديد أخذ به فجعل دينه من السمو بحيث لا يعلو على قانونه الخلقى شىء ، ولم يعبأ بأثر الدين فى حياة قومنا ، ولست أرى هذا الرأى ولكنى لا أدعى العصمة ولا أقول أن دعوته كفر . وقد يكون رأيى خاطئا ، وقد تكون طبيعة دين بنى اسرائيل هذه سببا فى منع انتشاره بين الناس . وقد يكون بعد الدين الجديد عن الحياة التى نعرفها سببا فى عظمته وانتشاره . كل هذا من علم الغيب لا أعلمه ، ولكنى على قدر عقلى أرى أن من الخطر على الدين أن تصبح المثل العليا جزءا منه ، وأن

تصبح أوامره ونواهيه من السمو بحيث لا يستطيعها الا الخاصة وهم قليلون ، فان ذلك يدعو الناس إلى اغفال الدين ما سهل منه وما صعب .

استمع الناس إلى هذا الشيخ الفانى وهو يتهمهم أنهم شوهوا آراءه ، وعجزوا عن فهم قوله . ولما كان نقده منصبا على ما جاء فى خطبة الاتهام ، ظن الحاضرون أن خطيب الأمس لن يسكت على ما قال هذا العالم الكبير ، فاشرأبت إليه أعناقهم يتوقعون منه ردا ، ولكنهم وجدوه مطرقا لا يريد أن ينطق بكلمة ، وكان هذا منه عجبا .

ثم وقف المفتى يقول : أن خطأ وقع فى تفسير قوله فى المعجزات ، فهو لم يقل بكذبها ولم يطعن فى من تمت على يديه . وأخذ يشرح نظريته المعقدة فى المعجزات ، وفهم الناس اجمالا ، وأن لم يفتهوا كثيرا مما قال ، أنه لا يرى بأسا بصاحبها .

— ان الناس أسرفوا فى الحديث عن هذه المعجزات . ونحن بنى إسرائيل من عادتنا الاسراف فى القول ، وبلاغة لغتنا تدعو إلى التعميم ، فاذا قلنا أن الطوفان عم الأرض فاننا لا نريد أن نقول شيئا أكثر من أن الطوفان عم القرى التى نحن فيها ، وإذا قلنا أظلمت الدنيا فانما نريد أن نقول

إن الظلام أحاط بنا ، وكثير مما يقول الناس عن المعجزات فيه هذا الإسراف ، ولو جردنا ما يقال عن المعجزات من هـذا الإسراف لوجدنا ما بقي حقاً لا شائبة فيه .

وتابع حديثه فقال :

من العبث أن ننكر وقوع الحوادث التي سميت معجزات فهي قد وقعت من غير شك ، ومن العبث أن نتلمس لوقوعها تأويلا يجعلها تمويهاً أو خداعاً وما هي بتمويه ولا خداع . ولكنها عندي أمور لا تخرج عن سنن الكون إلا من حيث وقت وقوعها ، وكيفيته ، والنتائج التي تترتب عليها . ولأضرب لذلك مثلا رجلا هم بقتل رجل آخر ظلماً وعدوانا فأصابت الأول صاعقة قضت عليه لساعته في يوم عاصف مطير — حادث مألوف يقع كثيراً للابرياء ، وقد يقع للرجل وهو يصلي مخلصاً . لكن وقوعه في هذا الوقت بالذات ، وقضاءه على الظالم يعد معجزة عند من يعلمون أنه ظالم ، أما الذين لا يعلمون فلا يعدون موت رجل بصاعقة من المعجزات .

انظروا إلى المعجزات التي قام بها صاحب الدعوة الجديدة ، فمن معجزاته أنه أطعم الناس ، وهم آلاف ، ببضعة أرغفة ، وأنه أحال الماء نبيذاً ، وأنه أحيا ميتاً ، وأبرأ

مرضى كثيرين . أن أحداً لم يقل أنه أطعم ببضعة الأرغفة آلافا من الخيل الجامحة ، أو الأسود الضارية ، ولم يقل أحد أنه دعا لهم فشعروا بالشبع ، كل ماحدث أنه أطعم قوماً مؤمنين طعاماً قليلا فقنعوا به وأشبعهم إيمانهم بهذا القليل . وكذلك قصة النبيذ ، فأنه سقى الناس ماء فأحسوا منه طعم النبيذ وأثره . فالمعجزة فى هذا الحادث قوة تأثيره فيهم ، وشدة إيمانهم به . ثم أنه أحيا ميتاً وليس فى ذلك خرق لسنة الكون ، فهو لم يدع أحياء لازار إلى الأبد ، ولم يحيي الموت جميعا . أما ابراؤء المرضى فبركة ونعمة ، ولا يمكن أن نطعن عليه من أجله . إن المعجزة لا تكون كذبا إلا إذا نقضت قانونا طبيعيا أوليا فلو أننا رأيناه يأمر حجرا أن يرتفع فى الهواء فارتفع لعددته ساحراً يموه علينا ، أما إذا كانت المعجزة تتعلق بأمور نفسية يؤثر فيها الإيمان والعقيدة فلا محل للطعن فيها .

وأدرك أن الناس فى شغل عن تتبع هذا البحث العويص فاختتم حديثه بقوله :

— سواء أكان حقاً ما رأى فى المعجزات أم باطلا ، فما لا مرية فيه أن معجزات هذا الرجل كلها لخير الناس ، ولم نعلم عنه أنه آذى بها أحدا من قومنا . أو أنه انتقم بها

من عدوه ، أما ما سمعتموه عن حادث اليوم أنه أصاب بالأذى تاجراً وحداداً بريئين لا ذنب لهما فقول سخيف لا يليق بكم ، وإن صدقته العامة . ولو كان به حب الانتقام من أحد من قومه لا نتقم منا نحن الذين حكمنا عليه بالموت .

لم يصغ إليه كثير من الحاضرين ، ولكنهم علموا أنه يدافع عن صاحب المعجزات ، وأنه يرى أن ما عمله لا يعد كفراً يعاقب عليه بالموت بل كانت معجزاته كلها خيراً وبركة .

دهش قيافا حين رأى قومه لا يأبون أن يستمعوا إلى من يدافعون عن هذا الرجل ، كأنهم ندموا كما ندم هو ، على ما فعلوه بالأمس ، وبلغت دهشته أقصاها حين وقف آخر يقول :

اتهمناهم بالأمس أنهم يخونون وطنهم ، وهى تهمة بشعة شنعاء ، فإن حب الوطن فضيلة لا ينكر أحد قدرها ، ولكنها ليست غاية الفضائل فى هذا الباب . إن الوطن طور من أطوار الرقى الاجتماعى ، فالرجل يبدأ محباً لنفسه وحدها حين يكون حبها أنفع له ، وأمنع للأذى عنه ، ثم يتبين أن فى حبه لأسرته وحمايته لها ما يجلب له من النفع ويمنع عنه من الأذى ما لا يستطيعه وحده فتنشأ فيه عاطفة التضحية بنفسه فى سبيل أسرته ، ثم يتبين أن حبه لقبيلته أو لمدينته

يجلب له من النفع ويمنع عنه من الاذى ما لا يستطيعه لوكان دفاعه مقصوراً على أسرته ويتبين له أن الضرر الذى يقع على قبيلته أو مدينته يعود عليه بضرر لا يستطيع دفعه وحده . عند ذلك يصبح من الطبيعى أن يضحى بنفسه وأسرته فى سبيل قبيلته أو مدينته ، ثم يتبين له أن حب الوطن والدفاع عنه يجلب من النفع ويدفع من الاذى ما لا تستطيعه القبيلة أو المدينة ، ويتبين له أن الشر الذى يصيب الوطن يقع عليه فيؤذيه وقد يحرمه أعز شىء عليه ، ولو لم يكن له دخل فى جلب هذا الشر على وطنه ، عند ذلك يرضى عن طيب خاطر أن يضحى بحياته فى سبيل حماية هذا الوطن ، ونراه يضع الوطن فوق نفسه وأسرته وقبيلته . إلا أن هذا ليس آخر المطاف ، بل سيأتى يوم يكون فيه النظام الاجتماعى كافياً لإقناع الناس أن حب الإنسانية كلها ، والدفاع عنها ، أجدى على الوطن من حب الوطن وحده . سيكون العالم كله وحدة تجعل حب الإنسانية يجلب لكل وطن فوائد لا تتحقق بخدمة الوطن وحده ، ويمنع عنه من الأذى ما لا يمنعه الدفاع عن الوطن وحده ، عند ذلك يبدأ الناس فى التفكير الإنسانى ، وعند ذلك نراهم يفضلون خدمة الإنسانية على خدمة الوطن ولا يكون ذلك خيانة له ، بل يكون أجمل دفاع عنه وأكثره

نجاحاً . قد يكون هذا الرجل أول من بلغ هذه الدرجة من الرقى الخلقى ، على أنى لا أكتمكم أنى لا أستريح إلى أخذ بنى إسرائيل بهـذا المذهب الذى يضع المبادىء الإنسانية فوق الوطنية ، ما دمنا فى محنتنا هذه ، التى جعلتنا ضعافاً أذلة فى بلادنا ، وقد يكون هذا ضعفاً فى ، فإنى أفهم هذه المبادىء التى تضع الإنسانية فوق الوطن عقلا ولـكنى لا أرى أن نأخذها ولا أرانى أومن بها إيماناً تاماً ولعل ذلك لضعف فى عقيدتى ولعلى كنت أرى أن لا حرج فى تطبيقها علينا فى عصرنا هذا لو آمنت بهذه المبادىء إيمانه بها .

وضرب لهم مثلا يبين رأيه فى هذا الموضوع :

— إن حب الوطن حلية خلقية ، كما يكون الخلخال حلية للمرأة وقد تـكون المرأة عطلا من الخلخال لفقرها كما يكون الرجل خلوا من حب الوطن لفقره الخلقى ، ولـكن المرأة الراقية قد تـكون بلا خلخال ، لأنها تراه حلية دون مقامها . وكذلك الرجل ، قد يكون عطلا من حب الوطن لأنه يرى نفسه أرقى من أن يتحلى بهذه الفضيلة الضيقة ، ولأنه يرى نفسه أكبر من أن يدين بهذه الولاءات الصغيرة ، على أن ذلك لا يصدق إلا على من تملك حليا أكثر من الخلخال وأجمل ، وعلى من يملك فضائل أكبر من

حب الوطن وأرقى ، إذ لا يجوز للرجل أن يترك نفسه عطلا من كلتا الفضيلتين . وليس شيء يمكن أن يكون أكبر من حب الوطن وأجمل إلا حب الإنسانية كلها ، فهو طور من الرقى الخلقى أروع من حب الوطن ، ولا يصح أن نعده عيباً أو نقصاً فى هذا الرجل الذى حكمنا عليه بالخيانة ، فهو أرقى من أن يرى نفسه أميناً على الوطن ، مادام أميناً على الإنسانية كلها .

وقع قوله هذا وقع الصاعقة على من كانوا قد آمنوا بخيانة صاحب الدعوة الجديدة ، ومع ذلك لم يحرك أحد منهم ساكناً . وظن قيافاً أن الاتهام قد انهار ، وأنهم سينقضون حكمهم الذى أبرموه بالأمس . وزاد عجبه وحيرته وشكه فى كل شيء ، وعزم أن يترك الأمور تسير وحدها دون توجيه منه ، فإنها تسير سيراً مرضياً له ، وفرح لذلك فرحاً شديداً .

وعلت الأصوات خارج الدار تنادى بقتل الرجل وأتباعه ، وحجتهم فى ذلك أن علماءهم قرروا ذلك وهم أدرى وأعلم ، ولا يمكن أن يجمعوا على خطأ . أما هؤلاء العلماء أنفسهم فكانوا يعلمون أنهم أخطئوا ، وكانوا يخشون أن يخرجوا إلى الناس معترفين بخطئهم ، معلنين التوبة ، فإن هذه

الشجاعة قد يستطيعها بعض الناس أفرادا ، ولكنها على الجماعة ضرب من المحال ، لأن الجماعة أقدر على الاندفاع منها على التعقل وأقدر على التمادى فى الباطل منها على الرجوع إلى الحق .

وبينا هم كذلك دخل عليهم رجال المال والتجارة والصناعة وذوو النفوذ الدنيوى . جاءوا يهنئونهم على حكمهم الصائب ، فلما وجدوا عندهم التردد والشك غضبوا وقالوا لهم ما خطبكم ، أتظنون أنكم تستطيعون أن تعدلوا عن رأى رأيتموه بعد أن ذاع خبره ، واقتنع به الناس . أتظنون أنهم يقبلون أن يستهزأ بهم وبعقولهم إلى هذا الحد . أن حكمكم أطلق سيلا من الغضب لن يستطيع أحد أن يقف أمامه . وماذا يقول الرومان لو ذهبتم إليهم اليوم تنقضون ما قررتم من قبل ، أتحسبون أنهم يظنون بكم الجد ، أو يقرون لكم بعد اليوم رأيا ، إن الشعب هائج ولن تهدأ تأثرته حتى يصلب هذا الرجل اليوم .

اقتحم الناس الدار وهم يصيحون : اقتلوهم ، حرقوهم جميعاً . لابد من قتله وقتلهم معه ، وساد الهرج ، وغلب ذوو الرأى على أمرهم فانفضوا ولم يغيروا من قرارهم شيئاً وسارت الجماهير إلى دار الحاكم الرومانى تطالب بدم هذا

الرجل وأتباعه ، ولم يكن فيهم من يعلم عنه شراً ، ولم يكن فيهم من يريد قتله عن عقيدة واقتناع شخصى . هكذا تمت أكبر جرائم التاريخ ، جريمة الحكم على المسيح بالصلب ، لكفره بالله ، دون أن يعلم أحد من أهل أورشليم من الذى يريد قتله ، ولا على من يقع وزر هذه الجريمة الشنعاء .

الواقع أن أحدا من بنى اسرائيل لم يعلم علم اليقين عن أهل هذه الدعوة شرا ، ولكنهم اندفعوا وراء من قال بشرهم . ولعل من قال ذلك أولا انما كان يرى رأياً لم يتبين مداه ، ولم يقصد غايته . مثلهم فى ذلك مثل القطيع من الأغنام يدخل أولها باباً أو يتبع طريقا ، فتسير الأغنام كلها وراءه فى حماسة تمنعها أن تغير وجهتها ، ولو أراد أولها عدولا ما استطاع لها ردا .

وهكذا حكم على المسيح بالصلب من أجل كفره بالله ! فهل يبقى بعد ذلك لأحد ثقة فى حكمة الانسان ! ؟

إن الجريمة تمت فيما يتعلق بالانسان حين حكم على المسيح بالموت . ولا ينقص من اثمها شيئاً أن رفعه الله إليه .

ولم تتم هذه الجريمة إلا لأنها وزعت على عدد كبير

من الناس ؛ حتى لم يعد أحد يرى نفسه مسئولا عنها .

هذه سبيل الضلال التى أوغـــل فيها الناس حتى بلغوا هذا الحد من الغى ، وهى سبيل لا تزال مفتوحة أمام بنى آدم ، ولا يزالون يمعنون فى السير فيها ، وسيظلون كذلك حتى يهديهم الايمان بالضمير سبيل الرشد ، ولا عاصم لهم من الزلل إلا هذا الايمان .

عِندَ الحَوَارِيِّينَ

المجدلية

كان فى قرية المجدل ، من أعمال فلسطين ، أسرة تولت أمرها منذ كان للقرية أمر ، وخضع الناس لهؤلاء السادة راضين حيناً ، وكارهين أحياناً ، فقد كان منهم الطيبون والطغاة ، وفيهم المصلحون والمفسدون . وكان من أثر هذه السيادة الطويلة الأمد أن تخلق رجال هذه الأسرة بخلق النبلاء ، ما حسن منه وما قبح . وكذلك تتكون أخلاق النبلاء ، يكون ذلك فى صغار القرى ، كما يكون فى أمهات المدن ، وإن اختلفت المظاهر .

كان رب الأسرة فى ذلك العهد رجلا طيباً عادلا ، كل همه أن يسود السلام مملكته الصغيرة ، وأن تسعد رعيته بحياة هادئة . وكان يعدهم بماله ويحميهم بجاهه ، فسارت أمور الحياة العامة سيراً حسناً ، وفرغ هو إلى حياة خاصة هنيئة ، وكان بذلك سعيداً . وكانت له أبنة أعز هى شىء عليه وعلى امرأته ، فكانا يتباريان تدليلها ، لا يدخران فى ذلك وسعاً . وكبرت هذه الفتاة معززة مكرمة لا ترد

لها رغبة . فلما بلغت أشدها اكتملت أنوثتها ، وكان جمالها رائعا عنيفا ، يقهر الرجال ويغلبهم أكثر مما يجـذبهم إليها أو يغريهم بها . وما لبثت أن أصبحت قبلة شباب القرية ، كلهم يريدها له زوجا . وكان أهلها يودون أن تختار لنفسها رجلا كفئا ، ولكنها كانت ذات كبرياء بلغ حد الصلف الذى لا يطاق . وكان من عادتها أن تنظر إلى النـاس نظرة ملؤها الاحتقار . وكانت طويلة أملودا ، فأعانهـا ذلك على الزهو والتعالى حتى لم تر لنفسها ندا بين شباب القرية فأعرضت عنهم جميعا .

وخطر لأحدهم أن يؤلب عليها أقرانه وأن يسخر من كبريائها ، وحمله ذلك على مالا يليق من القول والفعـل . وغضب لها أخوها ، ورأى واجباً عليه أن يحمها وأهله من عبث العابثين . وانقسم رجال القرية فريقين ، فريق مع الأخ وفريق مع عدوه ، ووقعت بين الفريقين معركة استعملت فيها العصى ، ثم احتدم النزاع فاستعملت المدى والخناجر وزادها اشتعالا ما كان عليـه الشبان من حنق وثورة على السيادة الأبدية التى لهذه الأسرة عليهم ، فقتل فى المعركة خلق ولقى الأخ حتفه ، وعم الحزن أهل القرية الآمنة المطمئنة ، وعاد أهلها إلى ديارهم محزونين منكوبين ، منهم

الثكلى ، والأيم ، ومن تندب أخا أو عزيزا . وزاد فى حزنهم السبب التافه وللمفاجأة المؤلمة .

حزنت الفتاة كما حزن الناس . ولكن عبء الحزن كان عليها ثقيلا مرهقاً ، أن كانت هى سبب ما حدث ، وأن كان ذلك كله من أثر كبريائها وغرورها . ولم يزل الحزن والندم يعصفان بها ، وتحاشاها الناس ، وتشاءموا بها ، ولم يكونوا غضاباً كارهين ، ولكنهم انصرفوا عنها انصرافاً آلمها حتى ضاق صدرها بهذه الحياة ، ولم تجد لها صديقاً ولا مواسياً ولا من يلتمس لها عذرا يخفف عنها ألم الندم على ما جرته على قومها . ثم بلغ بها اليأس غايته حين رأت أن والدتها أخذت هى أيضاً تعرض عنها ، فلم يبق لها من يعطف عليها إلا أبوها . عطف عليها عطفاً مشوباً بكثير من الحذر والتكلف أما أمها فكانت تعرض عنها مدة ثم تذكر أن واجبها يحتم عليها مواساة ابنتها ، فكانت تقوم بهذا الواجب فى غير إيمان ، وكان ذلك منها أقسى على الفتاة المرهفة الحس من البغض الصريح ، والعداء السافر .

ورأت ذات يوم أنها صائرة حتم إلى حال من الاضطراب قد تدفعها إلى الجنون إذا هى بقيت فى تلك القرية . واعتزمت الرحيل إلى أورشليم حيث يجهل الناس كل شىء عن

جيرانهم ، على عادة أهل المدن الصاخبة . وادعت أنها تريد أن تحج إلى الهيكل ، تلتمس المغفرة ، ولم تقف أمها فى سبيل هذا العزم حين علمت به ، وخرجت المسكينة من القرية لم يودعها أحد ، ولم يندم لفراقها أحد . وخيل اليها حين خلفت القرية وراءها أن أهلها سيتنفسون الصعداء حين يعلمون بخروجها ، وكادت تسمعهم يفعلون .

دخلت أورشليم على حال من اليأس والحزن أفقدتها العزم والتفكير ، وكان معها من المال ما يكفيها أمدا طويلا ، فلم تكن قلقة ، ولكنها لم تكن تدرى ما تفعل فى هذه المدينة الكبيرة . وكانت تريد أن تكفر عن خطيئتها التى أصلها الكبرياء ، ولا يكون التكفير عن الكبرياء الا بأن تذل نفسها إلى أقصى حد الذل . وكانت تريد أن تعيش مع أذل الناس فان من الطبقات الدنيا من هن أقل منها ذنبا وأهون خطيئة .

ورآها بعض أهل المدينة وحيدة حائرة ، فأقبل عليها أحد الذين لا يتركون سيدة وحيدة دون أن يحوطوها بوسائل الاغراء — وهم كثيرون فى المدن الكبيرة — وأخذ فى التحدث معها ، والتودد اليها ، واستطرد فى حديثه - فذكر لها حياة اللذة والسرور ، التى تستطيع أن تحياها فى

منازل يعرفها هو ولا يؤمها الا النخبة القليلة من علية القوم . وكان نصيب هذا الذى بلغت به الجرأة أن يحدثها هـذا الحديث ويعرض عليها هذه الحياة ، أن أوسعته ضربا وركلا . ولكن الاقتراح راق لها من ناحيتين : أنه يبلغ بها الدرك الأسفل من الذل والانحطاط فيكفر عنها سيئاتها ، وأنه يدع للرجال ما تقاتلوا عليه من جسدها ، فلهم منه ما يشاءون ، وفى ذلك تكفير آخر يلائم نوع الجرم الذى ارتكبته حين حرمتهم اياه فقتلوا دونه .

وهكذا دخلت بيتا فى أورشليم وليست من أهله فى شىء . وأدرك رصفاؤها أنها ليست من جنسهن ، فليس لها طباعهن ولا ابتذالهن ، ولم تأخذهن من ذلك الغيرة ولا الحسد ولا البغض ، فقد أيقن أنه لا بد أن يكون فى الأمر سر ، وقبلنها عالمات أنها سترفع من شأن منزلهن لجمالها وروعة بهائها .

وما لبثت أن أخذت فى اتعاب زميلاتها وزائريها بما أخذتهم به من أوامر عجيبة شاذة لا تتفق وتقاليد حياتها الجديدة ، فكانت لا تجالس الرجال طويلا ولا تتحدث اليهم كثيرا ، وكانت لا تلقى رجلا لا يقبل يدها فى خشوع واحترام حتى اذا قضى معها بعض الوقت شيعته بضحك الاستهزاء

مودعة إياه بركلة مؤلمة تصيبه فى أسفل ظهره ، فتدفعه إلى خارج الباب ، وحسب أهل الدار أنها قاضية بسلوكها هذا على تجارتهن ، ولكن لم تجرؤ إحداهن على نقدها ، لما كان لها من هيبة وعظمة ، وكن لذلهن يعجبن بهذا الكبرياء ، وهذا التعالى .

لم يزد ذلك الرجال إلا إقبالا عليها ولم يزدها خضوعهم إلا إمعانا فى احتقارهم . ثم تبين لها أن هذه الحياة الرخيصة لم تنقص من كبريائها ، فكأنها لم تكفر عن خطيئتها وإن ذلت ، واشتد بها الغرور فأصبحت لا تطاق . جاءها قائد رومانى من كبار القواد ، وقبل أن يقبل يدها لشدة رغبته فيها - ولم يكن ذلك احتراما لها ، ولا إعجابا بجمالها فغاظها ذلك أكبر الغيظ ، وودعته بركلة شديدة لم تكن تظن أنها تقدر على مثلها ، فرجع اليها ويده على سيفه ، يريد أن يغسل الإهانة بقتلها ، فلم تتراجع ولم تخف . وأقبلت عليه تعد له ركلة أخرى ، وهاله هذا الاقدام فراجع نفسه وخرج ، ولما علمت أخواتها بما حدث اقبلن عليها مسرعات يحسبنها ترتعد فرائصها من هول ما أقدمت عليه ، ولكنهن وجدنها ثابتة غير هيابة ولا وجلة ، وكانت تحسب أن سيقتلها جزاء على ما فعلت ، وعند ذلك يكون التكفير الحق عن كبريائها ،

وهو التكفير الذى سعت اليه فأخفقت ، وبرح بها اليأس حتى أصبحت ترجو الموت تكفيرا عن خطاياها ، وكانت على أشد ماتكون من الغيظ أن فاتها هذا الذى كانت تتمناه .

مرت الأيام ، وهى لا تفتأ تنكر من نفسها أنها لا تزال على كبريائها القديم ، وظل الرجال على شغفهم بها ، مع ماكانت تكيله لهم من إهانة واحتقار ، ولو علمت أن الرجال قد يقبلون صلفها وغرورها لاختارت لها زوجا من أهل قريتها . فلم يصرفها عنهم إلا أنها لم تكن ترى فيهم من يستحق احترامها ، ولم تكن تحسبهم يقبلون احتقارها إياهم ، ولم تكن تعلم عن الرجال أن فيهم من الهوان ما يجعلهم يقبلون الاهانات المخجلة المرهقة فى سبيل ارتوائهم من جسد جميل .

ثم جاء إلى الدار ذات يوم جندى رومانى فى مقتبل العمر ، فيه هدوء ووداعة ، وله نظرة حالمة رقيقة ، فما أن رأته حتى أحست نحوه شعوراً لم تعهده فى نفسها من قبل ، شعوراً يشبه العطف أو الحب ، ورغبت أن تجلس على مقربة منه وأن تتحدث اليه ، ولكنها أحجمت وتركته لصديقاتها فتهافتن عليه وأخذن يداعبنه ، وهن لا يصدقن أنه جندى

يقاتل ويحارب . فهو لا يزال فى ميعة الصبا ، وأغضبه ذلك منهن فأخذ يقص عليهن أحاديث عن فتوته وشجاعته ، وكيف كان يقهر الأعداء ويلقى الرعب فى قلوبهم ، فتضاحكن ، ولم يكن حديثه عليهن غريباً ، لما ألفته من تفاخر الجند وادعائهم البطولة .

وأخذت المجدلية تنصت إلى حديثه خلسة ، وخيل إليها أنه يختلف عن أحاديث غيره من الجند ، وسمعته يقول أنه ضرب رجلا على رأسه ضربة قوية فسقط كأنه كتلة من جماد . عند ذلك نظرت اليه ، وخيل اليها أن نظرته تنم عن الحزن والألم لما ارتكب فى هذا الحادث ، ولعله كان أول رجل قتله ، ولذلك علقت صورته بمخيلته ، وكان واضحاً أن الذكرى لم تكن تجلب إلى نفسه السرور .

وأقبلت عليه تسائله .

— وهل صرخ من تلقي ضربتك .

— كلا . انه لم يصرخ ولم يئن بل خر جثة هامدة .

— أأنت على يقين مما تقول ؟

— لا شك فى ذلك ، أن من يصاب فى رأسه لا يصرخ ولا يئن إذا كانت الضربة محكمة ، لا خلساً ولا معجلة .

— هذا هو التفاخر الأجوف الذى ألفناه منكم ، أليس فيكم رجل يستطيع الصدق ، ألا تستطيع أن تصدقنى مرة واحدة فى هذا الأمر الذى يعنينى .

— إنى أؤكد لك أن الرجـــل الذى قتلته لم يصرخ ولم يئن .

— ليتنى أثق بقولك .

ثم تركتهم فجأة ، وكأنها مغضبة ضجرة ، ولم يفهم أحد ما وراء تساؤلها من سر فإنها كانت تسأل فى حدة واضحة وتلهف ظاهر .

وحقيقة الأمر أنه كان يلم بها منذ قتل أخوها هاجس تسمعه فى سكون الليل وهدأة النوم ، كان صارخاً يصرخ بها فيزعجها ازعاجاً عنيفاً ، وكانت تعتقد أنها صرخة أخيها حين خر صريعاً ، وكانت لا تشك أنه لعنها حـــين سقط إذ كان كبرياؤها سبب قتله . فلما سمعت حديث هذا الجندى ودت لو أنه كان صادقا ، ثم راق لها أن تطمئن إلى قوله ، وأيقنت أن أخاها لم يصرخ حين قتل ، وأن الهاتف الذى تسمعه فى الليل ليس إلا أثراً من آثار الاضطراب النفسى الذى لازمها من ذلك اليـوم ، ونامت ليلتها هادئة

لم تسمع ذلك الهاجس الذى كان يؤرقها ، ولم تسمع صرخة أخيها يناديها غير مشفق عليها ولا غافر لها ذنبها الذى قتل من جرائه . وكان هذا الاطمئنان جديدا عليها لم تعرفه منذ وقعت الواقعة ، ففرحت بذلك فرحا شديدا .

وعاد الفتى من غده ، وكان يخشى أن تكون قد غضبت عليه ، فلما رآها تتلقاه باشة جذلة سرى عنه ، وأقبل عليها متلهفا ، فقالت له فى شىء من السخرية :

— هذا هو البطل المغوار الذى بهرنا ببطولته وحديثه عنها ! على أنى أريد أن أسألك ألم يخالط فخرك ببطولتك وفرحك بشجاعتك ، شىء من وخز الضمير حين تذكر أنك قتلت نفسا لاتعلم عنها شيئا ولم تؤذك فى شىء .

— وما على من ذلك ، أن لى صديقا يقول ، ماضر الناس قتل رجل واحد ولا قتل كثيرين مادام النساء يلدن كل يوم .

فتبسمت لهذا الرأى الذى حسبته لا يكون إلا فكاهة ، ولم يخطر ببالها أن من الناس من يرى هذا الرأى ، ويذهب إلى العمل به .

- أأنت تشاطر صديقك هذا الرأى ، لقد كنت أظنك من الذين يرون أن قتل رجل برىء لا تعرفه ولا يعرفك

— سواء أكان القتل فى الحرب أم فى غيرها ـ أمر لا يمكن أن يبرره ضمير إنسانى .

أنك من قوم يتكلمون ليل نهار عن الضمير والدين وعن الإيمان والكفر ، وعن الخطيئة والتكفير والتوبة . ونحن لا نتحدث عن ذلك إلا فى القليل النادر . إنما يكون حديثنا أكثره أو كله عن النظام والشجاعة والإقدام والقوة ومغالبة الصعاب ، وقتال الأعداء ، وحب المجد ، بذلك سدنا العالم وأنتم لم تسودوا حتى أنفسكم .

ورأى أنه احتد فى أمر لا يعنيه كثيراً ، وكان لا يريد إلا أن يحدثها حديث الحب الذى جعله لا يفكر إلا فيها منذ لقيها بالإمس . وخطر لها أن تشكر له إنقاذها من الهاجس الذى كان يقض مضجعها ، ولكنها أحجمت عن ذلك ، ورأت أن لا تدع فرصة الحديث عن حبه لها ، واستمرت فى حديثها الذى بدأته .

وهل أحسست وأنت البطل الشجاع الذى عرض حياته لخطر محقق أنك سدت أحداً من قومك ممن لم تكن تسودهم وأنت فى روما ، ألا ترى أنك لا تزال فى طبقتك التى كنت فيها قبل أن تتعرض للقتل فى الحرب ، وهل تشعر وأنت الفاتح المنتصر أنك تسود أحداً ممن هم فوق

طبقتك حتى من أهل هذا البلد المهزوم ، أتراك سدت أحدا من أغنياء هذا البلد أو عظمائه ، إنما يسودهم من هم أندادهم من الرومان ، أترى أنك أفدت من هذه السيادة ما يبرر الخطر الذى تعرضت له ، والخطيئة التى تحملها بقتلك الأبرياء . أن الجندى الفاتح لا يتمتع بالسيادة إلا ساعة الفتح حين تعم الفوضى ، ثم يعود إلى حاله الأولى فلا يسود أحدا ممن لم يكن يسودهم من قبل .

— إن الذين ماتوا فى الحرب بنوا مجد روما .

— إنما تعنى مجد عشرة أو عشرين من أهل روما . وما هذا المجد ، أهو ذلك الموكب الذى يسير فيه القيصر وحوله الأسرى يجرون وراء مركبته ، أنكم ترون المجد كل المجد فى أن يكون بين هؤلاء العبيد ملوك وأمراء . أنهم كانوا ملوكا فى بلادهم ، أما فى الأسر فشأنهم شأن العبيد ، أهذا هو المجد الذى تفخرون به .

— لقد أجهدتنى فى التفكير ، أن الجندى عندنا يجب أن لا يفكر ، ولا معبود له سوى النظام ، ذلك النظام الذى يريح النفس والفكر ويجعل من الإنسان آلة طيعة فيكون له العذر عند نفسه إذا أصبح لا ضمير له .

ورأت الفتاة أن هذا الشاب ليس على جانب كبير من

الذكاء ، وأن حديثها أرهقه ، وأعجبها ذلك منه إذ زاده رقة جعلته أجدر ما يكون بالعطف عليه . وهمت أن تقبله ، وأحست أنها تود لو استأثرت به لنفسها . ثم هالها هذا الشعور واحمر وجهها خجلا أن تساوها الرغبة فى رجل أو الشوق إليه . وكأنما كانت تعد ما هى فيه من لقاء الرجال يوماً بعد يوم عملا لايمس إلا جسدها ، حيوان يلقى حيواناً . فلما أحست أن نفسها الناطقة تريد رجلا بعينه ليس بينها وبينه علاقة رأت فى ذلك العهر كل العهر . وخجلت من هذا التردى فى الرذيلة وهو مالم تشعر به حين كان الأمر بينها وبين الرجال أمرا بين حيوانين .

ولما مرت بخاطرها تلك الافكار هبت قائمة وتركته ، ولكنها ألقت إليه نظرة عابرة فهمها هو على أنها لا تأبى أن تراه يعود إليها حين يشاء .

وعاد إليها من غده ، وكانت ترقب مجيئه دون أن تعترف لنفسها بهذه الرغبة ، كأنما كانت تسترق الشوق إليه . فلما جاء لزمت حجرتها وتركته مع صويحباتها ، فأقبلن يتهافتن عليه فى مرح غير كريم ، ولعب غير برىء ، وحديث لا ينقصه الابتذال . وأخذ يقص عليهن حديث المعسكر الرومانى وكيف احتفى الجند ببطل منهم عظيم ، قتل وحده

خمسة من أهل بلد بعيد . تألبوا عليه فقتلهم جميعاً ، وبذلك أصبح اسم روما يلقى الرعب فى قلوب أهل تلك البلاد ، فلن يجرؤ أحد بعد اليوم أن يقف أمام رومانى مهمايكن مبلغه من الضعف والهوان ؛ وحياه القائد على أنه المثل الأعلى للجندى الرومانى ، وأوصانا أن يكون قصاصنامن يقاوموننا بالغا حدا من العنف والقسوة يملؤهم رعبا إذا ذكرت أمامهم روما ، وأن هذه هى الوسيلة الوحيدة للابقاء على الرومان أينما حلوا .

وأطال الحديث معهن وهو يرجو أن تجىء صديقته ، ولكنها لم تفعل . فلما ضجر من انتظاره اياها سأل عنها وقام مع صويحباتها حتى أتوها . وكان لهم ضجيج عال ، فلما دخلوا عليها سكت وسكتن . وأقبل عليها يقبل يدها وأقبلن عليها يذكرن لها تحرقه للقائها وضيقه بحديثهن . وأردن أن يخرجن فمنعتهن . وبقين جميعاً فى أدب واضح واحتشام لم يكن من طبعهن . وسر هو لرضائها وسررن جميعا حين رأينها تقبل عليهن وتعرض عن شذوذها القديم وعزلتها التامة .

وأخذت تداعبه فتقول أن يديه مخضبتان بالدم ، وأنها لا تحب أن تجلس مع المجرمين السفاحين . ولم تكن تعنى

شيئا مما تقول ، فان نظرت هذا الشباب الوديع كانت تدل على بعده التام عن أن يكون سفاكا للدماء قاتلا للأبرياء. وتظاهرت بالرغبة فى الخروج ، فأمسك بتلابيبها يلمتس المغفرة وهو يقول أنه لن يقتل أحدا بعد اليوم ، ولن يغفل ضميرة بعد الآن . وبكى بين يديها حتى آمنت بتوبته فخرج راضيا مرضيا عنه .

ولم يكن لها بد من أن تؤمن بتوبته ، فهى فى حاجة شديدة إلى هذا الحب الجديد الذى أتاح لها لأول مرة أن تبرأ من الندم وأن تشعر بهدوء البال وأن تحس أن صلفها أن لم يكن قد زال فهو صائر من غير شك إلى الزوال بعد أن خفت حدته كثيرا ، وكان فرحها بذلك عظيما ذلك أنه سبق لها أن أرادت أن تذل فاحترفت البغاء ، ومع ذلك لم تذل نفسها حين دنست جسدها . أما اليوم فهى تشعر لأول مرة بالحب البرىء الطاهر ، وذلت نفسها الذل الكريم الذى كانت تحلم به فلا تبلغه . وتبين لها أن الكبرياء — خطيئتها الكبرى — لا يكفر عنه التكفير الحق إلا عن طريق الحب الطاهر ، فهو الذى أذلها وطهرها ، أما غيره فدنسها ولم يكفر عن كبريائها . وأيقنت أنها لو أحبت فى أول أمرها ما وقعت فى خطيئتها الأولى وما تردت فى خطيئتها الثانية التى حسبتها تكفيرا عن الأولى .

لم يطل عهدها بهـذا الحب ولم تتمتع به كثيرا ، فـلم تلبث أن خرجت من هـذا الحب البسيط الجميـل وهـذا الحلم اللذيذ والسعادة الهادئة إلى حب آخر أعمق وأعنف وأغلب للنفس وأشمـل للفضائل ، حب علمت حـين أحست به أن الحب الأول لم يكن الا قطرة من هذا البحر فنسيته تماما . ولما لقيت هذا الشاب بعـد ذلك جهلته وإن لم تنـكره ، وكأنها لم تذكر أن قلبها خفق يوما لرؤيته وأن فؤادها تعلم الشـوق ونفسها تعلمت الطهر على يديه . نسيت ذلك كلـه كما يفعل العطش الصدى حـين يأتى العـين الصغيرة فيفرح بهـا وينعم ، ثم يجد النهر الخضم فينسى تلك العين وفضلها عليه .

ذلك أنها جلست يوما إلى نافذتها ترقب مجيء ذلك الشاب وهى تغالب شوقها إليه فتغلبه تارة ويغلبها تارة أخرى ، وكانت تتوق إليه ساعة ثم تجهد نفسها ساعات لتنساه . وبينا هى على هذه الحال اذ أقبل رجل من علية القوم ضاحكا ساخرا يضرب كفا على كف وهو يقول :

— انى رأيت اليوم عجبا لم يسمع أحد بمثله من قبـل وما أظن الا أن الساعة قريب إذا كانت أمورنا ستسير على هـذه الوتيرة ، ألم تعلموا ماحدث فى أورشليم اليوم ،

قدمها رجل ضعيف لاحول له ولا قوة ولا جاه ، ولم يؤت من العلم ولا من المال شيئا ، قدم على حمار هزيل يتعثر فتكاد تدق عنقه ويكاد يهوى براكبه ، دخلها ومعه قوم من أقل بنى إسرائيل قدرا وعلما ، ومنهم من لا تزال تعلق بثيابه رائحة السمك ، فان أكثرهم من صياديه فى طبرية ، قوم بهم من الجهل والفقر وضعف التفكير ما لا نجد له مثيلا بين أهل أورشليم . على هذه الهيئة المخزية دخل هذا الرجل بلدنا وبيده غصن من شجرة زيتونة يدعو به إلى السلام ، ويدعو إلى المحبة بين الناس ، وبين الله والناس ويقول أتباعه أنه نبي وأن له معجزات ، وأنه يبرىء المرضى ، بل قيل أنه يحيي الموتى ، إلى غير ذلك من خرافات المؤمنين به . وهو يدعو إلى ايمان جديد ودين له خاص يضع الفقراء فوق الأغنياء ، والجهال فوق العلماء ، والضعفاء فوق الأقوياء وكنت أحسب أن سخف هذه الدعوة وضآلة قدر أصحابها كفيلان أن يجعلاها موضع السخرية والهزء ، وما هالنى الا مارأيته من اقبال الناس عليه والتفافهم حوله وايمانهم به ، وما أحسب أن أحدا يؤمن به الا ان يكون قد فقد كل أمل له فى النجاح فى الحياة .

وهبت الفتاة تسأل عن صاحب هذه الدعوة ما هو

ما خطبه وما أتباعه . وعلمت من أمر هذا القادم على أوشليم أنه يدعو الى المحبة بين الناس جميعا وبينهم وبين الله وأنه يدعو الى التواضع ويعده أصل الفضائل وطريق النجاة وسبيل النعيم المقيم ، وأنه يغفر الذنوب ويكفر عن الخطايا . ووقع فى قلبها أن نجاتها ستكون على يد هذا الرجل الذى لا يحفل بالأغنياء ولا بالعلماء ، والذى يشفى الناس من الكبرياء وأشرق وجهها لهذا الذى وقع فى نفسها وقامت إلى مخدعها لينصرف الناس . فلما خرجوا تسللت من الدار خفية وهربت لاتلوى على شىء ، عارية الرأس مهلهلة الثياب لا تريد أن تبطىء أو تتريث لتصلح من حالها خشية أن يفوتها ما عزمت عليه . وكانت على هيئة لا تقبل سيدة أن تكون عليها حين تسير فى الطرقات ، ولكنها عميت عن كل ما حولها ، ولم تحسب لما قد يقال عنها حسابا ، وتركت وراءها مالها كله وهرعت إلى حيث تلقى هذا الرجل وقد قدرت أنه سيكون قائدها إلى النجاة .

ولم يكن عسيرا عليها أن تلقاه ، فقد تجمع حوله خلق كثير ، منهم الطلعة الذى ليس به الا حب المعرفة ، ومنهم من يبغى الشفاء من مرضه ، ومنهم من تبعه ايمانا به . وأقبلت هى تشق طريقها إليه وسط الزحام ، وعلم الناس من هيئتها وزيها أنها ليست من فضليات النساء ، وأشمأزوا منها ،

وأوسعوا لها الطريق تجنبا لها ، وغمروها بنظرات الاشمئزاز والاحتقار . ولكنها لم تلق إليهم بالا . وتقدمت نحوه ، ولم تستطع أن ترى وجهه إذا لم يلتفت الى الجهة التى كانت فيها . ثم حدث أن لمسته احدى السيدات فعلم أن مؤمنة لمسته ، وكان الناس كلهم يلمسونه فلم يشعر بهم الا حين لمسته هذه المؤمنة فان لمس المؤمن شىء لا يعرفه الا هو . عند ذلك التفت وراءه يسأل عن هذه التى لمسته ، وما أن أشرق وجهه على هذه الفتاة الهاربة حتى بهرتها رؤيته وعلمت أن أملها فى النجاة لن يخيب هذه المرة ، وصاحت به تناديه أنها مؤمنة به ترى النجاة على يديه ، فأومأ اليها أن تتبعه. وغضب كثيرون أن رأوه يقبل على مثلها وهو النبى الذى علق الناس آمالهم به ، فلما علم بغضبهم ألقى عليهم كلمته الرائعة : إن الراعى الحكيم يعنى بالتى تضل من غنمه ، ويفرح بها حين تعود اليه ، ويترك غير الضالة منها . ولكن كثيرين ممن حوله لم يجدوا هذا القول كافيا فى تبرير عطفه على هذه الفتاة وقبوله اياها وهى آثمة واضحة الاثم

وأتقض الناس وبقيت هى ألزم له من ظله ، وتبعته حتى بلغ دارا نزل بها فلما جلس أقبلت على قدميه فغسلتهما بدموعها وجففتهما بشعرها المرجل وقبلتهما وطيبتهما بأحسن

الطيب ، وأحست ساعتئذ أنها شفيت من أدوائها جميعـا ، وغمرهـا نور النبي الجديد وشملتها رحمة الله وبرئت من الكبرياء وزال عنها الندم والحسرة والحزن ، وطهرت مما علق بها من أدران ، وسعدت بذلك غاية السعادة ولم تكن تظن ذلك ممكنا ، ودمعت عينها فرحا بهذا اسفاء ، ونسيت كل شيء الا هذا الايمان الجديد ، وأقبلت عليه بكل ما فيها من قوة وأمل وأخلاص .

لم تطهر نفس قبلها مثل هذا الطهر ، ولم تغمر رحمة الله أحدا قبلها بمثل ما غمرت به هذه الفتاة الخاطئة ، فأصبحت بنعمة الله قديسة تضرب بطهرها الأمثال .

الجندى المسيحى

ذهب الفتى الرومانى الى دارها وهو أشد ما يكون شوقا إلى لقائها بعد أن غاب عنها أياما ، وأقبلت عليه صاحباتها على عادتهن معه ، فلما سألهن عنها أخبرنه أنها خرجت ذات يوم ولم تخبر أحدا بما أعتزمت ، وأن أحدا لا يعلم سبب خروجها ولا أين ذهبت ، وقلن له أن ذلك لم يكن منها عجيبا فقد علمن منذ قدمت عليهن أنها ليست على شاكلتهن وأن فى الأمر سرا ، وأنهن لم يخالجهن الشك فى أنها ستخرج يوما من هذا الجحيم الى غير رجعة .

بهت الجندى وشعر أنه فقد أعز شىء يحرص عليه ، فهو لم يعد يطيق عنها صبرا . وزاد فى قلقه ما قيل له من أن أحدا لا يعلم عنها شيئا ، وأزعجه ظنه أنها قد تكون فارقت أورشليم مهاجرة على أن لا تعود ، وظل يبحث عنها فى المدينة فلم يعثر لها على أثر .

وبينا هو يسير فى دروب أورشليم على غير هدى اذ رأى جمعا كبيرا يحيط بالنبى الجديد ، يسيرون وراءه ،

فانضم إليهم يستطلع الأخبار بعد أن سمع كثيراً عن هذا النبي ومعجزاته ، وما زالوا يسيرون حتى بلغوا الدار التي يقيم فيها أتباعه فخرج أهلها يستقبلونه . وكانت المجدلية من بينهم فعرفها وفرح لذلك فرحاً شديداً ، وعزم أن يلقاها وأن يخبرها أنه عاد إليها وأنه باق على عهده معها من الحب الرائع الكريم .

وسأل عن هذا المنزل وأهله ، وعن هذا الرجل الذي التف الناس حوله ، فسمع قولا كثيراً لا عهد له به ، ولم يفهم منه كثيراً ولكنه علم أن فتاته أصبحت من أشد أتباع النبي إخلاصاً له وتعلقاً به ، وأن حياتها أصبحت متصلة بهذا الدين الجديد اتصالا وثيقاً ، وأدرك أنها قد قطعت علاقتها بحياتها القديمة وبكل ما يذكرها بها . ولكن جال بخاطره أنه ليس عليه من ذلك بأس فإن حبها له وحبه لها من أرفع الحب وأطهره ، وأنه ليس هناك ما يدعو إلى تنكرها له ، ولبثت مدة ينتظر خروجها ليتحدث إليها وليبثها شوقه كما كان يفعل من قبل . ورأى أن يتقدم إليها فإن انكرته تركها وشأنها حتى لا يعترض حياتها الجديدة ، وإن أقبلت عليه فإن ذلك يكون دليلا على رضاها عن عودته ويكون له أن يسير معها سيرته الأولى .

فلما علمت بأمره وسعيه إليها ورغبته فى لقائها لم تنكره بل دعته إليها وسلمت عليه وظن أنها ما زالت مشوقة إليه ، ولكنه وجدها لا تختصه بعطف خاص ، ولا تقبل عليه إقبال من تسعده عودة حبيب قديم ، ولا تعرض عنه أعراض من تخشى عودة حب لم تعد تشعر به ، فأقلقه هذا اللقاء الذى لم يكن إنكاراً ولا حباً ، وحار فى أمره لا يدرى كيف تفهم موقفها منه . ولم يكن له أن يفهم أنها ما زالت تحبه ولكن حبها له لم يعد حب إمرأة لرجل أو حب إنسان لإنسان وإنما أصبح جزءاً من حبها للناس جميعاً ، ذلك الحب القدسى الذى يرتفع عن أن يكون له موضوع . واستمرت تتحدث إليه وهو شارد الفكر لا يدرى ما يفعل ، وهم أن يرتمى تحت قدميها راجياً أن تعود إليه أو يعود إليها ، ولكنها حالت دون ذلك وقطعت عليه تفكيره حين قدمته إلى أحد الحواريين على أنه ممن يرجى منهم الخير فإن فى طبيعته ما يشعر باستعداده للإيمان .

جعل يتردد على الحواريين ما استطاع إلى ذلك سبيلا ولم يطمئنوا إليه أول الأمر خوفاً أن يكون عيناً للحكام عليهم ، ولم يقبل هو عليهم إلا بقدر ، ولم يستمع إلى كثير من حديثهم ولم يشاركهم أكثر جدلهم ، ولعله لم يكن يريد منهم إلا أن يظل قريباً ممن يحب .

وأمله منهم كثرة خوضهم فى الحديث عن الإيمان والعقيدة والخشية من الخطيئة والكفر ، واشتاق إلى حديث كحديث قومه عن الشجاعة والبطولة واللذة ،وأدهشه منهم أنهم لايؤمنون بالقوة ولايعجبون بالشجاعة ولا يفهمون المجد ، وأنهم يهزءون بكل ما يفخر به الرومان . وجعل يسائل نفسه أيمكن لهذه الدعوة أن تعيش وهى على ما هى عليه من تحبيذ التسامح وهل يمكن لأهلها أن يقاوموا القوى العنيفة التى تتضافر على القضاء عليهم وهم لا يدفعون الأذى ولا يردون العدوان إلا بدعاء الله أن يهدى المعتدى وأن يغفر له زلاته — دين عجيب يكفى أن يهم أولو الأمر بأهله فينتهى أمرهم ويصبح نسياً منسياً .

وما زال معهم على تلك الحال حتى لقى السيد يوماً ومعه حواريوه بعد أن قضى يوماً مرهقاً . وما كاد يقع نظر السيد عليه حتى أحس كأن نورا أضاء قلبه فاستجاب ضميره لهذا الدين الذى جاء به النبى الجديد ، وبدأ منذ ذلك اليوم يفهم الدعوة فهما حقاً ، ودخل منذ تلك اللحظة فى زمرة المؤمنين .

وأخذوا فى الحديث عن أحداث يومهم ذاك فقالوا أن علماء بنى اسرائيل غضبوا اليوم غضبة كبرى إذ حكموا

على امرأة بالرجم ، فلما هم الناس برجمها قال لهم السيد المسيح من يكن منكم بلا خطيئة فليكن أول من يرميها ، فانصرف الناس مشفقين من هذا القول ، وأغاظ ذلك العلماء فإنه فى رأيهم فتنة تحرض الناس على الشك فى أوامر الكتاب فضلا عن ما فيه من قضاء على أساس من أكبر الأسس التى يقوم عليها النظام الاجتماعى .

ووقعت هذه الكلمة من فؤاد الجندى الرومانى موقعا حسنا فإنه رأى فيها تغليبا للضمير على النظام ولم يكن يظن أن هناك شيئا يعلو على النظام فقد كان من عبدته ، عليه نشأ وبه قامت حياة قومه ، وجعل يفكر فى هذا الذى سمع . وأخذ يحدث نفسه :

إن كانت الخطيئة خروجا عن حدود الله فلله وحده أن يعاقب عليها ، وليس لخاطىء أن يقتل خاطئا مثله وإن اختلفت درجات الخطيئة ، إنما يكون ذلك للمعصومين من الخطيئة ولهم وحدهم أن يحكموا على الناس . ومن منا يدعى لنفسه العصمة . ومن يفعل ذلك فإنه يعد معتديا على حق الله إذ يبيح لنفسه أن يعاقب على ذنوب علمها على الإنسان أن يترك عباد الله له سبحانه وتعالى يعاقبهم على الذنوب

بقدرته وعلمه الواسع ، فهو على ذلك قادر دون حاجة إلى أى فرد منا لتنفيذ إرادته . والناس يختلطون بين ما هو مخالف للدين وما هو مخالف للنظام . أما ما يخالف الدين فأمر الجزاء فيه إلى الله ، أما ما يخالف النظام فأمر العقاب فيه إلى الناس ، وعلى أن يكون العقاب باسم النظام لا باسم الدين . والذين يدعمون النظام بالدين يخطئون فى حق الدين فإن النظام من عمل الإنسان وهو ناقص ومؤقت وخاضع للتطور ، ولا يجور ذلك على الدين . ثم أن النواهى الاجتماعية يجب أن تظل عملا إنسانياً خالصاً يحميه الإنسان وليس من العدل أن نستتر وراء الدين لحماية النظام كما يفعل أكثر الذين يقسمون فى عقاب الخاطئين وما بهم من غضب للدين ولكنه حماية لنظام كله من عمل الإنسان ، وقد يكون خطأ أو صواباً .

وحدثهم محدث عن قدماء المصريين فذهب إلى أنهم خير الوثنيين خلقاً وأسلمهم تفكيراً ، ولكنهم كانوا يجهلون الله وأنه مصدر الخير الذى فيهم ، لذلك كان يدفعهم إلى الخير حرصهم على أن لا تبيد أسماؤهم ولا أعمالهم فنقشوها على آثار لا تبليها الأيام . وضحك الحاضرون من هذا التفكير الساذج الذى لا ترتفع الوثنية إلى ما فوقه . ثم حدثهم هذا

الجندى الرومانى عن عظماء الرومان وأن ما يدفعهم إلى العمل الرائع إنما هو حسن الأحدوثة ودوامها وما يقول التاريخ فيهم ، وحسب أن ذلك من الرومان جميل ، فضحك الحواريون لأن هذا التفكير لا يسمو عن تفكير غيرهم من الوثنيين فى قليل أو كثير ، فالإنسان بدون الله هزأة لا معنى لعمله ولا قيمة للدوافع التى تصدر عنها أعماله ، فإن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو الضمير ، والضمير من الله وبدون الله لا يكون ابن آدم إلا حيواناً عاقلا ذكياً ، أما أن يكون بدون الله انساناً فذلك محال .

وأخذ هذا النوع من التفكير يروق للجندى فآمن به مخلصاً حتى حقر فى عينه النظام وعظم عنده شأن الضمير ، وجعل يفهم حدود الله وأوامره ونواهيه ، ويفرق بين ما لله سبحانه وتعالى وما للناس ، وما هو أمر الله وحده فأباحه الناس لأنفسهم ظلماً وأخذ يؤمن بالتواضع والخير المطلق والتسامح ، وأدرك لأول مرة عبث ما تواضع الرومان على تقديسه والسعى إليه والموت من أجله ، فاحتقر المجد والعظمة وحسن الأحدوثة وكل مالم يكن مصدره الضمير .

أخذ يبشر بهذه المبادىء الجديدة ويدعو إليها زملاءه من الجنود ، وحاول اقناع خاصته بها وهو أشد ما يكون

حذراً . ولكن سرعان ما علم قائدهم أن آراء تنتشر بين رجاله تدعو إلى الرحمة والمحبة والتسامح ، وتنهى عن القتل وتهزأ بالنظام وتسخر بمجد روما وعظمتها ، فعزم أن يأخذ الأمور بالحزم ، وأن لا يدع أحدا ينال من عظمة جيشه وهو فخر روما وموضع اعجاب الناس كافة .

وحدث بعد قليل أن سير هذا القائد جيشاً إلى مدينة قريبة وكان هذا الجندى الذى آمن بالمسيح من بين من دفعوا إلى القتال، فذهب وهو لا يعلم ما سيحدث له ،فقد اطمأنت نفسه إلى أنه لن يقتل أحداً ليس بينه وبينه عداوة . وأنه لن يدع النظام يطغى على ضميره ، ولكنه لم يكن يدرى على أية صورة سيكون هذا الصراع بين النظام والضمير .

مريضة

يحتوى الليل الألم فيزيده شدة .

ويحتوى الألم الليل فيزيده طولا .

ولم يكن ذلك الألم — علم الله — فى حاجة إلى ما يزيده شدة .

ولم يكن ذلك الليل فى حاجة إلى ما يزيده طولا .

ذلك انه كان فى أطراف أورشليم بيت صغير شغل أهله بالحدب على مريضة منهم ، حجبهم أمرها عن العالم فلم يسمع بخطبهم أحد ، وحجب العالم عنهم فلم يعلموا شيئاً مما كان يجرى حولهم ، وكان البيت يدل على فقر واضح وان لم يبلغ حد الحاجة ولم يكن فيه أثاث يذكر ، ولكنه لم يكن خالياً مما يحتاج اليه أهله من وسائل العيش السهل البسيط ، ولم يكن فقرهم هذا بالغاً حد العدم الذى يدعو إلى الحنق على غيرهم أوبغضهم أو الحقد عليهم بل كانوا بريئين من كل ذلك . وكانت للمريضة فى إحدى القاعات

العليا وكان قد اشتد بها الألم منذ بضعة أيام حتى بلغ مبلغا لم يكن لأحد من أهلها بمثله عهد .

وكانت المريضة سيدة فى أوج شبابها ، بيضاء ناصعة البياض ، زاد شحوب المرض جلدها شفيفا . وكانت بضة لم ينل المرض — على شدته — من اهابها الغض ، ولم يذهب المرض المضنى بشىء من صفاء وجهها . وكانت حين يهدأ عنها الألم يعود إليها اطمئنان نفسها التى لم يكن يعرض لها الاضطراب ولا الضجر ، كأن السقم لم يغير من خلقها شيئاً وأن أقعدها عن الحركة .

وما زال الألم يشتد يوما بعد يوم ، وكان يأتيها الفينة بعد الفينة عنيفا مزعجا ، وكان أهلها يرقبون هذه الشدة وهم أشد ما يكونون جزعا ، ثم لا يزالون كذلك حتى تنكشف عنها الغمة بعد أن ينهكها الألم والصراخ . وكانوا يعجبون إذ ينظرون اليها حين يخف الألم فاذا هى قد عاد اليها هدوؤها ونضرتها وصفاء ذهنها .

ولما استفحل الشر وعنف الألم لم يعد أحد ممن حولها يطيق أن يراها فريسة لهذا العذاب . وطلبت أحداهن إلى أحد الحواريين — وكان أحد لا يرد لها أمرا ولا رجاء فهى السيدة مريم نفسها — طلبت إليه أن يذهب إلى السيد

للمسيح يلتمس للمريضة عنده الشفاء ، وقالت له ذكره بها فهى ابنة جارتى وصديقتى ، وهى أطيب الناس قلبا وأطهرهم نفسا ، والله لا يمكن أن يريد لمثلها عذابا ، وقل له أنها تألم ألما لم نسمع أحدا عانى مثله من قبل ، والله الذى وهبه القدرة على شفاء المرضى إنما وهبه اياها لمثل هذه المريضة المسكينة الطاهرة :

وسمع بمرضها رجل من أصدقاء أسرتها ، فدلهم على رجل جاب أقطار الهند وحمل منها أعشابا تسمى الأفيون تنقع وتشرب فيكون لنقيعها فى شفاء الألم عمل السحر ، وجاءهم به فجربوه وكان فعله أعجب العجب فلم تمر دقائق حتى ذهب عنها الألم كله كأنها لم تمرض يوما .

وكان أشد الناس ارتياحا إلى هذا الدواء وفرحا به أمها وهى سيدة هادئة جدا ، رقيقة الجسم دقيقة التكوين ، ذات صوت هادىء لا يرتفع فى أشد سورة الغضب إلى أكثر من صوت الحديث عند الناس . وكانت هى وابنتها المريضة ممن وهبهم الله تلك الصفة الرائعة - أنهم يشعون الهدوء حولهم ويسبغون منه على كل من يحيط بهم لا يشذ عن ذلك أحد . وكان فى البيت طفل صغير ممتلىء نشاطا وكان أميل إلى الصخب والصياح ، لا يهدأ ولا يخضع لأمر يؤمر به ، ولكنه

كان إذا نظرت إليه هذه المريضة هدأت ثائرته وأقبل عليها وصعد إلى سريرها وجلس بجانبها أهدأ ما يكون ، وكان شديد الحدب عليها . رأى بعضهم يريد أن يغلق بابها دونه فغضب وهدد من يحاول ذلك مرة أخرى ، كأنه يخشى أن يؤذيها الناس إذا لم يكن عليهم رقيباً ، وكان كل من في البيت يشعر أن بين روح هذا الطفل وروح هذه المريضة تواؤما واتفاقاً عجيبين ، كأن الأرواح لا عمر لها ، وكأنها حين تتفق لا يعنيها ما يكون أصحابها من اختلاف في السن .

ثم أقبل الليل ، وكانت المريضة نائمة من أثر هذا الدواء - والذين يتناولون الأفيون تفادياً من الألم المبرح ينامون نوماً غريباً يظل فيه الوجه أقرب ما يكون إلى حاله عند اليقظة ، كأن الجسم وحده هو الذي يعتريه النوم ، أما النفس فكأنها تظل على ما هي عليه من الانتباه ، وكأن النائم يسمع وإن لم يجب أو هكذا يخيل إلى من ينظر إليه .

وأخذ أهلها يعدون عدتهم لاستقبالها حين تستيقظ ، وكان عليهم أن يقدموا لها غذاءها في الفترة بين نومين ، وهبت من نومها وليس بها أثر من الألم ، ولم تتردد تردد النائم حين يستيقظ ، بل فتحت عينيها تامة اليقظة كأنما رفعت عنها أستار السنة ، وتبسمت كأنها لم تعرف الألم قط

وأقبل عليها كل من حولها يعينونها على الحركة والغذاء القليل الذى تستطيعه ، وأجلسوها فرحين بعودتها إليهم وهم لا يكادون يصدقون . وهمت أن تشكر ذلك الصديق الذى جاءها بالدواء ولكنها تبسمت ثم قالت أنها رديئة لا تنسى أساءة ولا تغفر لمن أساء إليها . ولم يفهم أحد من الذى تعنيه بهذا القول ، ولم يكن أحد ممن حولها يعلم أنه أساء إليها يوما فى قليل أو كثير ، ومع ذلك سرت فيهم رعدة من هذا القول يقوله إنسان وهو أقرب ما يكون إلى الموت ، ونظروا إليها فاذا هى تبتسم لهم فى اخلاص وبراءة يؤكدان أنها لم تقصد إلا إلى أن تسىء الظن بنفسها وأن تنفى عنها غرور من يظن بنفسه الكمال .

وطفقت تتحدث إلى من حولها حديثا عذبا يكاد يكون مرحا ، ثم أخذ الألم يلم بها رويدا رويدا ، وأخذ صوتها يضعف وحديثها يسكن ، وعلم الحاضرون أن بينها وبين الألم المبرح دقائق معدودات . والألم المبرح يصيب الجسم أول الأمر وتبقى النفس هادئه ، ويظل الحال كذلك فترة تختلف قصرا وطولا ، ثم يشتد الألم حتى يشمل الجسم والنفس جميعاً .

فى هذه الفترة يكون الجسد معذبا أشد العذاب وتكون

النفس قوية لم يصعد إليها الألم بعـد . وهي حال غريبـة تحدث انفصالا بين الجسـد والروح لا أعلم أن شيئاً يحدثه مثل الألم المبرح ولعل تلك الحال التي يكون فيها انفصال النفس القوية عن الجسد المنهوك وتغلبها عليه وتعاليها عن آلامه أصل ما يعتقده الـكثيرون الذين يحسبون الألم العنيف يصهر النفوس ويطهرها . والواقع أن ذلك لايصدق إلا على هذه الفترة القصيرة ثم يكون الألم عذابا صرفا .

ولما أخذ صياحها يشتد سألت أمها عن الدواء فقيل لهـا إنه نفد ، فجن جنونها وقالت إن لم يجئها أحد بهذا الدواء فسأهشم رأسها بيدى ، فذلك عنـدى أهون من أن أراها تألم كما كانت تألم من قبل . ووقع قولها هذا على الحاضرين وقعاً أليماً ، وزاد في أثره ما خيم على الدار من سكون مؤلم محزن . كان لصوتها الخافت المتهدج وسط ذلك السكون المطلق رنين رهيب مفجع .

أكدوا لهـا أن عندهم وعدا أكيدا أن الدواء سيكون عندهم بعـد قليل . ثم اضطرب كل من في المنزل حين سمعوا أولى صرخاتها العالية ، وساد الهرج بينهم من هول ما كانوا يترقبون .

في تلك اللحظة دق الباب فـكأنما نزل عليهم ملك من

السماء . واختطفوا الدواء وجرعوها منه ما شاءوا . ولم تمضى دقائق حتى هدأت نفسها وبدأت صيحاتها تقل ويتباعد ما بينها . ثم زال الألم وهدأت العاصفة هدوءا تاماً ، ونامت المريضة ذلك النـوم الخاص الذى يجلبه الأفيون ، وأطفئت الأنوار وخيم السكون على البيت وانصرف كل من فيـه إلى حيث يرجون بعض النوم إلى أن تهب العاصفة من جديد .

وكانت ليـلة ليلاء ، خيل إليهم أنه لن يكون لها فجر ، وحمل عبء هذا كله بضع نساء ضعيفات رقيقات الشعور ، وذاك الطفل الصغير .

ثم أقبل عليهم الحوارى الذى كان يحبـه السيد المسيح ، وهو الذى أرسلتـه السيدة مريم إليه تلتمس شفاء هـذه المريضـة على يديه . أقبل الحوارى يحمل رد سيـده على هذا الرجاء .

— يقول سيدى إن مريضتـكم مبرأة من كل خطيئة ، طاهرة من كل ذنب ، وأنه إنما وكل بمرضى النفوس يهديهم ويكفر عن ذنوبهم ، وأنه لم يؤمر بشفاء الأجسام وإحياء الموتى إلا أن تـكون فى ذلك آية من آيات الله يريد بها أن يحمل الناس على الإيمان ، وأنه ليس له أن يعترض سنة الله فى الأجسام إذا كان فيها خطأ يدعو إلى السقم .

— أتظن أن الله يريد بهذه البريئة الطاهرة أن تعذب هذا العذاب الذى لم يشهد له أحد مثيلا من قبل على حين يكون غيرها من كبار الخاطئين يمرح ويلعب متمتعا بالصحة والسعادة ، أليس مما يحمل الناس على أن يظهروا نفوسهم أن يكون للطهارة أثر فى هناءتهم وصحتهم ، إن الألم لا يبرره إلا أن يكون عقابا للمخطىء على خطئه ، والمجرمون أولى به ، وإذا كان الألم ، كما تقولون ، مما يطهر النفس وينقيها من أدران النعمة وفتنة الصحة ، وأنه طريق الجنة ، فأولى به من هم فى حاجة إلى التطهير ولا يجوز أن يختص به الأبرياء . أليس مما يحمل الناس على اجتناب الشر أن يقع بفاعله عقاب يؤذى صحته وسعادته ، أوليس مما يدعو إلى الخير أن يكون أهله بمنأى عن العذاب والألم فى هذه الحياة .

— إن الله لا يجـــزى طهارة النفس بسلامة الجسم ، ولا يعاقب على خطيئة الروح بسقم الأبدان . هـذا بعض تفكير الذين يقيسون علمه بجهلهم . إنما يكون الجزاء من جنس العمل ، والعقاب لا يكون عـدلا إلا إذا كان نتيجة طبيعية للذنب ، ولا يجوز على الله الظلم ، ولو أنه عـذب الكافرين بآلام الجسم لكان هذا ظلما ، إنما يعذبهم بقلق الضمير ، والألم ليس عذابا ولا تطهيراً ، إنما هو نتيجة طبيعية

الخطأ في الجسم لا يتعلق بالنفس والألم الذى يصيب المؤمنين ليس امتحانا ولا تمهيدا لطريق الجنة ، وليس بين الإيمان والصحة من سبب ، ولو كان الأمر على ما ترين فيكون عقاب كل عمـل من أعمال الشر مرضا معجلا وثواب الخير صحة دائمة ، لأصبح الناس جميعاً طيبين مؤمنين ، ولم يرد الله أن تـكون سنته في خلقه على هذا النحو .

— لله حـكمة لا نستطيع أن ندرك كنهها ولا أن نتبين مراميها ، ولـكنى أخشى أن يظن الناس بسيدك الظنون ، وأخشى أن يشكوا فى ألوهيته بل فى نبوته ، وقد يشكون قريباً فى انسانيته :

— إنك ياسيدتى تشتدين فى الحديث عنه شدة حملته فى ساعة ضجر أن يقول لك كلمته التى سيحار الناس فى فهمها قرونا ذلك حين قال لك أيتها المرأة ماذا بينى وبينك .

هنا استيقظت المريضة النائمة وكأنها كانت تستمع إلى كل ما يقال حولها وقالت :

— إنى أعلم ما قال عنى السيد المسيح وأعلم انى ناجية من غير شك ، وأنى بريئة طاهرة إذا كان هو قد وصفنى بالبراءة والطهر ، ولم أكن أطمع أن أسعد فى حياتى بشىء خير من هذا الذى قاله عنى ، ويستوى عندى بعد ذلك أن

أموت أو أن أبرأ ، ويكفينى أنه قال عنى أنى مؤمنة ولا أريد على هذا الإيمان جزاء ، ولا أريد أن يكون مرضى وسيلة لاختبار صدقه ، فهو عنــدى الصادق الأمين على أية حال ، وليس لــكم أن تقيسوا عمله بما يعمل غيره ، فإن عمله خير كله وإن كان ظاهره على غير ما تحبون .

وحاولت أن تجلس فلم تقدر ، وسقط رأسها على وسادتها فى عنف قليل ، وارتخت أعصابها ومال رأسها ، وأقبلوا عليها جميعاً فإذا هى جثة هامدة .

وجاءت المجدلية فسجتها وقبلتها القبلة الأخيرة . وكانت أشد الناس حدبا عليها وسهراً من أجلها ، فلما لم يعد الحدب يجدى شيئاً تركتها وأقبلت على الرسول تسأله فى لهفة شديدة ما فعل الناس بسيده ، وكأنما عادت إلى سابق ما تعودته حين كانت لا تستطيع أن تفــكر فى أحد غيره .

وأطرق هو ولم يجب ، وكان إحجامه عن الحــديث ينم عن ألمه ، وخيل إلى محدثته انه يخفى أمراً خطيراً ، فأخذته بفودى رأسه رأسه وهزته هزاً عنيفاً ، وسألته ما وراء هذا الصمت ، أتراه قد حدث له حادث ، أيمكن أن يكون قد ناله أعداؤه بشر .

وظل على صمته ولكنها كانت على حال من الغضب والعنف لا يقف أمامها شىء ، فاضطر أن يروى لهن ما فعل بنو إسرائيل وما اعتزموا من حمل الرومان على صلبه اليوم متهمين إياه بالكفر .

– أيصلب المسيح لكفره بالله ، ويقال بعد ذلك أن للإنسان عقلا أو ضميراً ، ثم يراد منا بعد ذلك أن نثق بحكمة الإنسان .

– وأعجب ما فى الأمر أن شيئاً من ذلك لم يزعجه ، فهو ثابت كالطود لا يريد أن يحرك ساكنا ، ولا يريد أن يشير علينا بما نعمله لإنقاذه وهو يعلم أننا رهن إشارته ولو كان فى ذلك هلاكنا جميعاً .

– أيعنى ذلك أنكم ستسكتون عن هذا الظلم لا تدفعونه عنه .

– إنه يقول أنها إرادة الله وأنه ليس لنا أن نعترض قضاءه وقدره .

– إن الله حين وهب لنا العقل أخذ على نفسه عهداً أن يفهمنا حكمته ، فإن غمت علينا فقد نصل إلى حد من الشك هو أقرب إلى الكفر .

-- أبق عليك ايمانك ، فان الايمان لايعرف الا عند الشدائد ، ونحن فى شدة لاتعدلها شدة ، فلنتمسك بايماننا لعل الله يهدينا سبيل الرشاد فلا يجمع علينا الكفر والضلال .

ولم يدرك أكثر النساء الحاضرات أول الأمر هول ما أخبرهن به هذا الحوارى ، بل أصابهن لدهشتهن ما يشبه الذهول . ثم تبين لهن عظم الخطب الذى سيلم بهن حين يفقدن أعز عزيز عليهن . وكن ضعيفات أنهكهن السهر والحزن والألم ، فأجهشن بالبكاء وأخذن يولولن بصوت عال حتى أنبتهن سيدتهن . وزجرتهن وردتهن الى ما يليق من الاحتشام . وحملت هى ألم هذا الخبر فى هدوء واطمئنان ولم ينم عن حزنها الا تقلص خفيف حول شفتيها . ولم يذهب كل ذلك بشىء من روعة عظمتها وسمو شعورها وصفاء نظراتها ، فقد أنزل الله عليهما سكينة اختص بها تلك اصطفاها وفضلها على نساء العالمين .

ولم تستطع المجدلية أن تبلغ هذا المبلغ من الصبر ، ولم تستطع أن تتصور حياتها بعد أن يغيب عنها هذا الذى أنجاها من عذاب الضمير وخطيئة الكبرياء ، فهى لم تعد تعيش الا به وله : وعزمت أن تحول بين جنود الرومان وبينه

ولو قتلوها ، فما للحياة بعده قيمة . واشتد بها الضيق حتى غشى عليها ، فحملنها الى سريرها وهن لا يصدقن الا أنها ستقضى نحبها من فورها .

وخرج هذا الحواوى وقد زاد حزنا على حزن وألما على ألم ، وذهب الى دار قريبة اجتمع فيها الحواريون يبحثون فى ما يجب عليهم عمله فى هذا اليوم العصيب .

اجتماع الحواريين

اجتمع الحواريون فى تلك الليلة ينظرون فى ما يجب عليهم عمله بعد أن أجمع بنو إسرائيل والرومان أن يصلبوا المسيح . ولم يكن على وجه الأرض أطهر منهم نفساً أو أعظم خلقاً أو أنبل غرضاً . وكانوا يبحثون كيف يحقون حقاً لا مرية فيه ، وكيف يمنعون ظلماً لا ريب فيه . ولم يكن بهم ضعف فى العقيدة ولا فى العزيمة ، ولا تهيب لخطر . ولم يستسلموا لشهوة جامحة أو أثرة تخرج بهم عن جادة الصواب . بل كان يحدوهم حب قوى خالص لوجه الله . ومع ذلك طال بهم الجدل واشتد النقاش ، وتبادلوا تهما يعلم الله أنهم منها أبرياء . ولم يعصمهم من أن تدب بينهم البغضاء إلا صفاء نفوسهم وقوة إيمانهم . واختلفوا اختلافاً شديداً ، على ما بهم من التقــوى والورع وإنكار الذات وشرف المقصد .

ولعل فى ذلك مصداق رأى من يرون أن اجتماع طائفة من الناس ينظرون فى أمر بعينه يخلق بينهم تدافعاً وتجاذبا

وانفعالات تؤدى إلى مواقف متشابهة سواء أكان المجتمعون حواريين أم وثنيين ، علماء أم جهلاء ، مجرمين أم أتقياء ، فلا يلبثون أن يكون منهم المقدام والمتريث ، والمخاطر والمحاذر ، والذى يدعو إلى المجاهرة ، والذى يدعو إلى التقية ، والذى يؤثر العاجلة ، وَالذى تعنيه الغايات البعيدة ، والقريب النظر والبعيده ، مهما يكن موضوع الحديث . ولا يتفق مثل هؤلاء القوم فى سهولة إلا أن يكون فى اتفاقهم كثير من الرياء .

وكان المجتمعون من الحواريين عشرة إذ تخلف عنهم الذى خان ، وغاب الذى يحبه السيد ، فقد أرسلوه إليه يستطلع لهم أخباره ويتلقى أوامره وكان معهم حكيم ماجى كانوا يعرفونه ويقدرون فضله ، وكان أحد الماجيين الثلاثة الذين قدموا على بيت لحم يوم ولد المسيح . ذلك أن علمهم هداهم إلى نجم بدأ يتألق فى السماء فاتبعوه فدلهم على مكان مولده ، ثم رأوا هذا النجم يشتد نوره حتى بلغ أوجه يوم موعظة الجبل حضرها منهم اثنان . ثم رأوا هذا النجم يضعف نوره فعلموا أن وجود المسيح على الأرض قد قارب نهايته ، فقدم أصغرهم يشهد نهاية هذا النور الذى اهتدوا به دهرا طويلا .

وقضى الحواريون وقتا ليس بالقليل يروحون ويجيئون وهم مضطربون أشد الاضطراب يحدث كل منهم نفسه أو غيره حديثا كله ألم وحزن وغضب دون أن يتبين لهم رأى أو يتبين لهم غرض .

ثم تكلم عميدهم صاحب المفتاح فقال

— أننا نتعرض اليوم لمحنة هى أقسى علينا من كل ما لقيناه من المحن ، محنة لا ينفع فيها ما يعتريكم من حسرة وندم وقلق ، فلن يغنى عنا كل ذلك شيئا . وانى لأخشى عليكم هذا الندم وهذه الحسرة أن لم يعقبهما عزم وعمل إن الانسان ليضطرب حتى يبلغ حد اللوثة حين يدعوه ضميره إلى عمل خطير تقعد به عزيمته أو يقصر عقله عن إن يهتدى إلى نوع العمل الذى يجب عليه ، حتى إذا حزم أمره واعتزم خطة صريحة هدأت نفسه مهما يكن عزمه خطيرا أو مركبه صعبا . وانى أدعوكم إلى أن تقلعوا عن ما أنتم فيه وأن تفكروا هادئين فى ما يجب علينا عمله غدا . وليس من شك أن التردد والحيرة أشد ضررا على الاتزان العقلى والنفسى من التعرض لأكبر الأخطار .

عند ذلك سكتوا برهة حتى ثاب إليهم هدوؤهم ثم قال قائل منهم :

— أن الخطيئة التى ستقع غدا أكبر ما ارتكب الانسان من خطايا فى تاريخه الحافل بالذنوب . وما بعد الناس عن الحق بعدهم عنه فى هذا الأمر فانهم خلطوا بين خير الناس وشرهم ، وساووا بين الأنبياء واللصوص . هذا اثم أكبر من أن يحمله قوم دون قوم ، أو جماعة بعينهم ، انما يحمل وزره الناس جميعاً ، فنحن إذا أنقذنا السيد المسيح أنقذنا الإنسانية كلها من عبء ستنوء به أبد الآبدين .

وقال آخر :

حسن أن ننقذه فننقذ الإنسانية من جرم لا يعدله جرم، لكن علينا فوق ذلك أن ننقذه لحبنا اياه ، فمن لم يجد بحياته فى سبيل من يحب فلا حب له ، ومن لا حب له فليس منا ، وليس منا من يقف إيمانه عند ابتغاء السلامة . أنى أريد أن أحول بينه وبين ظالميه وهم أقل قدرا من شسع نعله ، وسأعترض الجنود الذين يريدون به الشر فأنقذه منهم، أو يقضوا على ، فان مت فسأموت راضيا ، وأن أنقذته فتلك سعادة الدنيا والآخرة .

وقال آخر :

— ألا ترون أن ظلما كهذا الظلم لو وقع على رجل من عامة الناس لكان خليقا بنا أن ننصره وندفع عنه الأذى .

أن ضميرنا يأبى أن يسكت عن هذا الظلم المبين . وإذا لم نغضب للعدل ففيم كلامنا عنه وعن الحق والباطل . وإذا لم تدفع المنكر باليد واللسان فلن ينفع أحدا أن ننكره بالقلب . أن حب العدل وحده يحتم علينا أن نغضب للمظلوم مهما يكن قدره بين الناس ومهما يكن بغضهم له ، فكيف إذا كان المظلوم خير البشر كلهم وكان أحب الناس إلينا وأعزهم علينا . وإذا أردتم أن يكون لايمانكم بالحق والعدل قيمة فعليكم أن تدفعوا عنه ظلم الظالمين فان لم تفعلوا فقد حكمتم على أنفسكم أن فى عقيدتكم زيغا وفى إيمانكم ضعفا .

وقال آخر :

كأنى بكم وقد غضبتم له وللانسانية وللعدل قد نسيتم أن أول ما يدعونا إلى انقاذه هو حرصنا على الدين الذى جاء به . فليس منا من يستطيع أن يدعو من بعده كدعوته ، ولن يتبع الناس أحدا منا كما كانوا يتبعوبه . ولا ريب أنه إذا قضى عليه هؤلاء السفاحون فسيندثر هذا الدين القيم ، وسيزيد فى عجزنا عن الدعوة إليه هو اننا على الناس حين يرون قصورنا فى الدفاع عن نبينا . أن حياته وحده أجدر أن يتحقق بها أمل العالم فى السلام والهداية من حياتنا جميعا بدونه .

وقال آخر :

— هذا قول جميل وحق لا ريب فيه ، ولكنى أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول انكم إن كنتم تحرصون على الدين فالرأى أن تنقذوا السيد بالقوة لا بالاقتناع والاسترحام ولا بالحديث عن العدل والحب . لقد كنا عبئاً ثقيلا على دعوته . ألم يقل الناس لو كان فيه خير لاتبعه غير الأرذلين من قومنا . ويكفينا ما نحن فيه من هوان على الناس . ألم يقولوا إننا حثالة الشعب ، وإن الله لا يهدى بنى إسرائيل بشرذمة من صيادى السمك فى طبرية .

أن وجوده بيننا يغنينا عن الدنيا بأسرها ، وما دمنا معه فليقل الناس فينا ما يشاءون . أما إذا غاب عنا فلن نفلح بعده حتى يثبت للناس أننا لم نذل إلا له ولم نخضع إلا لسلطانه ، وأننا انصرفنا عن مقاومتهم لا خوفا ولا جبنا ، بل تفانيا فيه ، واستصغارا لشأن الدنيا من أجله ، واخلاصا للدين الذى آمنا به .

وقال آخر :

إن العزة والذلة أمران يتعلقان بما يبدى المرء من استعداد لمواجهة الموت . ألا ترون أن الفارس الذى يرهب الناس فيسجد له آلاف الأحرار من الرجال إنما يرهبهم منه

أنه وحده مستعد للموت وبذلك يسودهم وينجو من الموت .

ولا يقولن أحد أن قوتنا أضعف من أن يكون لنا معها أمل فى النجاح ، فاننا اذا أحجمنا عن الدفاع عنه فسينتقم منا أعداؤنا يجمعون علينا بين الموت وسبة الجبن ومذلة الهوان ، وأن عفوا عنا فالحياة بعده نذالة وخضوعنا للضلال كفر ، وان أقدمنا فسيذكر الناس عملنا بالاعجاب والفخر ، وأن متنا فسيذكروننا من بعدنا أجمل الذكر ، ومن أشرف ممن يقتل فى سبيل الحق والعدل وهو عالم بضعفه .

وعلت حمية القوم وكشفت عنهم غمة اليأس ، وخفقت قلوبهم لهذه الشجاعة ، وفرحوا بما عزموا عليه بعد أن ذاقوا من التردد والحيرة عذابا عظيما ، وأجمعوا أن يتخذوا الى انقاذه كل سبيل .

وسكتوا مدة ثم قال أحدهم :

— الرأى عندى أن نختطفه من سجنه الليلة فليس حراسه بكثيرين ، وليس من العسير أن تتغلب عليهم ولو أدى الأمر الى قتل من يقاوم منهم . وقد يكون الرأى أن ننتظر حتى يصعد الجند الى قمة الجبل ثم نهجم عليهم ويكون هربنا به من المدينة أيسر .

وكان طبيعيا أن تغلب عليهم الرغبة فى العمل الجرىء بعد

أن صرفوا عنه زمنا شغلوا فيه بالإيمان والعقائد ، وكان طبيعيا أن يشعروا بالحاجة الى اثبات ما فيهم من عزم وقوة لم يتبينهما الناس فيهم من قبل ، وأن يشملهم حب التخلص من ماضيهم الذى كان على الناس هينا أو دون الهين . ورضيت نفوسهم حين عزموا أن يعملوا عملا حاسما ، ولم يشك أحد منهم أنهم سيلجأون الى القوة وأنهم قد يضطرون الى التعرض للموت أو لما هو أشد عليهم من الموت وهو قتل الأبرياء ممن سيقاومونهم .

وطفقت حججهم تتابع فتقوى ، يتلو بعضها بعضا فتعلو علوا كبيرا . والأمواج – حتى الضعيفة منها – إذا توافقت والتقت على نظام اشتد أزرها ، على حين أن الأمواج العالية اذا التقت على غير نظام ضعفت وتضاءلت . كذلك تتدافع الحجج فى مثل هذا المجتمع فتقوى الحجج الضعيفة حين تتسق ، وتضعف الحجج القوية حين لايعين بعضها بعضا .

واشتد عزمهم على الكفاح والمقاومة بالقوة ، وأصبح من الصعب على أى منهم أن يعترض هذا العزم أو يقاومه بعد أن بلغ الذروة ، وكادوا ينفضون وهم على هذا الرأى وأخذ بعضهم يعد نفسه لحمل السيف ويفرك يديه استعدادا للكفاح .

وهنا تكلم احدهم فقال وهو خائف وجل :

– انكم لتعلمون أنى لست أضعف الناس قلبا ولا أحرصهم على حياة ، ولا أشك ان ماقلناه الليلة صواب وحق ولكنى لاأريد أن أعصى للسيد أمرا وهو لايزال بيننا حيا ، فانى لا أملك من الدنيا شيئا الا ايمانى به ، ولا أود لنفسى أن أموت وقد خالفته فى صغيرة أو كبيرة ، ولا أستطيع أن أهتدى بغير هديه فى أى أمر من الأمور ، وقد علمتم أنه أمرنا حين تعرض له رجال الشرطة وتألب عليه الناس ان لا تتعرض لهم بشر . وتذكرون أنه زجر أحدنا حين استل سيفه فأصاب به أذن جندى منهم . أن أمره لنا فى ذلك اليوم كان واضحا كل الوضوح ، فلن أعمل عملا مهما يكن عندى صوابا حتى تأتونى بأمر منه . فان غاب عنا غدا فانى عند ذلك أبيح لنفسى أن أحتكم الى عقلى على أن لا أخالف ضميرى ، أما اليوم فهو عقلى وهو ضميرى ، فاذا أردتمونى على أن أضع رأيى فوق أوامره فانى أكون فد وضعت عقلى فوق دينى وهو مالا أراه .

ورد عليه أحدهم فقال :

– أتريد منه أن يقول لنا موتوا دفاعا عنى ، انما يقول ذلك القياصرة وذوو القلوب المتحجرة ، أما هو فلا يليق

به وهو صاحب القلب الرحيم أن يأمرنا أن نموت من أجله . على أننا نعلم أننا على الحق وأنهم على الباطل ، وليس لنا أن نرضى بالذل والخنوع ، وليس علينا أن نطيعه فى أمر أنقاذه فان أنقاذه خير لا يمكن أن تشوبه شائبة .

— أنى أعارض فى أنقاذه اذا كان ذلك يلجئنا الى استعمال العنف ، وهو ما نهانا عنه ، ورأيى أن ديننا وضع لضمائرنا حدودا وأباح لنا العمل كما تريد لنا عقولنا على أن لا تتعدى هذه الحدود ، وعلى أن لانخرج عليها مهما يكن الخير فى أعمالنا واضحا . فالدين هو الحدود والنواهى قبل أن يكون ارشادا وأوامر :

— أن فى هذا الرأى ضعفا يقرب من الخيانة ، وتردد يكاد يكون غباء . أليس فى نصرته نصر للدين ، فما احجامك عن نصرته باسم الدين .

— انى لا اريد أن أرتكب معصية فى سبيل حماية الدين فان للدين ربا يحميه ولا حاجة به — فى سبيل حماية الدين الى أن يحمانى على ارتكاب معصية ، هذه أوهام يختلقها ضعاف الايمان وانصاف المتدينين .

— أن الله يتخذ منا أسبابا لتنفيذ ارادته ، وعلينا أن نحرص على حماية الدين .

— أنحن أحرص على الدين منه ، أأنتم أعلم بما يصلح لنشر دعوته منه ، إنكم ترون فى غيبته عنا قضاء على الدين ، وهذا رأى نراه ، قد يصدق أو لا يصدق ، ولكن استعمال العنف عصيان صريح لأمره ، وهو أمر الضمير ، وهو من أمر الله ، هذا عندى أكبر الكبائر .

— أن الخروج على الدين فى سبيل الدفاع عن الدين حلال ، ولابد مثلا من القضاء على زيغ العقيدة بالقتل إذا كان فى الزيغ فتنة فالفتنة أشد من القتل ·

— أن الزيغ قد يكون زيغاً وقد لايكون ، أما القتل فخروج عن الدين لا يحتمل التأويل ولا الخلاف ، ولا شك أن الفتنة أشد من القتل ، على أنه يجب أن تكون الفتنة حقيقة وهذا ما يصعب التثبت منه ، أما القتل فأثم لا يحتاج إلى التثبت من وقوعه · إنكم ترون أن خذلانه فتنة ألا يمكن أن يكون خذلاننا إياه اليوم أصلا من أصول الدين يتعلق بالتكفير عن الخطايا . الفتنة أشد من القتل ، هذا حق إذا كانت الفتنة ثابتة ، وإثبات الفتنة يحتاج إلى برهان وهو ما يجور عليه الخطأ والصواب ، أما القتل والأذى فأوضح من أن يكون فيهما رأيان ، وفيهما شر لا نزاع فيه ، ولا يسوغ ارتكابهما خير محتمل أو شر مرتقب .

— أن الدين لا يأمر بأن نغفل عقولنا إلى هذا الحد .

— أن الدين يأمرك أن تطيع العقل حتى يقول لك الضمير قف ، عند ذلك لابد من طاعة الضمير . وقد نهانا السيد — وهو ضميرنا — عن استعمال القوة ولو كانت فى سبيل نصرته أو نصرة الدين .

— ولكن موسى قاتل الناس وقتلهم ليحملهم على الدين الحق .

— إنما حارب موسى ليتقي قومه عدوان أعدائهم عليهم . وقد تكون عداوة أعدائهم لهم من أثر اختلاف الدين ، ولكنه على كل حال عدوان ، والدفاع عن النفس مباح إذا كان العدوان محققاً ، على أن لا تكون أنت البادىء بالعدوان إتقاء لعدوان متوقع . أن موسى لم يحارب لنشر الدين ، ولا لمقاومة الزيغ فى العقيدة ، فهو لم يقوم عبدة العجل بالقتل إلا لخروجهم على النظام وعصيانهم أمره وهو حاكم تجب طاعته ، ولم يحمل أعداءه بعد النصر على الدخول فى دينه . ومثله سائر الأنبياء الذين حملوا السيف ، لم يحملوه إلا حماية لأنفسهم وقومهم من عدوان أعدائهم ، ولم يحمل أحد من الأنبياء قوماً على الدخول فى الدين بحد السيف ، ذلك أن لا يدعى إليه بالعنف .

— هذا تخريج لا شأن لنا به اليوم فإن أحجامنا عن نصرته نكبة عليه وعلينا وعلى الدين .

— أليست لديكم وسيلة تنقذه دون حاجة إلى القوة .

— ألا تذكرون جندياً رومانياً كان يحضر مجالسنا وكان يبدو عليه أنه آمن بالسلم وعرف الفرق بين الخير والشر ، ألا نلجأ إليه ليمنع إخوانه من جنود الرومان أن يرتكبوا هذا الإثم أو يقنعهم أن يتركوه لنا نهرب به من هذه القرية الظالمة .

— تلك خيانة لقومه لا أرضى أن ندعوه إليها ، وإنى لأخشى أن ننزلق فى منحدر الخطيئة حتى نصل إلى الدرك الأسفل ثم لا نجد النجاة منها بعد ذلك يسيرة .

— إنى سمعت أنه أتهم منذ مدة بخيانة جيشه وقومه فى ميدان القتال وأنه سيحاكم اليوم ، وأكثرهم يرى أنه سيقتل شر قتله جزاء على خيانته .

وخبت حميتهم وعادوا إلى ما كانوا فيه من الاضطراب والتردد ، وذهب فرحهم الذى شعروا به حين أجمعوا أن يعملوا عملا حاسماً يردون به ظلماً واضحاً ، وغضبوا على الذين أثاروا فيهم الشك بعد أن صدق عزمهم على الكفاح . وإذا كانت الحجج التى تدعو إلى الإقدام فى حاجة إلى التتابع

حتى تشتد وتقوى ، فإن الحجج التى تدعو إلى الأحجام تنحدر فى سهولة حتى تبلغ السلبية المطلقة . ذلك أن الدعوة إلى العمل الإيجابى أسهل على الداعى من الدعوة إلى التبصر ، وإن كان حمل الناس على الاستجابة إليها ساعة العمل أصعب . أما الدعوة إلى الأحجام فهى أصعب على الداعى وإن تكن أسهل على الناس تنفيذاً . وللموقف الإيجابى يجعل النفس أكثر أرتياحاً ، وفيه لذة نفسية تشتد عند النقاش ، ومن هنا كانت الدعوة أسهل وأدعى إلى رضى الداعى والمدعوين . والموقف السلبى يضع الداعى موضع الاتهام ، والدعوة إليه تحتاج إلى شجاعة وإخلاص يذهب ببهجتهما أن التنفيذ لا يحتاج إلى شيء من الشجاعة .

والناس يختلف أمرهم ساعة الجدل فى ما يجب عليهم عمله ، عن أمرهم ساعة القيام بالعمل نفسه ، وقد يكون ، الداعى إلى الاقدام أقل الناس إقداماً حين يجيء وقت العمل ، ولا يكون ذلك منه جبننا ولا سوء نية . وقد يكون الداعى إلى الأحجام أكثر الناس إقداماً ولا يكون ذلك منه اقتناعاً بصواب ما يعمل ، وإنما هى طبيعة الندوات حيث يجتمع الناس يبحثون أمراً جداً . هنالك يكون نصيب الرأى الذى يدعو إلى الإقدام - وإن كان خطأ - أن يغلب على الرأى الذى

يدعو إلى الاحجام مهما يكن صوابا ، سواء أكان الداعون إلى الأقدام فى طبعهم الاقدام عند العمل أم لم يكونوا . تلك طبيعة الشورى حين تتم على هـــذا النحو فى مجتمع كبير ، كأنها ليس فيها ما يضمن صواب الرأى أو يعصم من الخطأ ، ولو كان أهلها على ما كان عليه الحواريون من فضل فقد كانوا أحسن النـاس نية وأخلصهم للدين وأحرصهم على الإيمان ، ومع ذلك لم تـكن الشورى بينهم إلا كما تـكون بين غيرهم — وسيلة لا يؤمن معها الزلل .

وغضب أحدهم على المترددين فقال

— من ذا الذى يفيد من الدعوة إلى عدم العنف . إن أكثر الرجال عنفاً هم الأشرار ، ويزيدهم عنفاً وشراً وجرأة على الطيبين أن يكون هؤلاء ممن يؤمنون بعدم العنف فيفسحوا بذلك المجال أمام الأشرار يؤذونهم وهم لا يخشون أن يقابل هؤلاء العنف بعنف مثله . أن خيار الناس فى غير حاجة إلى هذه الدعوة فهم لن يضعوا العنف فى غير موضعه ، والأشرار لن يستجيبوا لها أبداً . أنى لا أرى إلا ضرراً فى هذه الدعوة إلى تحريم العنف تحريماً مطلقاً .

— إنى أفيد من ذلك أن أكون قد أطعت الله وتجنبت ما نهانى عنه ، وهذا عندى غاية ما يراد من الإنسان .

— كأنه لا يراد من الإنسان إلا أن يقبع فى دير أو يسكن فى جبل ثم يترك غيره يعيش ويضل

— كلا بل أريد أن يعيش الناس مجتمعين عاملين مجدين على أن تكون حياتهم وعملهم — أفرادا — فى حدود طاعة الله ، وإذا أرادوا أن يضحوا فليضحوا بأنفسهم لا بغيرهم.

— ألم نخجل حين رآنا الناس نفر عندما قبض عليه ·

هنا قال عميدهم :

— إنى لأخجل من ذلك اليوم خجلى من الكفر ، ولم أذل أمام الناس وأمام نفسى كما ذللت ذلك اليوم ، فقد أردت أن أحمل السيف — ولست من أهله — فأضحكت الناس وأخفقت ، ومن عمل ما ليس من طبعه — ولو كان صواباً — تعرض لخطرين خطر النفاق وخطر الإخفاق . فمن لم يكن منا من أهل السيف والقوة ، ومن لم يكن من طبعه مغالبة الناس فليبتعد عن مالا يحسن ، فان الصدق بأوسع معانيه — أى التوافق بين حياة انسان وما ركب فيه من طباع — هو أول أسرار الحياة السعيدة الطيبة .

إنى كدت أصعق يوم قال لى السيد أنى سأنكره ثلاثا قبل أن يصيح ديك الصباح ، وعلمت من نفسى أنى لن

أنكره أبدا ، ولكنى حيث وقعت الواقعة تبينت ما فى نفسى من ضعف رغم ما كنت أعتزمه من شجاعة .

إن القول والرأى يكذبان ، أما العمل فلا يكذب والذى يريد أن يبدو شجاعاً وهو جبان يبوء بخيبتين : إحداها فى نفسه والأخرى فى عمله . إن أكثرنا أهل ضمير وإيمان ، وعلينا أن نقتصر على ما خلقنا له فلا نحارب قوماً هم أهل حرب وكر وفر . وإنى أعترف لكم على أية حال أنى لم أخلق لهذا النوع من الكفاح ، على أنى أرجو أن يهيء الله لى من القوة ما أستطيع به أن أكافح فى سبيله كفاحاً من نوع آخر .

إنى لأجدنى ضعفاً كثيراً ، ألم يعلمنا السيد أن نحب أعداءنا ؟ ولعلى نجحت فى حب أعدائى ، إلا أنى أرى صعباً على أن أحب أعداءه وهم له ظالمون ، ولكنى أعد ذلك ضعفاً وأرى أن نطيعه إذا كان أمره لنا واضحاً لا لبس فيه ، فإذا كان قد نهانا عن نصرته بالقوة فعلينا أن لا نتعدى نواهيه .

— إنى لا أرى بيننا اختلافا إلا فى الوسيلة ، وفى مدى ما نبيح لأنفسنا من حق استعمال القوة ، ورأيى أن لا نخضع للغضب ولا للبغض ، فإننا إن نفعل نخرج على ديننا . فلندبر أمرنا على أن لا نرتكب خطيئة العنف .

— حسن كل ذلك مالم يكن الدافع إليه الجبن أو الخور . فإن كان أحدكم يشعر أن رأيه هذا يصدر من رهبة أو خوف فتلك نصيحة الشيطان ، وإن كان يصدر عن إيمـــان وعقيدة فتلك نصيحة الله . وقد يتفق الفعلان أحدهما يوحى به الله والآخر يوعز به الشيطان ، ولـكن بينهما بونا شاسعاً وإن لم ير الناس بينهما فرقا .

— أترى أن نتبع ما يمليه الخوف وهو من أمر الشيطان إذا اتفق مع ما يأمر به النبى ، أم نتركه ما دام الدافع إليه شراً ؟ أأعصى النبى فى أمره الصالح إذا أحسست فى أعماق نفسى أنى إنما يدفعنى إليه الحقد أو البغض .

— عليك أن تطيع النبى على أن تطهر نفسك من دوافع الشيطان .

— وما فائدة طهارة الدوافع مادام العمل واحدا .

— إن الدوافع تستمر فى النفس بعد أن يتم الفعل فتراها تنحرف بنا إما إلى الشر إن كانت شراً ، وإما إلى الخير إن كانت خيرا ، فترى من عواقب العمل الواحد ما يكون شراً وما يكون خيراً طبقاً لما فى القلوب من دوافع .

وكان الحـكيم الضيف ساكتاً يسمع قولهم ولا يبـدى

رأيا ، فلما بلغ حديثهم هذا المبلغ أخذ يقول لهم وهم له منصتون .

— أدهشنى كثيراً مما سمعت وهالنى أنى تبينت فيكم قصوراً عن اتباع موعظة الجبل بعد أن سمعناها ووعيناها ، وكنت أظن أنها بلغت أعماق نفوسكم وأنها طهرت ضمائركم ، وأنه لا يأتى أحد منكم عملا إلا إذا طابق مبادئها ، ولكنى رأيت أنها لا تزال فيكم موعظة سامية تتبع أوامرها حين يستطاع اتباعها ، وتهمل حين تصطدم وما فى طباع الإنسان من ضعف أو شر .

وقد تبينت فى كثير مما قلتم أن العواطف التى تدفعكم إلى العمل ليست مما نصحكم به السيد ، ولعلها تعد عواطف سامية جدا عند غيركم ممن لم يستمعوا إلى السيد ولم يهتدوا بهديه . أما أنتم فيجب أن تكون دوافعكم خالصة من كل شائبة . والدوافع تكون حسنة أو قبيحة حين تتفق والضمير أو تختلف وإياه . وقد سمعت منكم أن حبكم للسيد المسيح هو الذى يدفعكم إلى الانتقام من ظالميه ، والواقع أن الذى يدفعكم إلى ذلك إنما هو بغضكم لأعدائه لاحبكم له ، والأمران مختلفان جدا وإن كان الناس يظنون أنهما متلازمان . والناس يختلط عليهم الأمر فيحسبون

أن حبهم للصديق لا يكون إلا ببغضهم لعدوه ، وأن حب الوطن مثلا لا يكون إلا ببغض أعدائه ، وشتان بين العاطفتين ، فالحب لا يدعو إلى الشر أبداً ، وإذا رأيته يدعو إلى الشر فاعلم أنه قد استحال فى قلب صاحبه إلى بغض لعدوه ، هذا خطأ يقع فيه أكثر الناس ، وعليكم أن تحذروه فإن اختلاط الأمرين يسهل فى النفوس حتى لا يتبينه إلا من رقت طبائعه وحرص على الخير المحض حرصاً شديداً .

ودعوتم إلى نصرة الحق بالقوة ، وما ذلك إلا لأنه اختلط عليكم موقف الحق من القوة . الحق له حدود طبيعية ، بل هو هذه الحدود نفسها . والقوة من طبعها أن تتخطى الحدود ما استطاعت ، فإذا رأيتموهما يسيران جنباً إلى جنب فذلك إلى حين ، والذين يدافعون عن الحق بالقوة لا يلبثون إلا ريثما يبلغون ما يريدون ثم تصبح القوة وحدها رائدهم ، ودعوى استعمال القوة لبلوغ الحق دعوة قصيرة الأمد لا تلبث إلا قليلا ، ثم تصبح الدعوة إلى القوة سافرة حين تكون فى غير حاجة إلى مسوغ من الحق ، وكل من اتخذ القوة وسيلة إلى الحق يجد بعد قليل أنه إنما اتخذ الحق وسيلة إلى القوة . فلا يكن من دوافعكم أن الحق الواضح يجب أن يدافع عنه بالقوة ، فإن مصيركم بعد

إحقاق الحق أن تعتمدوا على القوة وحدها ، وهو ما ينها كم عنه دينكم .

ألا فاعلموا أنه ما دام الحق فى المحل الثانى فسيان أن يخضع للقوة أو للباطل .

وسمعت منكم من يقول إنه إنما يدفعه إلى العمل خشيته مما قد يقول الناس فيكم ، وكثير من الناس يظنون هذا النوع من الخشية وسيلة قوية إلى حمل الناس على الفضائل ، وهو خطأ شائع ، فشتان بين الرغبة فى الفضيلة والخوف من الرذيلة ، فإن الخوف كالبغض قد يؤدى إلى عمل حسن يوماً ثم يؤدى آجلا إلى الشر حتماً ، ولا يليق بكم أن تصدر أعمالكم عن مثله .

وسمعت منكم من يفخر بشجاعته وحبه للتضحية طمعاً فى حسن الذكر وطيب الأحدوثة ، ومنكم من قال إن ذلك يدخل بكم فى التاريخ فيذكركم الخلف بأطيب الذكر أبدا ، وهذا دافع غريب من دوافع العمل يحسبه كثيرون مما يدعو الناس إلى الخير . لكنه قول الوثنيين ، وهو تفاخر أجوف وتعاظم نهاكم عنه السيد ، وهو عاطفة خرقاء لا يهتدى بها إلا الحمقى ، فهى لا تصلح دافعاً إلى الخير ، بل هى إلى الشر أقرب .

لا أريد أن أدعوكم إلى عمل بعينه أو أحملكم على خطة ، فأنتم أعلم بأموركم وأقدر على تدبيرها ، ولكنى أحذركم أنفسكم ، فانظروا ما يدفعكم إلى ما تريدون عمله ، فإن كان شراً فستقعون فى الشر الآجل وإن أعجبكم الخير العاجل . وأحذركم القوة وما تحملكم عليه ، فانكم إن فعلتم ما تأمركم به فقتلتم أحداً أو آذيتموه فانكم تتعدون بذلك حدود الضمير ، وهو كفر بدينكم مهما يكن له من مسوغ عندكم .

وكأنى بكم تقولون وما شأن العقل الذى وهبنا الله ، وما شأن الاختيار الذى ركب فى الإنسان إذا كان الصواب أن نغفل عقلنا فى مثل هذا الأمر الواضح ؟ والرأى عندى أن تهتدوا بالعقل ما لم يتعد حدود الضمير . واعلموا أن للنفس قوانين يجب أن لا تخرج عليها حتى لا يعتريها المرض ، شأنها فى ذلك شأن الجسم ، غير أن قوانينها أصعب فهماً وأدق مقاييس . والضرر الذى ينشأ من مخالفتها أخفى من أمراض الجسم وإن يكن أبعد مدى منها . أما التوفيق بين ما ركب فينا من اختيار وما نرغم عليه من اتباع قوانين النفس ، وما يقتضيه منا العقل ، فمعضلة المعضلات فى حياة الإنسان ، وقد يقربها من أذهاننا أنها تشبه الرجل فى السفينة

له حرية التنقل والعمل ، وله أن يحكم عقله وعلمه ، على أن لايتعدى حـــدود السفينة وقوانين الطبيعة التى تحيط بهـا فيغرق .

وهنا دخل عليهم من أرسلوه إلى السيد يستطلع رأيه وينقل إليهم أوامره ، فتهافتوا عليه، كل يود أن يكون رأيه هو الصواب. فقال لهم :

— إنه يأمركم أن ينصرفوا إلى العبادة والصلاة ، وأن تتركوه حتى يتم الله أمره فيه ، وأن تنتشروا فى الأرض تدعون إلى الحق. وهو يقول لـكم إنه سيلقاكم بعد أيام ثلاثة فى قرية من قرى الجليل ، وأنه مهما يكن ما يصيبه من عذاب فذلك أمر الله ، وليس لنا أن نعترض عليه . وهو يحذركم العنف ويلومكم على مابدا منكم يوم قبض عليه .

ولما علموا أن ذلك أمره صريحاً لا لبس فيه هدأت نفوسهم ، وعلموا أنهم لن يستطيعوا أن يحيدوا عنه ، ولكنهم حزنوا لذلك حزناً شديداً ، من دعا منهم إلى العمـل ، ومن دعا إلى التريث ، ومن دعا إلى العنف ، ومن دعا إلى السلم . وثقلت عليهم الدعوة إلى الاستسلام واليأس حتى بكى منهم كثيرون .

ولم يعوضهم من فرحة العمل الحاسم ومن لذة التضحية

فى سبيل الحق ، ومن شهوة الإنتقام من أعـــداء الدين ما هم فيه من إيمان وطاعة ، وخضعوا للأمر يائسين محزونين . وعزموا أن يخرجوا من هذه المدينة الظالمة وهم أشد ما يـكونون حسرة وندما وبكاء وأسفاً أن يضطروا إلى ترك نبيهم بين براثن المجرمين يفعلون به ما يشاءون ، وكادت نياط قلوبهم تتقطع ، إذ رأوا أنفسهم بين هـذا الإحجام المحزن وبين الـكفر بأمر نبيهم .

وقال لهم الرسول : إنى وعيت قوله أشـد الوعى ، وأرى أن علينا أن نتفرغ للعبادة والصـلاة ، مهما يكن الـكرب الذى نحن فيه ، وأن نهتدى بموعظة الجبل التى غمت علينا فنسيناها ، أو ثقلت علينا فتناسيناها . ولعلنا نحسن صنعاً إذا استمعنا إلى هذا الحكيم الذى أشرب قلبه هـذه الموعظة فآمن بها إيماناً أشد من إيماننا ، فعلينا أن نتبع نصحه ونفيـد من حكمته .

فلما سمعوا ذلك زاد تعلقهم بهذا الحـكيم الذى لم يرتفع إليه الشك أو القلق أو الاضطراب . وتعلقوا به تعلق الغريق بمنقذه . وعلموا أن إيمانه المطلق سيكون عونا لهم يستلهمون منه ما يخفف عنهم بعض الألم فى تلك الأيام الثلاثة الطوال التى سينتظرون فيها عودة السيد بعد أن يرفعه الله إليه .

وجعلوا يصلون ويتعبدون لعل فى صلاتهم وعبادتهم ما يخفف عنهم الحزن المرير .

وليس من شك أن ما عمله الحواريون كان صواباً من جهة ما هو وحى ودين ، ومن جهة ما هو فوق أن يدركه العقل الإنسانى وحده إدراكا تاماً . وليس من شك أن ما كانوا يخشون من انهيار الدين المسيحى بعد أن يغيب عنهم سيدهم كان خطأ ، بل إنهم بهذا الأحجام عن نصرته خدموا الدعوة المسيحية خدمة كبرى ، فإن الدين المسيحى تحددت مبادئه وتكونت فلسفته فى ذلك اليوم ، ومن أحداثه خلقت الصفات الغالبة على هذا الدين الجديد ، ومنها نشأت أروع عقائده فى التكفير والفداء ، ومنها نشأ هذا الحزن الغالب على طبع كبار المتمسكين بالمسيحية ، وخوفهم من الخطايا ، وحبهم لتعذيب النفس وإرهاقها ، وإكبارهم خطيئة آدم ، وإيمانهم أنها أصل للعذاب الذى تعرض له المسيح لينقذ الإنسانية من آثارها . ولعل ذلك لم يكن إلا صدى لخطيئتهم الكبرى ، حين تركوا المسيح لأعدائه ، كأن على المسيحيين أن يكفروا عن هذه الخطيئة إلى آخر الدهر .

لكن ذلك كله لم يعلمه الحواريون ، ولم يكن لهم أن يعلموه دون وحى .

أما من جهة ما هو إنسانى محض فليس من شك أن عملهم كان خطأ . فقد تركوا الحق الواضح يضام وعرضوا دينهم للفناء ، ونبيهم للظلم ، وأنفسهم للهلاك . ولا يدرى أحد ماذا كان يصيب المسيحية لو نجحوا فى إنقاذه عنوة ، ولكن الذى لا ريب فيه أن ما دلهم عليه عقلهم ، وهداهم إليه تفكيرهم وإحساساتهم لم يكن صوابا .

وإذا كان الحواريون — وهم أفضل الناس — لم ينجوا من الخطأ بعد التشاور والبحث ، وبعد أن تجمعت لديهم كل عناصر الهدى ؛ فإن بنى إسرائيل لهم العذر إذا ضلوا ، فقد كانوا يحسبون الدعوة المسيحية فتنة لا تلبث أن تقوض أركان دينهم ونظامهم ووطنهم . وكانوا يظنون أن الرجل ساحر وأتباعه مجرمون ، وكانوا يصدرون عن نفوس بشرية وعواطف إنسانية لم يصقلها الإيمان الملتهب صقلا خاصاً كما كان الشأن عند الحواريين . وإذا كان هؤلاء وهؤلاء أخطأوا وضلوا فماذا يستطيع الإنسان أن يعمل إذا أراد أن يتجنب الضلال مادام يصدر فى أعماله عن العقل الإنسانى وحده ؟

لم تبرأ المسيحية حتى يومنا هذا ، ولعلها لن تبرأ من هذا الذى علق بنفوس الحواريين من ندم وحسرة على ما فرطوا فى حق المسيح حين أحجموا عن نصرته . وقضى عليهم

أن يحملوا ذنباً ناؤوا به زمنا بعد ذلك حين تركوا المسيح لأعدائه يظلمونه ويعذبونه ، وخيل إليهم أنهم لم يؤمروا بالانصراف عن نصرة نبيهم إلا لأنهم لا يستحقون الشهادة .

وبذلك أصبحت الخشية من الوقوع فى الخطيئة ، والرعب من الذنوب ، صفة غالبة على الروح المسيحى ، وستظل كذلك أبد الآبدين ، إذ ليس لهم من سبيل إلى التكفير عن ما حدث فى ذلك اليوم .

خروج الحواريين

خرج الحواريون من دارهم مطلع الفجر ، وتفرقوا فى المدينة يبثون بين أتباعهم أن الرأى استقر على أن لا ينصروا نبيهم ، ما دام العنف هو السبيل إلى نصرته ، ويأمرونهم بالسكون والهدوء والإقلاع عن الغضب ، ويحذرونهم أن يعصوا أمر النبى فهو صريح لا يقبل التأويل . وتواعدوا أن يخرجوا إلى قرية من قرى الجليل ،أمروا أن يبقوا بها أياما حتى يأتيهم نبأ تستقر به أمورهم . وكانوا أشد ما يكون الناس بؤساً وغماً ، فقد حطمهم الحزن حتى لم تكد أرجلهم تحملهم . وأحاط بهم اليأس وصاروا فى غمة من أمرهم ، لا يهتدون إلى الطريق التى يسلكون ، وبرح بهم ألم الندم حتى فقدوا قوة التفكير ، وضاقت بهم أنفسهم ضيقاً شديدا . وكانوا يعلمون أن قعودهم عن نصرة السيد لابد أن يكون صوابا فهو أعلم منهم بالصواب . وكان الحكيم الضيف قد وعدهم أن الله رافع السيد إليه وراده إليهم بعد أيام ، ومع كل ذلك لم ينقذهم أمر النبى من غضبهم على أنفسهم ،

ولم يعصمهم وعد الحكيم من مرارة الندم على مافرطوا فى حق دينهم . وخامرهم الشك أن هـذا الوعد إنما ألقى اليهم حتى لا تنفطر قلوبهم أسى وأسفا ، وحملهم اليـأس على أن يظنوا أن الله حرمهم نعمته وسلبهم رحمته لما اقترفوا من آثام، وما قارفوا من خطايا . وأخذ كل منهم يبحث فى أعماق نفسه عن نياته وأعمـاله فى ماضيه وحاضره ، عله يجد سببا لانحسار رحمة الله عنه .

وتوارث المسيحيون هـذا الإحساس العنيـف بالاثم والخطيئة ، ووقر فى قلوبهم أنه لايصيب أحـدا من الناس أذى إلا كان مرجعه الى ذنب اقترفه ، ولو كان هذا الذنب خاطرا غير ذى بال . وظـل هذا الشعور عالقـا بالفلسفة المسيحية ، وصار من أخص صفات المسيحيين المؤمنين خوفهم البالغ من الاثم ، ورعبهم الذى يقعد بالمرء عن كل عمل يمكن أن تشوبه شائبة ، وأى الأعمال يخلو من الشوائب ؟ وللمسيحيون المؤمنون أحرص على تجنب الخطيئة منهم على الإقدام على الخير ، وخوفهم الظلم أشد من حرصهم على العدل ، وخشيتهم من النار أكبر من سعيهم الى الجنة . ثم إن النهى عن المنكر أغلب عليهم من الأمر بالمعروف . وهم فى وعظهم الناس يوصون بالبعد عن الشر أكثر مما يوصون بالإقبال على الخير . وبذلك غلبت السلبية على

أعمالهم فى أشد عصور المسيحية تعبدا وتقوى . تلك صفات طبيعية فى الأديان جميعا ولكنها فى المسيحية أظهر . وثبت فى عقائدهم أن الإنسان منغمس فى الخطيئة حتى يطهر ، وقد يكون منشأ أكثر ذلك ما أكره عليه الحواريون فى ذلك اليوم العصيب .

ولم ينقذ الحواريين من حنقهم على أنفسهم أنهم شركاء فى الخطأ ، وأن ما عملوه رأى استقرت عليه جماعتهم ، ذلك أن الجماعة من الناس يختلف موقفهم إزاء الخير والشر إقداما أو إحجاما .

فالجماعة تقدم على الشر فى يسر بالغ لأن أفرادها يقتسمون وزر الاثم،فلا يشعر أحد منهم أنه آثم حقا . ويعفيه من الندم أن له شركاء ، وأن نصيبه من الذنب ضئيل ، وأنه لو لم يشترك فيه لوقع على كل حال .

والجماعة تقدم على الخير فى صعوبة لأن كل فرد منها يؤثر أن ينسب اليه الفضل .

والجماعة تحجم عن الخير فلا يعفى ذلك أحدا من أفرادها من الندم وتأنيب الضمير ، ويظل كل فرد منها يعد نفسه آثما إذ لم يقم بواجبه وحده ولو كره غيره أن يتعرض للخطر .

لهذا كان الإقدام على الشر أسهل على الجماعة ، والإقدام على الخير أصعب على الجماعة . أما الإحجام عن الخير فهو مجلبة للندم سواء أكان الانسان وحده فى هذا الإحجام أم كان له شركاء .

لذلك كان الحواريون عند خروجهم من أورشليم فى حال جعلت كلا منهم يشعر كأنه يحمل وزر الخطأ الذى وقع فيه اليهود والرومان فى ذلك اليوم كأن كلا منهم كان يرى أنه لو أنقذ السيد لأنقذ الناس جميعا من هذه الخطيئة ، وناء كل منهم بحمل هذا العبء الذى أثقل كاهلهم وأحنى ظهورهم وعذب ضمائرهم . وأصبح همهم الأول التكفير عن ذنوبهم ، وقويت عندهم فكرة التكفير الفردى عن ذنوب الناس كافة ، وهى من أقوى دعائم العقيدة المسيحية . وكان الأمر الذى صدر إليهم سببا فى أن يعتقدوا أن العمل السلبى إن لم يكن فيه رضى النفس البشرية ففيه طاعة الله وتقواه ، والضمان الأكبر للسلامة من المعصية .

وبيناهم يسيرون متثاقلين فى الطريق التى تخرج بهم من أورشليم ، إذ قدم على هذا الطريق ركب رومانى كبير تتقدمه مركبة ضخمة عالية فيها عظيم رومانى ضئيل الجسم قصير القامة ، فيه ضعف يبلغ حد السقم . ووراءه جنود رومانيون

أشداء ، ومن وراء هؤلاء عدد جم من أسرى موثقين بالسلاسل . وكان هذا الركب قد عرج على أورشليم فى طريقه إلى الساحل بعد أن فتحوا فتحا عظيما وأسروا الرجال الأقوياء من أهل البلد المغلوب ، وجاءوا بهم إلى السفن ليعملوا فيها وليبلغوا بها المدينة الخالدة حاملة إليها ما يأكل أهلها وما يشربون ، وما به ينعمون ويتسلون ويتزينون .

وكانت أيدى هؤلاء الأسرى قد تقرحت من أثر السلاسل الثقيلة التى حملوها أياما . وحدث أثناء السير أن اضطربت قدم أحد هؤلاء الأسرى فتعثر إعياء أو ضعفا أو ألما ، فجاءه رجل من الحراس وكان من قبل عبدا مثله — وكان الرومانيون يختاورن من العبيد أقواهم فيعنون بهم عناية شديدة حتى يبلغوا غاية القوة ، فيتخذون منهم حرسا ، ثم يختارون من هؤلاء من يصلح للمصارعة تسلية لغوانى روما وفتياتها ، فيقتل بعضهم بعضاً ، وهم الأقوياء وسادتهم الضعفاء — جاء هذا الحارس فضرب بالسوط هذا العبد المتعثر فنشط للسير قليلا ثم أعياه الجهد فاضطربت قدماه مرة أخرى واضطرب معه نظام السير ، فجاءه الجلاد وأعمل فيه السوط فلم يقو على النشاط وسقط على الأرض . ولما أقامه الحارس لم يقو على الوقوف . هنالك توقف سير

الموكب وغضب القائد وأزعج غضبه من يليه من الرومان ، فذهبوا إلى حيث يرون ما وقف بالجند عن السير . ولما أطلعهم الحارس على هذا الذى حدث غضبوا عليه لأن ركبا على رأسه قائد رومانى عظيم كزعيمهم هذا يجب أن لا يقف لحادث تافه . وحاول الحارس أن يخلص يدى العبد من السلاسل التى تربطه بغيره من العبيد فلم يستطع ، وضجر الضباط فلم يجد الحارس بدا من قطع يدى العبد . وسقط هذا على الأرض فرفسه الحارس خارج الصف ، وسار الموكب بيدين مقطوعتين معلقتين فى السلاسل . وسر الرومان لهذا الحل البديع ، ولحضور ذهن هذا الحارس . وتضاحكوا وهم يرجعون راضين إلى مكان زعيمهم . وسرى عن هذا الحارس بعد أن أفزعه الرعب — على ما فيه من قوة هائلة — خشية أن يغضب عليه هذا القائد السقيم .

صعق الحواريون لهذا الذى رأوه ، واضطربوا اضطراباً شديداً ، وصاح أحدهم من فرط الغضب : « أيها القوم ، إنكم لظالمون » لكن أحداً من الرومان لم يحفل بهذه الكلمة ولا بقائلها ، ولو ألقوا إليه بالا ما فهموا لقوله هذا معنى ، فلم يكن أحد منهم يرى أن العبيد يظلمون بأكثر مما تظلم الخيل حين تحمل الأثقال ، وكانوا لا يرون إلا أن العبيد

خلقوا لهذا ، وأن الناس ليسوا سواء فى جواز العدل بينهم والرحمة بهم . وأقبل الحواريون على هـذا العبد يحاولون أن يضمدوا جراحه ، ولكنه فاضت روحه بين أيديهم وواروه التراب .

وسار الحواريون بعد ذلك وهم أشد تثاقلا وأكثر هما ، وكانوا من قبل لا يحفلون إلا بطهارة نفوسهم وسلامة عقيدتهم . وكان الدين عندهم أمراً نفسياً خالصاً . ولم يكونوا يحسبون أن من الدين أن يعرفوا الشر فى حياة الناس ويحولوا دون وقوعه . فلما رأوا الناس فى ذلك اليوم يحكمون على المسيح بالصلب ، ورأوا هذا العبد المسكين يقتله الأقوياء العابثون من غير ذنب جناه ، هالهم هذا الذى رأوه ، وعلموا أن من الدين أن يتعرضوا لما يكون بين الناس من علاقات . وأن عليهم أن يحولوا دون وقوع الشر . وأن عليهم أن يتعقبوا بحث أسبابه وعلاقة هذا كله بالدين والعقيدة .

وأهمهم هذا الظلم الذى وقع على العبد المسكين وأزعجهم أن يكون الله — وهو مصدر الخير . وهو القادر على كل شيء وهو العادل الرحيم — أن يكون قد أتاح لمثل هذا الشر أن يحدث ثم لا تأخذ الظالمين صيحة تمنعهم أن يقترفوه ! وأجهدوا أنفسهم أن يوائموا بين عدل الله — إذ لا يجوز

لهم أن ينسبوا إليه الظلم — وبين ما يقع فى هذا العالم من شر ، وكانوا فى ذلك فريقين : فريق رأى أن ما وقع لهذا العبد وإخوانه لا بد أن يكون سببه ماهم فيه من كفر وما ارتكبوه من ذنوب ، وأنهم لو آمنوا إيمانا صحيحا ما حل بهم هذا العذاب ، فإن الله أدرى بذنوب الناس لايعلمها إلا هو ، فإذا حل بأحد عذاب وهو برىء فان براءته لا تكون الا لجهلنا بذنوبه ، وأن القول بغير ذلك كفر بالله وزيغ عن التنزيه الواجب له . أو ليس فى ما حدث لهم مايدل على ذلك ؟ أيستطيع أحد منهم أن يفخر بإيمانه إيمانا حقا ؟ وهل منهم من لم يرتكب اثما ؟ ولو كانوا مبرئين من الذنوب ما عذبهم الله بما هم فيه . إن الشر الذى يصيب الإنسان انما هو العقاب المعجل فى هذه الحياة ، أما الذين يكفرون ويظلمون ثم لا يصيبهم من ذلك أذى فانهم انما يؤجل لهم العذاب إلى الآخرة ، الا أن يكون الله قد تاب عليهم لخير عملوه لا نعرفه . واستطاب أكثرهم هذا الرأى لما فيه من ايمان وتواضع واعتراف بالخطيئة .

وفريق لم يستسغ شيئا من هذا ، اذ كانوا يرون رأى العين أن الظلم فى هذه الحياة يقع على الأبرياء والمجرمين على السواء . وكانوا يرون أنه من العبث أن نلتمس للمعذبين

ذنوباً لم يرتكبوها ، وللظالمين توبة لم يعرفوها . ثم ننسب ذلك كله إلى الله ، فإن الذين يفعلون ذلك إنما يشككون الناس فى الله وفى الدين . ولم يقبلوا أن يكون قصاص الله من الناس فى هذه الحياة مقصوراً على الضعفاء وأن يكون قصاصه من الأغنياء والأقوياء مؤجلا دائماً إلى اليوم الآخر . ولم يكونوا وحدهم حائرين فى هذا الأمر بل إن الناس ما زالو فى حيرة حين يعرض لهم أمر الشر وعدل الله ، والتوفيق بين هذا وذاك .

ولم يجد حتى الحواريون حلا لما أشكل على المؤمنين منذ القدم ، وودوا لو وجدوا حلا لا يحتاج إلى تأويل شديد ، ثم احتموا بالإيمان المطلق ، وبعظم علم الله ، وعظم جهل الإنسان ودعوا ، الله أن يقيض لهم من يدلهم على رأى يجمع بين عدل الله ووجود الشر ، وكيف يكون الخير كله من الله والشر كله من أنفسنا .

والواقع أن هذا الذى أشكل على الناس فهمه فى كل عصر وفى كل مكان ليس بالأمر الذى يستحيل شرحه ، لولا ما فى الناس من غرور ، وما فى فهمهم لسنن الله فى خلقه من قصور . وأصل الخطأ أننا نظن أننا خلقنا أولا ثم خلق العالم كله بعدنا ومن أجلنا . وكأن قوانين حياتنا وجدت أولا ثم

ركبت عليها قوانين الحيوان والنبات والجماد والنجوم لتتفق وقوانين الإنسان . وقد علموا من الكتب المنزلة أن الإنسان آخر ما خلق الله ، وهم يعلمون أن العالم يستطيع أن يقوم ويسير سيره الطبيعي ، خلق الإنسان أم لم يخلق . الواقع أن الإنسان حيوان خلقه الله من تراب ثم نفخ فيه ما جعله إنسانا ، ولم يكن هذا الذى نفخ فيه إلا الضمير ، وهو من الله ، وهو الذى يميزنا من الحيوان ، وهو من طبيعة خلقنا ، لا يكون الإنسان إنسانا بدونه . أما العقل والذكاء والنطق والمهارة فهى صفات كان يستطيعها الحيوان لو أنه بلغ درجة كافية من الرقى دون أن يصبح بذلك إنسانا . ومن الناس من يدعى أن الضمير اختراع إنسانى ، وأنه ليس طبيعيا فينا لأن الحيوان لا يعرفه ، كأنهم يرون أن ما لم يكن من طبع الحيوان فهو اصطلاح اصطلح عليه الناس . وهذا قول أحمق ، لأن الضمير من طبع الإنسان كما تكون الحركة من طبع الحيوان ، وليس للنبات أن يقول إن الحركة أو الخوف ليست طبيعية فى الحيوان ، لأن النبات لا يعرفها . إن الإنسان لا يكون إنساناً بغير الضمير ، وهو الذى يضع لنا قوانيننا التى لا يعرفها الحيوان .

والذى يصيب الإنسان من الشر نوعان ، نوع يأتيه

من حيث هو حيوان ، كالمرض ومايصيبه من تعرضه لأحـــداث الطبيعة ، وهو فى هذا لايختلف عن غيره فى شيء ، وليس مايصيبنا من أذى بأكثر دلالة على الظلم من المرض يصيب الزهرة ، أو الداء يصيب الحيوان ، أو الصاعقة تصيب الشجرة ، أو الحجر يقع على حمامة وادعة . وليس هذا ظلماً ينسب إلى الله ، فإن الله لم يجعل سننه الطبيعية متعلقة بما ينفع الإنسان وحده ، فهى أعم من ذلك وليس لهـا أن تتغير إذا حـدث أن أصيب من جرائها من لا يستحق عقاباً .

والنوع الآخر من الشر يصيب الإنسان من عمل غيره من البشر ، وهذا تركه الله لنا وجعلنا عنه مسؤلين ، ولم يجعل الضمير جداراً عالياً يمنع الإنسان أن يتخطى حدوده ، ولم يجعله ناراً تحيط بنا فتحرق من يحاول أن يخرج وراءها ، بل جعله هادياً . ووعظنا أن نتبعه ، ولـكنه لم يعلق على تخطى حدوده عقاباً محتوماً ، ولا يمنع ذلك أنه من طبعنا . فالأخلاق والدين والضمير منا بمنزلة الماء من السمـــك لا بد لنا منه . ونحن نستطيع الخروج على الضمير كما تستطيع السمكة أن تخرج على حد الماء ويصيبنا من جـراء ذلك ما يصيبها . والذين يظنون أن كل ذلك ليس من طبعنا وأنه من عمـل

قوم منا همهم التضييق على حريتنا ، يخطئون فهم الـكون خطأ فاحشاً ، كما يخطىء الحيوان البرى إذا ظن أن بقاء السمك فى الماء خنق لحريته ونقص فى عقله لا أصل له من طبيعته .

ولن يحدث أبدا أن يقع حجر رأساً على الأرض ثم ينحرف عن طريقه لئلا يقع على رأس متعبد مؤمن أو طفل برىء ، لأن مثل هذا الانحراف عن سنن الطبيعة يقضى على نظام العالم كله كما نعرفه . ولن يحدث أبدا أن يمتنع السيف فى يد العملاق الظالم عن قطع يد المظلوم لبراءته ، ولن يحدث أن يمحق الله عمل عالم يقظ لظلمه ، أو أن يربى عمل جاهل مكسال لبراءته . كل ذلك لا يتعلق بقدرة الله وعدله ، فإنه ليس بين هذه الأمور وبين عدل الله سبب . ولو ساد رأى الناس فى عدل الله فى هذه الأمور ما بقى على الأرض من قانون طبيعى يسير عليه نظام السماء أو الأرض .

أما ما يصيب الناس من شر يجلبه بعضهم على بعض ، فالمؤمنون يودون لو أن عقاب الشر يكون عاجلا ويكون حتما حتى يؤمن الناس بالله وبالضمير . وهذا أيضاً جهل بسنة الله فى الـكون كما نعرفه . ذلك أن النتيجة لا تتبع مقدماتها فورا وعلى طريق الحتم إلا فى القوانين الطبيعية التى

يخضع لها الجماد ، كانحدار الماء إلى الغور من الأرض . أما الكائنات الحية فهى أعقد من أن تظهر فيها نتائج المقدمات لساعتها . والحياة فيها مرونة وقدرة على التحول ، وفيها تعقيد فى قوانينها يجعل بين السبب والمسبب فرجة من الوقت ، وقدرة على تجنب كثير من النتائج ، فلا تكون الحتمية واضحة . وتزداد هذه الفرجة ما ارتفع الكائن الحى فى حيويته ، والفرجة فى الحيوان أكثر منها فى النبات ، وهى فى الإنسان من حيث هو إنسان واسعة جدا . كل ذلك يجعل الربط بين الخير وجزائه والشر وعقابه بعيدا ، ولم يكن لسنة الكون أن تجعله قريباً ، وأن تجعله حتما ، لأن تعقد قوانين الحياة – وهو سر كونها حياة — لا يجعلها مطابقة فى هذا الشأن لقوانين الجماد . وهــــذه الفرجة بين السبب والمسبب فى الحياة الإنسانية للإنسان قد تجعل من الصعب أن تتبين الجزاء فى عمل الفرد ، ولكن البحث فى أمور الإنسانية كلها لا يدع مجالا للشك فى أن الذين يتبعون الضمير يفشو فيهم الخير ، والذين يتعدون حدوده يفشو فيهم الشر .

لهذا يجب أن لا يكون فى وجود الشر والظلم فى العالم ما يقلق المؤمنين ، وليس فى ذلك ما يدعو إلى الشك فى وجود الله كما يظن الكافرون . ولا ما يدعو إلى الشك فى قدرة الله أو عدله وحكمته كما يخشى المؤمنون .

وبلغ الحواريون مأمنهم وفرغوا للعبادة والصلاة والدعاء . وما كان دعاؤهم إلا توسلا لله أن لا يتركهم يضلون ، فهم من الضلالة قاب قوسين - وأخذوا يضرعون إلى الله .

اللهم إنك أنعمت على الناس فوهبتهم الضمير وهو روح منك، وجعلت أمره أمرك ونهيه نهيك ، فمن أطاعه فقد أطاعك ، ومن عصاه فقد عصاك . وتركت أمر اتباعه لنا ، فاجعل أعمالنا فى حدود هذا الضمير . اللهم لا تجمع علينا من أمور الدنيا ما يحملنا على تعدى حدود الضمير . اللهم ألهم الناس أن لا يهتدوا بغيره ، وأوزعهم أن لا يتغاضوا عنه لأمر مهما يكن جللا ، وأن لا يقيموا أوثانا يعبدونها من دونه يحسبونها خيرا ، فإنه لا خير وراء الضمير . اللهم واهد الذين يتولون أمور الناس أن لا يضعوا نظما تضطرهم إلى تعدى حدود الضمير ، وأن لا يوقعوا بغيرهم أذى عاجلا محققا فى سبيل ما يحسبونه خيرا آجلا ينفع الجماعة . فإن هذا أصل بلاء الناس ومصدر الشر فيهم . اللهم إنك لم تجعل للضمير قوة مادية تحمل الناس على اتباعه مرغمين ، فاجعل فيهم من القوة الروحية ما يجعلهم يتبعونه مختارين راضين . إن هذا يمحو الظلم ، ومحو الظلم والشر يقوى إيمان الناس ويهديهم سواء السبيل . اللهم فاهد عبادك إنهم يكادون يضلون ضلالا لا رجعة فيه . إنك أنت السميع المجيب .

عِنْدَ الرُّومَانِ

قائد حازم

كان الجيش الرومانى فى أورشليم من أكبر جيوش القيصر وأشدها بأسا ، وكان على إمرته قائد من خيرة رجال روما شجاعة وحزما . وكان له رأى معروف فى ما يجب أن يكون عليه الجندى الرومانى . وكان لا يرى شيئاً فى الحياة أعز عليه من مجد روما وعزة أهلها .

وكان يرى أن العظمة التى بلغها الرومان لم يكن أصلها قوة خاصة فى أجسامهم أو قدرة خارقة فى قواد جيوشهم ، بل كان مرجعها إلى ما جبلوا عليه وتعودوه من تقديس للنظام ، فكان عليه حريصاً أشد الحرص . وحمله ذلك على الإسراف فكان يتلمس أخطاء من هم تحت إمرته كبيرهم وصغيرهم ، ويتتبع زلاتهم فينزل بهم أشد العقاب . ولم يكن ذلك لقسوة فى طبعه ، ولكنه كان يرى أن قسوة النظام أحفظ للجيش وأدعى لنصرته ، وأحقن للدماء فى آخر الأمر ، ولو ظلم فى سبيل ذلك عدد قليل . وكان يرى أن التهاون يؤدى إلى الهزيمة فيقتل من الجنود عدد يزيد على

من يمكن أن يعذبهم النظام . وكان يعلم أن الجنود لا يحبونه ، ولكنه كان يعتقد أنه يؤدى واجبه كاملا ، وكان بذلك راضياً .

خطر له ذات يوم أن النظام بين جنوده لم يعد قوياً كما يريد أن يكون ، ورأى أن شيئاً من الفوضى أخذ يدب فى صفوف الشباب من جنوده ، فنهم نفر هموا أن يعصوا أمر كبارهم ، وأن يجادلوهم فى صواب ما يؤمرون به ، ومنهم من كانوا غضاباً لأنهم لم يعودوا يستمتعون بألوان اللذات التى كانوا يؤملون أن ينعموا بها والتى لم يحترفوا الجندية إلا من أجلها . وهاله هذا الذى سمع ، وعزم أن يضرب لجنوده مثلا لا ينسونه أبداً ، مثلا يردهم إلى الصواب فلا يجرؤون بعده أن يناقشوه ما يعمل لخير روما ومجدها . وخيل إليه أن حياة الامبراطورية كلها معرضة للخطر إذا لانت شوكته أو ظهر فى أعماله ضعف أو رحمة . ومثل هذا الرأى إذا تملك قائداً أو حاكما أو قاضياً ضاع صوابه وفقد اتزانه وأصبحت أعماله كلها مسرفة .

جاؤوه بشاب يافع من أصغر جنوده سناً ، كان كل ذنبه أنه بقى خارج المعسكر بعد موعد العودة ليلا ، فلما سأله رئيسه عن سبب ذلك أعرض عنه وهز كتفيه ، فلما انتهره

وأعاد عليه السؤال فى غضب وشدة رد عليه هذا الجندى ردا مقذعا ، وكان ثملا . والجيوش تعد كل ذلك خروجاً على النظام لا تستطيع أن تتهاون فيه . وعزم القائد على محاكمته فى الصباح التالى وجمع أعوانه وبعض الجند ليشهدوا المحاكمة . وكان الأمر واضحاً فقد اعترف الجندى بما اقترف ولم يكن له دفاع إلا أنه كان ثملا. وسكت الحاضرون انتظاراً لحكم القائد عليه ، وكان هذا الحكم أن يجلد الجندى خمسين جلدة أمام إخوانه ، ودهش الحاضرون لقسوة الحكم وامتقع لون الجندى المتهم ، ولم يكن فى الحاضرين من لم يتعض لهذا الحكم . وهمس الجنود همساً خفيفاً دل القائد على أنهم غير راضين ، فزاده ذلك إصراراً ، وعزم أن لا يجعل لغضبهم أثراً فى تخفيف حكمه الصارم على من يخالف النظام . ولم يرض عن الحكم إلا الجلاد الذى نيط به أن يجلد الجندى ، فقد أشرق وجهه وتهلل .

ومد الجندى وربط بحبل ، ونزلت عليه الضربة الأولى ، وسال الدم تحتها وصرخ صرخة اضطرب لها القائد نفسه ، ولكنه لم يفكر فى العدول عن هذا الحكم فإن تاريخ الجندية ، وتاريخ روما ، وتاريخه هو ، معلق على ثباته فى هذا الموقف ونسيانه كل عاطفة إنسانية .

واستمر الضرب حتى خفت صوت الجنـدى المضروب ، وحسب الناس أنه قـد مات ، والجلاد يقوم عليه لا ينقصه واحدة ولا يخطىء العد حتى أتمها خمسين جلدة ، ثم حمله رفاقه إلى حجرة دافئة وحملوا إليه نبيذا وشرابا ساخناً وتعهدوه وهو فى حال بين الحياة والموت .

وأقبل عليهم الجلاد غير آسف ولا نادم على ما فعل ، وتلقوه غاضبين ساخطين ، وقالوا له : كنت تستطيع أن تـكون أقل قسوة وعنفاً ، إنك كنت أقسى من القائد نفسه ، فقد كان على وجهه من مظنة الرأفة ما لم يـكن على وجهك ، وماذا كنت فاعلا لو مات بين يديك ؟! إذا لقطعناك إربا إربا .

— كنت أظن أول الأمر أن الضرب سيقتل منهم كثيرين ، ثم امتدت بى الخـبرة وضربت المئات فلم يمت منهم أحد .

— وهل أمنت أن يقتلك أحدهم بعد ذلك ؟

— إنهم خير أصدقائى ، وأنا أحب الناس إليهم ، ذلك أنهم جميعاً يبلغون غاية المجد بعـد هـذا الجلد ، فهو الذى يجعلهم أبطالا ، أليس من أكبر صفات البطل الفاتح أن يكون قادراً على ظلم الناس ظلماً لا سبب له ، وأن يفتـك بهم عن

غل وحقد وهو لا يعرفهم ولا يعرفونه ، وليس بينهم وبينه عداوة ؟ وليس شيء أدعى إلى تقوية هذا الشعور من أن يظلم الناس فى أول حياتهم ظلما شديدا لا مسوغ له . وأكثر أبطال الجنود الرومان فى ظهورهم أثر الجلد . والمظلومون لا يمقتون الظلم ولا يحنقون على الظالمين ، بل يشعرون بالرغبة فى ظلم غيرهم وإيقاع الأذى بالأبرياء انتقاماً لما حدث لهم من قبل . هذه خير صفات الجندى الفاتح ، أو على الأقل هذا ما أعلمه عن الجنود الرومان ، كأنهم حين يقع عليهم الظلم يستبدلون طبيعة الحيوان المفترس بطبيعة الإنسان العاقل ، وهذه خير مرانة على البطولة كما يفهمها القواد الفاتحون . وسترون أن ضحية الظلم هذا سيكون عما قريب مضرب الأمثال فى الشجاعة والعظمة .

الخائن

سارت الأمور فى المعسكر الرومانى على هذا النحو زمناً ، وأصاب القائد الحازم من النجاح ما أثلج صدره وأرضى أولياء الأمر فى روما . وأخذ القائد يمنى نفسه أنه قد يبلغ الصدارة فى المدينة العتيقة جزاء على ما بذل من جهد وما أبدى من قوة وصرامة . ثم أنمى إليه أن فى جنده عصبة من الشباب لا يخالفون النظام ولكنهم يهزءون به وأنهم يتبعونه مكرهين ، وأنهم يجترئون على مجد روما ويتحدثون عنه فى كثير من السخرية ، وأنهم يبثون الدعوة إلى السلام ، وأنهم يقولون إن الجندى يجب عليه أن يفهم ما يؤمر به وأن يناقش فيه وأن لا يطيع إلا مايعتقده صواباً . فأحفظه ذلك عليهم وحنق حنقاً شديداً ، وخيل إليه أن فى ذلك قضاء على روح العسكرية الطامحة ، وأن آراء من هذا الطراز لا تلبث أن تؤدى إلى الهزيمة ، وأن ذلك قد يفوت عليه مكان القنصل فى روما . وعزم أن يجعل لكل ذلك حداً .

رأى أن كثيراً من هذا الفساد يرجع إلى بعد عهد جنده

بالقتال وإخلادهم إلى الدعة والراحة ، وأن خير ما يعمله إذا أراد أن تعود إليهم حميتهم أن يرمى بهم فى حرب مأمونة العاقبة مكفول لهم فيها النصر . فأعلن فى الجيش أنهم سائرون إلى إحدى المدن المتاخمة لفتحها ، والتمس لذلك عذراً تافهاً ، أن أحداً من أهلها سب القيصر فى سوق المدينة ، وأنه لابد من تأديبهم حتى لا يقع منهم شىء من ذلك مستقبلا . ولم يصدق أحد أن ذلك يكون سبباً حقاً لإعلان حرب ، ولكنهم فرحوا بها ، وقليل منهم من فرح بها لأنه يرى فيها فرصة يظهر فيها الفضائل التى ما فتىء الرؤساء يحدثونهم عنها أما أكثرهم فكان اغتباطهم لما يرجونه من الغنائم والنساء عند فتح المدينة ونهبها ، فهم يعلمون أن المدينة المفتوحة تظل نهباً لهم أياماً معدودات ثم تصبح آمنة فيحاسبون على ما يرتكبون . وفرح كبار الضباط لما كانوا يعلمون من أن طول عهد الجنود بالسلم يفسد خصالهم ، ويهيىء لهم من أسباب الضجر والسأم ما قد يدعو إلى انتقاضهم عليهم ، ولما كانوا يرجون من مجد حين يتم لهم النصر .

أعد القائد جيشه خير إعداد ، ونادى فى الجند أن ساعة المجد قد حانت وأن عليهم أن يسيروا يومهم هذا إلى تلك القرية الجاهلة ليقتصوا من أهلها وليعلموهم كيف يوقرون روما الخالدة ويجلونها .

ووقف فيهم خطيباً ، فألقى عليهم كلمة قال مثلها قبله وبعده كل من دعا الناس إلى حرب أو حملهم على عدوان ، وكلهم يحسب نفسه مبتكراً لها مبدعاً فيها .

— إن روما تنتظر من كل رجل من أبنائها أن يقوم بواجبه ، ولا شك أنكم قائمون بهذا الواجب نحو وطنكم الذى أظلتكم سماؤه وحملتكم أرضه ، ذلك الوطن الذى تغذينا بناتج أرضه وارتوينا بماء أنهاره . إن علينا أن نحميه من كل من يجترىء عليه بالقول أو العمل ، فإننا بذلك نحمى آباءنا وأمهاتنا ونساءنا وأبناءنا ، نحميهم ونجعلهم كراماً على أنفسهم أعزة على الناس ، سيقتل منكم فى الميدان عدد وسيبكيهم أهلهم ، ولكن ميدان الشرف هو ميدان الخلود. وإذا كانت الأمهات لا تفهم ذلك فإنهن نساء أنتم رجال تضعون المجد فوق الحياة . ألا إن الجبن مسبة للرجال تلصق بهم فتعرضهم لاحتقار الناس جميعاً ، والحرب تخلق فضائل الشجاعة والتضحية والولاء والأخوة بين الجنود ، أما الدعة والسلم فيذهبان بالرجولية ، والرجل لا يكون رجلا حتى يرمى بنفسه فى حومة الوغى ، فإن مات فتلك غاية الفضيلة ، وإن عاش فهو البطل المغوار . وستحيا أمتكم بموتكم وسيتقرر مصيرها عدة قرون بما تعملون اليوم فى ميدان

القتال . فلا تنكصوا على أعقابكم ، ولا تجلبوا عليكم وعلى أمتكم عار الهزيمة . إننا نموت ليعيش أبناؤنا سعداء ولتصبح روما سيدة العالم ، فاضربوا أهل المدينة الغاشمة ضربة لا يستطيع بعدها أحفادهم أن ينظروا إلى أحد من أهل روما دون أن ترتعد فرائصهم .

واندفع فى حماسة يتكلم عن المجد والتضحية والرجولية والشجاعة ، وظن كما يظن كل من وقف موقفه أن قوله هذا سيكون الدافع الأكبر للجنود على القتال ، وأن كلماته ستعمل فيهم عمل السحر فتحملهم على أن يستميتوا فى الجهاد ، وأن جنده سيحفظون خطبته عن ظهر قلب ، وأنهم سيذكرونها حين تنهل الرماح من دمهم ، وأنهم عند ذكرهم إياها سيرتخصون الموت ، وأنه لولاها ما حمل أحد منهم سيفاً لقتال ولا تعرض أحد منهم للموت .

لكن الواقع أن الجند ضجروا من هذا الكلام وسئموه ، وبدا ذلك السأم فيهم فأخذوا يتهامسون ، ثم زاد هرجهم كأنهم يهمون بالسير ، وهو يحسب ذلك من فرط الحماسة التى أذكتها فى قلوبهم خطبته البليغة ، فصرفهم وهو مؤمن أن النصر سيكون حليفه وأن مستقبله سيكون باهراً حين تعلم روما بهذه الحرب الخاطفة وانتصاره فيها .

أما العصبة الثائرة وكان عددهم قليلا جدا فقد ساروا جنبا إلى جنب يسخرون من هذا الذى قيل لهم ، ولم يكونوا ناقمين على القائد ولا كارهين له ، بل كانوا يضحكون ويمرحون وهم يتبادلون الحديث .

— منطق معكوس هذا الذى يحبذ به الحرب . إننا لا نموت فيها ليعيش أبناؤنا سعداء ، إنما يرمى هو وأمثاله بنا نحن أبناءهم ليستمتعوا هم بالحياة الرغدة ولذاتها بعد أن يواروننا التراب ، ولا يكلفهم ذلك إلا قليلا من الدموع يسكبونها أياما قليلة عند ذكرهم من مات منا .

وقال آخر :

— وأعجب من ذلك قوله إن الحرب تخلق فى المحاربين الفضائل كلها . ألم يسأل نفسه فى من تخلق هذه الفضائل ؟ أفى الذين يموتون ؟ وأتراه سأل أحد الذين ماتوا فى الحرب هل حقا تكونت فيه أخلاق الأبطال ؟ أم تتكون هذه الفضائل فى الذين لا يموتون ؟ أليس معنى ذلك أننا نقتل أشجع الناس لنخلق الشجاعة فى من تنقصهم هذه الفضيلة ؟ إنما تخلق الحرب شجاعة زائفة فيه وفى أمثاله ممن هم أبعد الناس عن التعرض لأخطارها ، فهم يشجعون ولكن بدمائنا ، ويضحون ولكن بحياتنا ، ويقال عنهم إن فيهم شجاعة

وتضحية . ولا يضحكنى شىء مثل الإعجاب بشجاعة الرجل يأمر جنوده أن يقاتلوا حتى يموت آخر رجل منهم ، وهو أمر لا يحتاج من الشجاعة إلا إلى القدر الذى يتبلد فيه إحساس القائد حتى تبلغ قسوته أقصاها فلا يرحم أحدا من رجاله ، وأكثر هؤلاء ينجون فى آخر الأمر ، وهم حين يؤسرون يكرمهم زملاؤهم الفاتحون على حين لا يكرم أحد من الجنود القتلى . إن فى الجنود فضائل سامية ولكنها لا ترجع إلى الجندية . كما يكون فى الفلاحين صفات فنية ولا يكون ذلك راجعا إلى فلاحة الأرض .

وقال آخر :

— وإذا كان يرى أن قتل المئات منا ضرورى لمجد روما، فلم لا يكون هو أول من يموت ؟ أيقبل أن نتركه للأعداء يرشقونه بسهامهم فيموت وحده قبل أن يموت منا المئات ؟ إننا نقسم مؤكدين له أنه لو فعل لقاتلنا قتال الأسود من بعده ، ولو أن الذى يعلن حربا على قوم آمنين يكون على يقين أنه سيموت لساعته من جراء هذه الحرب ما أعلن أحد حربا أبدا . ثم إن الحروب تقوم أثر خطأ يرتكبه رجال الحكم . وليس من العدل أن يموت الأبرياء والعلماء وأصحاب الرأى الراجح وكل ذى كفاية فى شتى نواحي الحياة فى

الأمة لخطأ يرتكبه زعيم سياسى ، ثم لايصيب هذا الزعيم شر من جراء خطئه . إن الذى يسوق قومه إلى الحرب مقامر حقير يقذف بالناس إلى الموت وهو عالم أنهم إن انتصروا فالغنم له ، وإن خذلوا فهو بمنجاة من كل عقاب . لتقم الحروب إذا شئتم ولكنها يجب أن تبدأ بقتل من يدعون إليها .

— ويدهشنى قول الذين يرون أن الحرب تخلق الفضائل فى الجماعة . وهو قول لا يستقيم عقلا . إن الجماعة فى هذا الشأن فكرة تصورية لا حقيقة واقعة،فالفضائل لا تكون إلافىالأفراد. والحروب تقتل أكثر الأفراد شجاعة وتضحية وتترك غيرهم ينعمون بالحياة دونهم .

— ويقولون إن الأمم لابد لحياتها من المجد الذى تحرزه من جراء النصر ، أكذوبة جوفاء . وخرافة المجد هذه يجب أن يقضى عليها تاما . وإذا كان فى النصر مجد فلابد أن يكون فى الهزيمة خزى . وأى الأمم دام لها النصر والمجد ؟ وإذا كانت الأيام دولا ، وكانت الأمم معرضة للنصر حينا وللهزيمة أحيانا . فماذا يفيدها أن تحرز المجد يوما وتتعرض للخزى أياما؟

إلا إنه ليس فى النصر مجد ، ولا فى الهزيمة خزى . إنما هى تخرصات اخترعها ذوو الأغراض ، وشجع على بقائها ضعاف العقول .

ثم إن هذا المجد إنما يتشدق به الأحياء الذين لم يكن لهم أثر فيه ، أما الموتى الذين أقاموه بدمائهم فلا ينالهم منه شىء . قسمة ضيزى بين الأحياء والشهداء .

وقال آخر :

— إن نظرية الحروب تقوم على أن رجلا أو بضعة رجال أعز على الأمة من آلاف الجنود ، وقد كان يجوز أن يقبل ذلك حين كان الجنود نكرات لا قيمة لهم ، أما الآن وقد أصبح الجنود قوما يفقهون فماذا يمنعهم أن يناقشوا فى أمر الحروب ؟ وكيف يقبلون أن يموتوا من أجل رأى رآه رجل لم يعد أعظم منهم إلى حد أن يسوقهم إلى الموت وهم وصاغرون ؟ إن الجندى المثقف يجب أن لا يكون لقائده عليه هذا السلطان ، ويجب أن يكون له الحق إذا أمره قائده أن يتقدم ، أن يقول له : لماذا أتقدم ؟ عند ذلك تنهار أكذوبة الحرب انهيارا تاما .

— كل هذا صحيح إذا كانت الحرب حربا عدوانية كالتى نسير إليها اليوم . أما الحرب فى سبيل الدفاع عن النفس فواجب لا شك فيه . وقد يكون الهجوم خير وسيلة للدفاع .

— هذا ما يقوله كل معتد ، وحد الاعتداء عندى أن يوجد الجندى خارج حدود بلاده ، فمن وجد خارج حدود بلاده فهو المعتدى مهما يكن سبب هذا الخروج .

— أن أولى الأمر والقواد يعلمون أن عليهم أن يخدعوا قومهم فيصوروا لهم الاعتداء دفاعا ، وهى خدعة طال عليها الأمد ولا يجوز أن يخدع بها أحد بعد اليوم . ومما يخدعون به الجند دعواهم أن للحرب قوانين تخفف من ويلاتها وتذهب بأكثر فظائعها . وعندى أن الحرب يجب أن لا يكون لها إلا قانون واحد ؛ هو أن كل من خرج من بلاده ليحارب قوما آمنين فى ديارهم فهو المعتدى ، ويحل لهؤلاء أن لا يرعوا فيه قانونا ولا عهدا ،وأن لا تأخذهم فيه رأفة ولا رحمة . وليس له أن يطلب إليهم ذلك ما دام قد خرج من بلاده ليقتلهم ويؤذيهم .

— لو أن الأمم كلها أخذت بهذه الآراء لكان فى ذلك القضاء على الحروب وأهوالها ، ولكن من الخطر أن تأخذ بها أمة واحدة فتكون هى وحدها ضحية هذه الآراء .

— لمثل هذه المبادىء قوة تؤدى إلى ذيوعها فلا تلبث أن تعم جميع الأمم إذا أخذت بها أمة واحدة .

بهذا كان يتحدث الجندى المسيحى ورفاقه . أما الجند الآخرون فكانوا فرحين بهذه الحرب الجديدة ، وكانوا يمنون النفس بالانتصار والنهب والغنائم والأسرى .

وبلغ الجيش أسوار المدينة وأحاط بها ، وأخذ الجنود

الرومان يحاولون أن يتسلقوا أسوارها فوقع منهم من وقع ومات منهم خلق كثير ، فارتدوا عنها أياما ، ثم عاودوا الكرة فباءوا بالخيبة ، ووقع لهم ذلك مرارا فعلموا أنها لن تؤخذ عنوة وأنه لا بد من حصارها حتى تنفد مؤونة أهلها فيذعنوا.

وأرسلوا جنودا يستطلعون الأسوار حتى لا تكون فيها ثغرة يدخل منها المدد إلى المدينة من حيث لا يعلمون . ولما اطمأنوا إلى ذلك أخذوا يعدون عدتهم لحصار طويل الأمد . وقام منهم عسس يسير كل ليلة حول الأسوار حتى لا يبغتهم العدو وهم غافلون .

وكان وراء المدينة جبل يحميها من جهة واحدة ، وكانت فيه ثغرة تصل إلى داخل المدينة ، وكان أهلها يسدونها بالحجارة فلا يستطيع العدو أن يتبينها إلا أن يدلهم عليها دليل . وكان المدد يأتيهم عن طريق هذه الثغرة ، وكانوا يعلمون أن لا صبر لهم على حصار طويل مالم يأتهم المدد الكثير ، كما كانوا يعلمون أن هذه الثغرة طريقهم الوحيد ، فحرصوا أشد الحرص أن لا يطلع عليها أحد من أعدائهم ، وكانوا يبثون جنودهم ليلة المدد حتى لا يقربها أحد من عسس الرومان .

وحدث ذات ليلة أن أقبلت عير تحمل ميرة كثيرة وأنا خت بجانب تلك الثغرة ، وأخذ أهل المدينة ينقلون ما حملته

إليهم وهم آمنون ، إذ كانوا قد عهدوا إلى بعض جندهم أن يحولوا بين الجنود الرومان وبين هذه الثغرة لا يقربونها . ثم حدث أن كان العسس الرومان فى تلك الليلة ثلاثة ، أحدهم ذلك الجندى المسيحى ، وكانوا يسيرون حول الأسوار على عادتهم كل ليلة ولم يعترض سيرهم أحد ، ثم مالبثوا أن شاهدوا العير أمام الثغرة وعلموا أن المدد يأتى المدينة من هذا المكان . وقفلوا راجعين مسرعين ليخبروا جيشهم بما رأوا ، وأبصرهم عسس العدو فجروا وراءهم وأدركوهم ، وكان حتما أن ينشب بينهم قتال عنيف ، فقد كان المدافعون يعلمون أن الجيش الرومانى إذا علم بأمر هذه الثغرة فلابد من أن تسقط مدينتهم بعد حصار قصير ، واستماتوا فى الحيلولة بين هؤلاء الجنود وبين الجيش الرومانى ، وقتل اثنان من الرومان واثنان من المدافعين ، وجرح أحد المدافعين جرحا بالغاً ، ولم يصب الجندى المسيحى بسوء . ولو أنه سارع إلى اللحاق بجيشه وأخبرهم خبر هذه الطريق الخفية إلى المدينة لأصبح من أبطال روما ، ولتم لقومه النصر ، ولكان له فى ذلك مجد كبير .

لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل وقف على رأس هذا الجريح ، وكان الناس يعلمون أن الرومان لا تأخذهم بالعدو

رأفة ولا رحمة ، ولم يشك هذا الجريح أن عدوه سيذبحه ذبحاً ، فلما رآه يحنو عليه يسأله عما أصابه اطمأن إليه وقال له :

— ماذا تريد أن تفعل بى ؟ أتراك عزمت أن تحز رأسى فتحمله إلى قومك دليلا على شجاعتك ؟

— لم يخطر لى ذلك ببال ، بل إنى أود لو علمت ما تريد ، فقد أستطيع أن أخفف عنك بعض ما بك .

— كل ما أرجوه أن تتركنى وشأنى فإن ورائى أما وزوجة وبنات ، هن فى حاجة إلى لأعولهن .

— ولكنك ميت لا محالة إذا بقيت فى هذا المكان ولن تستطيع اللحاق برفاقك ، فقد كسرت ساقك وسينزف الدم من جرحك حتى يقضى عليك .

— وما حيلتى فى ذلك ؟

— سأحملك إلى قومك يتولون أمرك ، فهم قريبون ، ولا أستطيع أن أحملك إلى جيشى فهو بعيد .

— هذا كرم لم نسمع بمثله من قبل ، أيمكن أن يكون فى جنود الرومان هذه المروءة وقد ذاع أمر قسوتهم البالغة على الأعداء ؟

— إن كنت تعده كرما ومروءة فذلك شأنك . أما الذى أعلمه فهو أنى فاعل ذلك بك .

— ألا تخشى أن يصيبك قومى بسوء ؟ فإن عودتك إلى قومك تؤدى من غير شك إلى فتح المدينة وقتل رجالها وسبى نسائها . وقد لا يسمح لك قومى بالعودة ، وأنت الآن حر طليق ، فماذا يدفعك أن تتعرض للأسر بمحض إرادتك ؟

— إن يفعلوا بى ذلك جزاء على ما سأفعله من أجلك فلن يكون ذلك خطأ منى .

وحمل الجريح إلى قومه وأنبأهم نبأه وأعانهم على العناية به . وعجب أهل المدينة إذا رأوا جنديا رومانيا يحمل إليهم جريحا منهم ، وأخذوا يتداولون بينهم ما يفعلون بهذا الجندى العجيب .

قال قائل منهم :

إننا لا نستطيع أن ندعه يعود إلى جيشه بعد أن اطلع على ما علم من أمرنا ، تلك حيلة بارعة استطاع بها أن يعرف عنا كل ما يهمه ويهم جيشه أن يعرفه ، فإن خدعكم بهذا المعروف وتركتموه يعود إلى قومه ، فسيعود إليكم على رأس

جيش فاتح ، يعمل فيكم السيف كما يشاء جزاء على ما فرطتم فى شأنه ، وليس عجيبا أن يخدعكم جندى رومانى هذه الخدعة فى سبيل بلوغه مراتب الأبطال الفاتحين .

وقال آخر :

— ما كان أغناه عن حمل جريحنا إلينا لو أنه أراد التجسس لقومه ، فقد كان يعلم كل ما يريد أن يعلم حين اختار أن أن يأتى إلينا بجريحنا ، وإن من أكبر الجرائم أن نجزى الإحسان الواضح بغير الإحسان .

ولما عزموا أن يتركوه وشأنه جاءوا به وقالوا له إننا سنتركك وشأنك ، تذهب إلى قومك ، ونحن نعلم أنك تستطيع أن تعين جيشك على فتح المدينة ، وأن عوامل الطمع أو الخوف قد تدفعك إلى ذلك ، على أنك إن تفعل تكن جزيت إحساننا إليك بسوء ، ونحن لا نريد أن نجزى إحسانك إلينا بسوء .

ولما تركهم أحس أنه سعيد بما فعل ، فإن أول تجربة له فى عمل الخير لوجه الله آتته خيرا كثيرا ، واطمأن قلبه إلى الإيمان بما كان يسمعه ويعيه حين أقام بين الحواريين .

ونسى شيئاً واحداً هو أنه إنما فعل ذلك تحدياً للشر ، وأن الخير الذى فعل وإن كان عظيما لم يكن طبيعياً ، بل هو

مقصود مصطنع ، كأنه نوع من المرانة الخلقية كما تكون المرانة الجسمية عند الذين يستعدون للنزال . وأن عمله هذا ليس أجمل أنواع الخير بل أجمله ما كان الدافع إليه طبيعيا .

واستعصى على الفاتحين أن يأخذوا المدينة عنوة ، وطال حصارها فسعت الرسل بين الفريقين وتصالحوا على مايصون كرامة المدافعين والمهاجمين ، وتعاهد الجيشان على أن يحمى أهل المدينة مؤخرة الرومان حين يرتدون عنها ، وعلى أن يقدموا لهم الهدايا ، وأن لا يظاهروا عليهم عدوا ، ولا يخذلوا لهم حليفا . وعاد الرومان بصلح شريف .

أما قائدهم فإنه ثار ثورة عنيفة ، ولم يعجبه أن يرتد الرومان عن مدينة دون أن يبلغوا منها مأربا ، وأسف أشد الأسف على ماأصاب هيبة روما من هذا الذى عده هزيمة نكراء ، وزاد من حزنه أن المجد الذى كان يحلم به أصبح بعيد المنال .

ومرت الأيام ، وعادت الأمور بين المدينة وأورشليم الى حالها من قبل ، وكثر الزوار بين أهل البلدين واطمأن كل منهم الى حسن طوية الآخرين . وأخذ أهل المدينة يتحدثون الى أصدقائهم من بنى إسرائيل والرومان عن ذلك الجندى الرومانى العظيم الذى جمع بين فضيلة الرحمة والإنسانية وفضيلة حفظ العهد والولاء ، وأخذوا يطنبون فى مدح

الخلق الرومانى الذى يدعو أهله الى مثل هذه الفضائل ، وهم يحسبون أنهم يشيدون بذكر روما ويمجدون أهلها بهذا الحديث. وعجبوا أنهم لم يجدوا من أصدقائهم من الرومان من سمع بهذه المكرمة من قبل .

كان وقع ذلك على الرومان شديدا ، فإنهم لم يروا فيه نبلا ولا كرامة ولا خيرا ، بل رأوا فيه خيانة للنظام وللوطن ، وعونا للأعداء ، وحرمانا للأمة من نصر كان محققا ، لولا هذا الضعف الذى اعترى ذلك الجندى . ولم يعجبوا بهذه الانسانية ، فهم يرون أن رقة القلب أليق بالنساء منها بالجندى الرومانى . وجن جنون القائد الحازم حين علم بالأمر تفصيلا ، ولم يكن عسيرا عليه أن يعرف الجندى الخائن الذى كان سببا فى إخفاق جيش روما وضياع هيبتها ومجدها ،وضياع آماله فى رياسة روما ، ولم يتردد لحظة فيما يجب عليه عمله ، اذ صمم على أن يعاقب هذا الجندى عقابا لم يسمع به أحد من العالمين .

وأخذ يجمع أدلة الاتهام حتى تجمع لديه منها مالا يدع مجالا للشك فى خيانة هذا الجندى خيانة صريحة لا تنفع فيها شفاعة .

وكان يوم الجمعة هذا يوم المحاكمة .

وبات القائد ليلته مطمئنا إلى أنه سيستأصل هـذا الداء حتى لا تنهار عظمة روما ومجدها . وأخذ يناجى نفسه :

— إن النظام أجمل شىء فى الحياة : بل هو سر هذه الحياة ، ومن حسن حظى أنى رب هذا النظام ولست عبداً له ، وهو الذى يجعلنى أتحكم فى الرجال ولم يجعلهم يتحكمون فى ، وكان يصح أن أكون أنا ضحيته . إن النظام هو القوة التى تقهر أكبر الرجال إن كانوا تحت أمره . وترفع أصغر الرجال إن كانوا على على رأسه ، وقد يسلب العدد من الرجال حياتهم وهم له خاضعون، وهو مع ذلك شىء غامض لا يقوم إلا على أساس ضعيف من الخوف . ومن السهل أن ينهار ، ولكنه حين ينهار يقـوم على أنقاضه نظام آخر يتحكم فى الناس تحكم النظام الأول . والناس مهما يكن مبلغهم من المدنية يفعلون ما تفعله القبائل البدوية بآلهتها ، يعبـدون حيوانا بعينه يخشونه وترتعد فرائصهم لذكره ، ويقدمون له القربان والضحايا ، ثم يعدون حفلا صاخباً يذبحونه فيه ويأكلونه ، ثم يعبدون حيوانا غيره ، يفعلون به وله ما فعلوا بالأول .

وقد يفعل الجنود بى وبأقرانى مثل هـذا . فهم يخشون بأسى ويرهبوننى ما دمت أمثل النظام . ومن السهل عليهم

— إذا شاءوا — أن يقتلونا ويذبحونا فى ثورة صاخبة ، ظننا منهم أنهم يتخلصون من النظام حين يتخلصون من ممثليه ، ولكنهم بالطبع لا يلبثون إلا قليلا ثم يقوم فيهم حكام غيرنا يسيرون فيهم سيرتنا ويظلمونهم كما نظلمهم ، ويعسف بهم النظام الجديد عسفا لا يقل عن ما عهدوه منا ، ولكنهم لا يقدرون هذا عندما ينتقمون منا ، وهم لا يعلمون أننا فريسة النظام لا مدبروه ، وأين لهم أن يعلموا أن خلاصهم منا لا يعنى خلاصهم من النظام ؟ وأن الذى يظلمهم إنما هو النظام لا ممثلوه ؟ وأنه ليس لهم منه فكاك .

إنى فى حيرة لا أدرى ما أفعل بالناس .

كنت أود أن أعاملهم بالعدل والرأفة أملا فى أن يدوم حكم النظام . ولكن الرحمة والقسوة كلاهما لا ينقذ النظام من ثورة الناس عليه . فالرحمة تغريهم به وبأهله فينقضون عليه بعد وقت قصير ، ويقع ذلك فى عهدى وأكون أنا أول الضحايا . أما القسوة فإنها تؤخر انتقاض الناس على النظام ، وقد طال عهد قومى به حتى كادوا يثورون عليه . لذلك أرانى فى حاجة إلى تأخير انتقاضهم عليه إلى ما بعد عهدى ، وذلك لا يكون إلا بمزيد من من الإرهاب . إن الإرهاب يؤخر ثورة الناس على النظام وإن كان يجعلها أمراً محتوما .

انى لا أجد من ذلك كله مخرجاً . وليس لى إلا أن أدع النظام يحمى نفسه بوسائله؛ وخير وسائل حمايته القمع والعنف . ذلك لا يمنع الثورة عليه ولكنه يؤخرها إلى ما بعد عهدى فيجنى شر عملى من يأتى بعدى حين أكون قد نجوت . أما الرحمة والعدل فإنها تضعف من النظام وتقضى عليه فى أسرع وقت، بل تقضى على ما هو أهم منه وهو مبدأ الرعب الذى لا يقوم بدونه نظام .

وليس لى أن أقف لأتدبر أمر النظام وأمرى ، فإن الذى يسير على حبل مشدود بين جبلين فوق هوة عميقة لا يجوز له أن يقف ليتدبر أمر هذا الحبل والغرض من وضعه والضرورة التى تحمله على أن يسير عليه ، والمقصد من هذا السير . كل ذلك خليق أن يؤدى به إلى السقوط لو استباح لنفسه أن يفكر فيه . ومن المصلحين المفكرين من يظن أنه يجب أن يكون على رأس النظام خير من الرجل الحقير ، وأن الرجل العظيم على رأس النظام مفكرون مصلحون ، وأن عقل القائم بأمر النظام وحكمته يضمنان العدل والخير . وهو قول خطأ يليق برجال الفكر وحدهم . أما رجال الحكم فيعلمون أن النظام قوة جبارة يخضع لها القائمون به؛ ولا يخضع هو لهم . وأن قدرتهم على زيادة خيره وتجنب شره

قليلة جدا . ألا ترى أنه إذا وقف رجلان أحـدهما قزم والآخر عملاق على رأس جبـــل شـاهق فإن إشراف كل منهما على ما تحته يستوى وإشراف الآخر . إن قدرة النظام على الخير أو الشر عظيمة جدا لا يغير منها شيئا ما فى القائم بأمره من خـير أو شر . لذلك كان الحكام الصـالحون والفاسدون ، والعادلون والظالمون سواء فى آثار حكمهم ما دام النظام واحدا .

وما الذى يرغم هؤلاء الجنود الأشداء — وهم عـديدون — أن يخضعوا لأمرى ؟ إنهم يخشوننى أشد من خشيتهم للموت . وكل منهم يفضل أن يرمى بنفسه أمام الخيل فتدوسه بسنابـكها ، وأن يقف أمام الفيلة فتقتله كما يقتل العصفور ، وأن يهجم على الرماح المشرعة فى صدره فيتلقاها بشجاعة عجيبة . إنه يفضل ذلك على أن يعصى لى أمرا . إنما يحمله على ذلك أنه يفضل موتا محتملا على موت محقق ، فإنى قاتله حتما إذا خالف أمرى — أو أمر النظام ، فإنى والنظام فى هذا الشأن شىء واحد — أما إذا تقدم للقتال فقد يكون له أمل فى النجاة .

إنما يدفع الجنود إلى المخاطرة بحياتهم ظنهم أنهم قـد ينجون من الموت فى الحرب ، وعـلمهم أن النظام لن يسمح

لأحد يخالفه أن ينجو من الموت . وكل منهم رأى قوما يعودون من الحرب ، فهو يحسب أن سيكون من الناجين ، وأن زملاءه هم الذين سيموتون ، على حين أن أحدا منهم لم يرجنديا خالفنى ونجا من الموت . فالجندى شجاعته جبن،وأنا أصورها له على أنها المجد كله ، وإقدامه خوف وأنا أصوره له على أنه بطولة وتضحية. والنظام يؤكد له أنها وطنية وكرامة . وطاعته غباوة والنظام يصورها إخلاصا . وهو الذى يدفع إخوانه إلى الموت وأنا أصور له ذلك على أنه أخوة وولاء . وأنا أزين له ذلك كله على أنه غاية المجد والفخر ، وهو يعلم أنى كاذب وإن ادعى رياء أنه يؤمن بما أقول . وهو يعلم أنى لا أحمله على ذلك الا لأنى أضعه بين أمرين ، اما التعرض للموت فى الميدان وهو أهون الأمرين ، وإما أن يقتل على يدى وهو الشر الذى لا مفر منه .

ونحن نقول للجنود إن الجبان الذى يفر من الموت مع إخوانه فى الميدان يلقى الموت وحيدا معصوب العينين عند الفجر ، وهو خداع لأن قتلنا للجبان ليس نتيجة طبيعية للجبن ، بل هو من عمل النظام فهو عمل غير طبيعى ولا يدل على شىء .

إنى معهم كصاحب العمل وعماله ، مادام له عليهم حق

الطرد والحرمان من القوت ، فسلطانه عليهم لاحد له ولو كانوا آلافا مؤلفة . أما إذا اتفقوا على أن يحرموه هذا الحق وحده فإن أكثر ظلمه لهم يصبح عليه مستحيلا ، ويبقى من النظام ما هو ضرورى للعمل نفسه . كذلك الحال فى الجيوش ، لو أنها تألبت على قوادها فحرمتهم حق قتل من يرفض القتال لذهب أكثر مافيها من الظلم ولما بقى من النظام الا ما هو ضرورى للدفاع عن النفس . عند ذلك لايحارب الا من يريد الحرب عن اقتناع أو رغبة ، وقليل ما هم .

إن الذين يموتون فى الحرب من الجنـــود يزيدون شأنى علوا وهم لايعلون على أحد ، ونحن نقول للجنود إن اسمهم يعيش بعد موتهم فى سبيل المجد ، ولا أعلم أن جنديا واحدا ذكر اسمه بعد موته . أليس من تمام الخداع أن نكرم الجندى المجهول ؟ هذه فكرة رائعة تمثل أكبر خدعة يضعها النظام أمام الناس ، لأن أحدا من الأحياء لن يضيره أن يرفع جندى مجهول بعد موته فوق الملوك والأمراء ، وهؤلاء لايضيرهم أن يكرموا ميتا مجهولا ، ولعل الميت المجهول نفسه لايعبأ كثيرا بهذا التكريم . أما الجنود الذين يعيشون فلا يكرمهم أحد ، وسواء أكانوا أصحاء أم عجزة مشوهين فإنهم لايعلون على أحد ، بل يظلون فى طبقتهم لايرتفعون

عنها . إنما يتحدث عن مجد الحرب الأحياء وحدهم لأنهم لايعنيهم شيء من موت من يقتل من أقرانهم .

أما أنا والنظام فنظل الأعلين ، وأنا أعلو على جثث الموتى من الجنـود ، وربمـا أزعجنى أحيانا أن أرتفع على جثث آدميين قتلوا ليرفعونى ، ويساورنى أحيـانا شعور غريب ، كأنى أريد أن أخفض من شأنى حتى لاتزكم أنفى رائحة الموتى الذين أعلو فوقهم ، ثم لا ألبث أن أضحك من هذا الشعور السخيف . إنى إن أفعل ذلك أعرض نفسى لأن أكون جثة مثلهم يعلو غيرى عليها .

هذا هو النظام ، وأنا أول من يفيد منه ، فلأحافظ عليه سواء أكان ظالما أم عادلا ، معقولا أم غير معقول ، وليمت من يموت من جراء محافظتى عليه . إن النظـام وحده هو الذى يقتلهم ، وأنا وحدى الذى أرتفع به ، والذين يموتون هم الذين يفضلون الموت الذى يسوقهم اليه النظام على أن يعترضوه فيسحقهم سحقا . كل ذلك يرفع من شأنى ، الغرم عليهم والذنب على النظام ، والمجد لى .

المحاكمة

بدأت فى الصباح المبكر من يوم الجمعة . وجىء بالجنود يشهدونها حتى تكون لهم فيها عظة فلا يجرؤ أحد منهم بعد ذلك على أن يكون سببا فى هزيمة جيش من جيوش روما القاهرة .

وجىء بالمتهم فأقبل رفاقه عليه قلقين واجين ، يسألونه كيف سولت له نفسه أن يرتكب جرم خيانة الوطن وهو يعلم أنه ليس لها عقاب الا الموت . وقالوا إنهم يعلمون ما فى قائدهم من قسوة ، وأنه لابد منزل به أقصى العقاب ، وانهم كانوا يريدون أن يغضبوا له ، ولكن عظم الذنب لم يدع لهم مجالاً للدفاع عنه أو الغضب له .

وشهد المحاكمة رجل من أهل أثينا كان قد وعى الفلسفة اليونانية ثم تبين له أن فيها نقصا يرجع إلى طبيعتها العقلية ، وضعفا يرجع إلى وسيلتها المنطقية التى لاتعترف الإ بما يقوم عليه برهان عقلى ، وسمع أن فى الهند حكمة عالية ، وأن فى فلسطين دينــــا قيما ، وأن فى مصر نظاما محكما وعلما

غزيرا ، فرأى أن يرحل إلى هذه الديار يتقصى أخبارها لعله يبلغ الحقيقة التى عجز عنها التفكير اليونانى . ولم يكن قد أدرك حقيقة هذا العجز ، إذ كان لا يزال على رأى الفلاسفة من قومه أن الحقيقة شىء محدد يبلغه الباحث إذا علم كيف يبحث ، حتى إذا وجدها أصبحت يقينا لا يتطرق إليه الشك ، كأن الحقيقة شىء يبحث عنه الإنسان كما يبحث عن الذهب ، فالإنسان لا شأن له بماهية الذهب وإنما عمله مقصور على البحث عنه واستخراجه ، وحسبوا أن موقفنا من الحقيقة يكون على هذا النحو .

وفاتهم أن ذلك قد يصدق على الحقيقة فيما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان . أما الحقيقة فيما يتعلق بالإنسان فأمر معقد جداً لأن الإنسان جزء لا يتجزأ من الحقيقة التى تتعلق به ، وهو عنصر ضرورى لتكوينها ولا يمكن بحثها بحثاً موضوعياً مستقلا عنه ، فهو صانع هذه الحقيقة وباحث عنها . ولعل ذلك أكبر ما اعترض العقل الإنسانى حين بحث عن الحقيقة فيما يتعلق بالأمور التى اختص بها وحده ، كالضمير والدين والخلق .

وكان ذلك الأثينى قد قدم أورشليم منذ مدة وأحاط علما بما يجرى فيها ، وعزم أن يشهد هذه المحاكمة ، كما عزم

أن يذهب ظهرا إلى قمة جبل « كالفارى » ليرى ما اعتزم الرومان عمله تنفيذا لما أراد بنو إسرائيل بالنبى الجديد .

وجاء القائد وهو مطمئن إلى ما سيعمله ، عازم عزماً لا رجعة فيه أن يقضى على الفتنة التى يمثلها هذا الجندى .

ووقف رجل الاتهام يقول :

— كنت أود أن تغوص بى الأرض قبل أن أقف موقفى هذا أتهم فيه جنديا رومانيا بالخيانة ، وكنت أفضل أن تحل بروما أكبر النكبات ، وكنت أفضل أن تفقد روما نصف دولتها ، على أن تقع بين جنودها فضيحة الخيانة للجيش والوطن .

هذا الذى نحاكمه اليوم خان أمته وخان جيشه ، وكانت خيانته سبباً فى هزيمة جيش كان خليقا أن ينتصر نصرا مبينا ، وكانت خيانته سببا فى موت من مات منكم دون أن تعوض روما عنهم نشوة النصر وعظمة المجد ، فكأنه قتل بيده الذين قتلوا منكم ، وكأنه جرح بيده الذين جرحوا منكم ، ولولا خيانته ما مات منكم إلا القليلون ولكتب لكم النصر فلا تضيع دماء أبدا لكم عبثا .

ولو أنه أحجم عن خطر فعرض جيشكم للهزيمة لكان

جزاؤه منا الاحتقار ، ولو أنه جبن فاستسلم لكان نصيبه أن تنكره روما وينبذه أهلها ، ولو أنه أخطأ عفوا أو عن جهل فحرمكم بخطئه النصر لكان علينا أن نلتدس له الرأفة ، ولكنه خان عن عمد ، وعرض نفسه لخطر الموت فى سبيل هذه الخيانة ، وأبدى شجاعة خارقة فى تنفيذها ، لذلك كان أمره عندى عجبا ، وبذلت جهدى أن أتفهم كنه ما دفعه إلى هذا العمل العجيب .

سمعت منه أنه لا يؤمن بالحرب ولا يعترف بعظمة قيصر وأعوانه ، ولا يرى فى النصر مجداً ولا فخراً ، وكأنه نسى أن تلك طبيعة البشر منذ خلق الناس ، وكأنه لا يعلم أن الناس يجب أن يغلب أقواهم أضعفهم ، وأن ذلك أمر لابد منه . وسمعته يقول إن الذين أمر بمحاربتهم ليسوا أعداء له ، فهو لا يعرفهم ولم يؤذوه فى شىء ، وإن القتل لا يسوغه إلا الدفاع المباشر عن النفس ، وأن ما يراه القواد سبباً يجعل الجندى يقتل غيره ويقتله غيره لا يعد مسوغا لجريمة قتل الأبرياء ، إلى غير ذلك من حديث الخرافات التى تدل على عقل مريض مضطرب ، كأنه يريد أن يغير من نظم العالم كله بفعلته هذه المنكرة . وليس من شك أن لوثته حملته على آراء لا يمكن أن تكون إلا وسيلة لهدم النظام

وتقويض أركان جيشكم ودولتكم . ولم أفهم كيف أصابته هذه اللوثة .

وما زلت أبحث عن سبب اضطرابه حتى علمت — ويا لهول ما علمت ! — أن سر خيانته يرجع إلى فتاة من بنى إسرائيل من أحط أهلها قدراً . وقع هذا الشاب فى حبائلها فقادته إلى قوم لا هم لهم إلا أن يهدموا روما ويقوضوا أركان امبراطوريتها ، وفيهم من الدهاء مالا يتسع له ذهن هذا الشاب المسكين ، فصوروا له الأمر على أنه دعوة إلى السلام فى العالم كله ، وزينوا له أن الناس لو اعتنقوا مبادىء السلام والمحبة لعاشوا جميعاً سعداء لا يبغى بعضهم على بعض ، ولم يقنعه بقولهم إلا هذه المحتالة « دليلة » العصر الحاضر ، فقد أصبح عبداً طائعاً لها إرضاء لأحط شهواته . ولذلك خانكم وخان قومه . عند ذلك علمت أنى سآخذه بأقصى الشدة ، فليس خطؤه مما يمكن أن يغتفر ، وهو خطأ يرجع إلى آراء لو انتشرت لقضى علينا فى أكثر بقاع الأرض ، فإن سر نجاتنا يرجع إلى الرعب الذى ألقيناه فى قلوب الأمم ، وإلى الرهبة التى لنا فى قلوب الناس ، ولو ضاعت هيبتنا لذبحنا عبيدنا ذبحاً .

وأخذ يسرد على الحاضرين ما عمل هـذا الجندى ،

ولم يكن منهم من عرف الحقيقة كاملة ، ولم يكن منهم من أعدته نشأته أو تفكيره أو طبعه لفهم شيء من المبادىء التي ذكرها المتهم والتي تعلمها على يد الحواريين ، فلم يكونوا ليعلموا عنها شيئا ولم تحرك منهم ساكنا ، وعجبوا أن يكون في هذه المبادىء ما يحمل عاقلا على خيانة جيشه وحرمانه نصرا محققا ، واقتنع الحاضرون بعظم جرمه وأنه يستحق من العذاب أكبره .

وقال رجل الاتهام :

— كنت قد عزمت أن لا أدعه يدافع عن نفسه فإن في ذلك دفاعا عن الخيانة لا نسمح به ، ولكني بعد أن علمت من أمره ما علمت أرى أن دفاعه عن آرائه سيكون أكبر دليل على ذنبه ، فليتقدم للدفاع إن كان له دفاع .

فقال الجندي :

— إني لا أعلم أني خنت أحدا من الناس ، فهل لكم أن تدلوني على رجل واحد خنته ؟ تقولون اني خنت الذين ماتوا تحت أسوار المدينة عبثا ، ولكني أعتقد أنه لو تم لنا النصر لكان موتهم عبثا أيضا ، فأي خير يجلبونه لنا ؟ انهم يجلبون لأنفسهم الموت ولأهلهم اليتم والثكل ، وللآمنين في

ديارهم موتا ويتما وثكلا ، ولا يفيد من ذلك أحد فى روما أو فى المدينة المهزومة الا نفر قليل من الذين لا يتعرضون لخطر أو أذى،بل ينعمون بعد ذلك بكل لذة ومتعة . وحتى المجد الذى يتحدثون عنه لا يصيبه الا قليل من الأحياء . ولو أن الموتى يصيبون من هذا المجد وينعمون به لكان أمرهم مفهوما . أما أن يموت من يموت لينال المجد غيره من الأحياء فأمر لا أفهمه عقلا ولا أرتضيه نفسا .

— ألم أقل لكم إنه أصابه نوع من الجنون جعله يهذى كما ترون ؟ دعوه يتكلم حتى تتبينوا جنونه وخيانته،وأنه لم يرتكب ما ارتكب الا بعد تفكير طويل ونية مبيتة . يريد أن يغير نظام العالم فيجعلكم والعبيد الأذلاء سواء .

— إننا والعبيد الأذلاء سواء فى العبودية لك ، أنت سيد العبيد تأخذ منهم حريتهم وعملهم . وأنت سيدنا تأخذ منا حياتنا وسعادة ذوينا . ولا يقولن أحد إن علينا أن نستمع الى ساستنا وأولى الأمر منا فى شأن الحروب ، فانهم أجهل الناس بما يعملون ، وهم ان صدقونا القول لا يريدون الحرب وانما تقع على الرغم منهم ، فوقوع الحرب خطأ من الساسة ، وليس علينا أن ندفع بدمائنا ثمن أطماعهم وأخطائهم وسوء تدبيرهم ، وما فى تفكيرهم من التواء وما فى خلقهم من

نقص،وما فى نفوسهم من أدواء نفسية . إننا لا نقبل منهم أن يدبروا لنا أموالنا دون رقيب . فكيف نقبل منهم أن يتحكموا فى حياتنا دون رقيب ؟ أليس معنى ذلك أن الأحياء أشد حرصا على أموالهم منهم على حياة الأبطال الذين يموتون دفاعا عنهم ؟ أليس من كبار القواد من يفخر بمهارته والنصر الذى يحرزه ، وتكون خطته قائمة على تضحية أكبر عدد من الرجال ؟ أليس منهم من ينال المجد بأنه قاتل إلى آخر جندى من رجاله ويعد ذلك منه شجاعة ، وهو يعلم أنه إنما يعلو بموت غيره ، ويجود بأرواح من هم تحت إمرته ، ويكاد يكون على يقين أنه لن يقتل حين يؤسر الا أن يغلبه الحياء أو الخوف آخر الأمر فينتحر .

أيها الأخوان،إنى لم أخنكم ولم أخن أحدا ، ولكنى خنت الظلم والعدوان واستغلال الأقوياء للضعفاء أمثالنا ليزيدوا قوتهم قوةوطغيانهم طغيانا . انى لم أوذ أحدا منكم ، ولكنى حرمتكم أن تقتلوا عددا أكبر من أهل المدينة الأبرياء الذين نصبتموهم لكم أعداء وأنتم لا تعلمون عنهم شيئا،وحرمتهم أن يقتلوا منكم عددا أكبر،وحرمت قادتكم أن ينعموا بأكثر مما ينعمون به من قوة وسلطان عليكم إن هناك مزيد من ذلك ، ولا أرى فى ذلك خيانة لأحد .

ولم أحمل وزرا إلا وزر عدم مساعدتهم على ظلم الأبرياء وظلمكم ، إبقاء على ما لهم من سلطان عليكم : إنى بذلك أخدمكم لأنى أخدم الإنسانية كلها ، فلو أن كل جيش مهاجم باء بالخيبة لقضى على الحروب كلها من غير شك .

وتهامس الضباط أنه قال أكثر مما يجب ، وأن قوله قد يصيب هوى فى نفوس إخوانه ، ولكن القائد سمح له أن يتستمر فى قوله ، قائلا لهم إن هذا القول قديم منذ قامت الحرب الأولى فى العالم ، قاله آلاف المفكرين من قبله ، وسيقوله عشرات الآلاف من المصلحين من بعده ، ولن يستمع إلى ذلك أحد وأن اقتنع به كثيرون ، فإن طبيعة الإنسان وقوة النظام لن تجعل هذه الآراء مهما تكن قوتها تمنع حربا ، ولن تحمل جنديا على أن يفضل الموت المحقق جزاء على خيانته على موت محتمل فى الميدان ، إن هذه الآراء لا تقف فى سبيل النظام وجبروته إلا كما يقف الرجل أمام السيل الجارف الذى يقتلع الصخور والحجارة ، فإن نصيبه الموت حتما مهما يكن فى موقفه من بطولة وتضحية .

— قد تقولون إن الحروب ستقع حتما ، وأنه ما دام مثل هذا القول لا يمنعها فمن الخيانة أن نعمل بها ساعة القتال ، فهى آراء لا تنفع الناس إلا إذا أدت إلى منع الحروب ،

أما أن يكون كل أثرها أن تفت فى عضد جيش واحد وهو يحارب فإن ضررها يكون محققا وخيرها محالا . ويكون النصر كله للمعتدين الظالمين . هذا قول حق ولكن ألا ترون أن الآراء والمبادىء على ضعفها لها قوة ليست للسيف وأنها وحدها تستطيع أن تغلب النظام القاهر الذى لايقف فى سبيله إنسان ؟ وأنا أقدم هذه الآراء بدءا للهجوم على النظم التى ضل بها الناس لعلها أن تتغلغل فى نفوسهم وتؤتى ثمارها وقد لا يكون ذلك الا بعد ألف عام أو يزيد . سيحدث حينذاك أن يبلغ الجندى من الرقى الفكرى ما يسمح له أن يعلم ما فى الحروب من خدعة الحاكمين المحكومين ، وأن يتبين أن حياة كل فرد أكبر شأنا من أن تضحى لغرض تملونه عليه . سيحدث أن يقف شباب العالم كلهم كتلة واحدة ، يقولون لأولى الأمر إن لكم حدا لاتتعدونه ولا نطيعكم بعده ، وهو حد الحياة والموت ، ونطيعكم فيما دون ذلك ، وليس لكم أن تقولوا انكم مخلصون ، وليس لكم أن تحتموا وراء المصلحة العامة والكرامة القومية والمجد ، وليس لكم أن تضحوا بأرواحنا فى سبيل آراء ترونها ، كلها جهل وخطأ ، ولو أنها كانت صوابا واضحا ما جاز لكم أن تبلغوا فى سبيل تحقيقها حد ازهاق أرواحنا .

سأذكر لكم أمورا ثلاثة يتحقق بها السلم — أن لاتعلنوا حربا الا أن يؤخذ فى أمرها رأى الجنود فهم الذين سيقتلون ، وأن يقسم الجندى عند التحاقه بالجيش أن لايتعدى حدود بلاده لأى سبب كان ، وأن تحرموا على القادة تحريما باتا أن يتعرضوا لحياة الجندى الذى لايرى أن يحارب خارج بلاده . وإن شئتم المزيد فلنعمل ما يعمله بعض أهل البلاد البعيدة الذين يضعون من بيدهم إعلان الحرب تحت قبة خاصة يتشاورون ، فاذا قرروا اعلان الحرب خدمة للأمة هدموا عليهم القبة وساروا إلى الحرب قائلين إنها خدمة للأمة يجب أن يشترك فيها أولو الأمر والجنود سواء بسواء . ولم تعلن فى تلك البلاد حرب منذ قرر أهلها هذا القرار .

عند ذلك رأى القائد أنه قال أكثر مما ينبغى ، وأعلن أن خيانته أمر لم يعد فيه شك وأن الرأفة به أصبحت مما لايمكن التفكير فيه .

وكان رأى الحاضرين أن شيئا أصاب عقل هذا الجندى الشاب ، وأنه لا سبيل لتحقيق آرائه هذه على ما فيها من صدق وإخلاص ، لأن الأعداء لم يتهيئوا بعد لقبولها ، ورأوا أن من يتمسك بها يكون نصيبه أن يهلكه من حوله

من الأقوياء . واستعدوا جميعاً لسماع الحكم عليه بالموت ، ولكنهم أصابتهم صدمة عنيفة حين سمعوا الحكم فقد حدد القائد طريقة الإعدام ، وهى أن تربط قدماه ويداه إلى أربعة من الخيل ويجره كل منها إلى جهة . فوجمت وجوه الحاضرين واقشعر جسم المحكوم عليه حتى كاد يسقط على الأرض .

وأخذ الجلادون يعدون العدة لتنفيذ هذا العقاب ، وجاء أربعة من الفرسان الأشداء ممن ذاع صيتهم وعرفت بطولتهم وشجاعتهم ، وأخذوا يركضون حول الميدان حتى تنشط خيلهم . ثم وقفوا وسط الميدان وربطت ذراعا الرجل وساقاه إلى الخيل القوية ، ثم ألهبت السياط ظهورها فاندفعت فى قوة ، وبذلك تمزق جسم هذا الخائن وتناثرت أعضاؤه وسقط جسمه على الأرض ، وكان لذلك كله صوت فزع منه الحاضرون جميعاً وأغمض بعضهم عينيه خشية أن يرى ما حدث . وكان من أشدهم جزعا القائد الذى أمر بالقتل ، فقد علق بذهنه هذا الصوت وهذا المنظر واضطرب له عقله فأصابه خبل خفيف زاد على مر الأيام .

ورأى الناس كيف تكون عاقبة الخائن ، وعرفوا الفرق بين البطولة والخيانة ، وبين الشجاعة والجبن ، وبين القوة

والضعف . عرفوا كل ذلك حين قارنوا بين هذا الخائن الذى أصيب بمرض الضمير وبين هؤلاء الأبطال الأربعة الذين قتلوه ممن تفخر بهم روما لما قتلوا من الأبرياء ، ولما ألقوا من الرعب فى قلوب أمم بأسرها .

وانصرف الناس كل إلى عمله الذى تعوده كل يوم ، ومنهم الغاضب والحانق ، ومنهم الراضى والمحبذ . وكلهم يتحدث عما وقع أمامهم فى يومهم هذا ، ولكن مالبثوا أن اطمأنوا إلى الحياة التى ألفوها من قبل فنسوا ذلك كله وكأنما لم يغير هذا الظلم الفادح من حياة أحد منهم شيئاً .

أقبل بعض رفاق الجندى القتيل ممن شاركوه فى أكثر آرائه ، يجمعون أشلاءه من أنحاء الميدان الفسيح ، وأقبلت الكلاب تحدوها رائحة الدم المسفوك . وكادت تأكل من هذه الجثة المقطعة لولا أن ردها هؤلاء الرفاق . فلما حيل بينها وبين ما تأكله منها علا نباحها وهى تنصرف ، واستجاب بعضها لنداءات الطبيعة المختلفة على مرأى من هؤلاء الجنود فقال أحدهم :

— أيكون من الناس من لا يزيد مقتهم للظلم أو حرصهم على العدل على ما تفهم هذه الكلاب ؟ أيكون من بين من شهدوا هذا القتل من يتمتع الآن بلذاته كما

تتمتع هذه الكلاب ؟ أيكون من علية القوم من لا يرى فى قتل هذا الرجل البرىء شيئا أكثر مما تراه هذه الحيوانات العجم ؟ إنه انما أطاع ضميره ، فعمل خيرا . ولو عملنا جميعا برأيه لقضى على الحروب ولعاش الناس آمنين . إنه رأى أن من لم يستطع منع القتال فعليه أن يعمل على أن لا ينتصر فريق على الآخر . إن عمله لم يؤذ أحدا الا من كانوا يحلمون بالنصر . وهؤلاء المنتصرون يعملون عمل هذه الكلاب ، فتراهم يقومون على أشلاء الموتى الأبرياء ، يمرحون وينعمون بثمرة النصر ونشوة النعيم . فهم وهذه الكلاب الضارية سواء . أحق أن من أولى الأمر من يزين للناس هذه الوحشية المنظمة فيقول لهم إن قتل رجل فى سبيل نصر جماعة أو مجد أمة أمر واجب تحتمه النخوة والشجاعة ؟ انى لأرى أن قتل رجل واحد ظلما يعدل مجد أمة بأسرها وعظمة امبراطورية بأجمعها ، ونعيم سراة الأرض كلهم . إن الجماعة من عمل الإنسان ولا ضمير لها . وهى دون الفرد الذى هو من عمل الله وله ضمير يرفعه فوق المخلوقات كلها . وتضحية الفرد فى سبيل الجماعة كفر بالله وسنته ، والنظام الذى يدعوا الى هذه التضحية شر لاشك فيه .

فاصعدى روما على جثث الأبرياء من أبنائك وأبناء

غيرك . تمتعوا أيها الأحياء بثمرات موت أبنائكم . وهنيئاً لكم النظام الذى أباح لأمثالكم أن تقتلوا مثل هذا الانسان الطاهر . وكفاكم رياء ما تدعون من حزن على موتاكم وعطف على جرحاكم . انما تقضون عليهم لتبقوا على ما تتحقق به لذاتكم وتقوى به شهواتكم . وتدعون كذبا أن ذلك خدمة للجماعة ، وما هو الا خدمة لكم . ألا بئس ما تعملون فى سبيل خرافة المجد التى تدعون إليها !!

بيلاتوس

كان بيلاتوس ، حاكم اقليم أورشليم فى ذلك العصر ، رجلا فيه حكمة وسداد رأى . وكان قد ألم ببعض فلسفة اليونان فاستقام تفكيره ، واستمع إلى أحبار بنى اسرائيل فطابت نفسه . واهتدى ببعض تعاليمهم فعرف طريق الخير والحق . واعتدل مزاجه فلم يشتط ولم يسرف على من ولى أمرهم من الرومان واليهود . ولكنه مع ذلك ظل متمسكا بما فى خلق الرومان من صلابة وبأس ، فلم يكن ليلين حيث تحسن الشدة ، ولم يكن ليدع رقة قلبه تلهيه عن أخذ رعيته بالحزم حين لا يكون عن ذلك مناص . وكان فى ذلك اليوم مرهق النفس بعد أن حمله بنو إسرائيل على أن يستجيب إلى ما طلبوه من قتل رجل لا يعلم عنه إلا خيرا . وكان يعلم أنهم مخطئون وأنه مخطىء . ولكنه لم يكن يرى أن يعترض على رأى أقروه فى أمر يخصهم وحدهم ، ولم يشأ أن يجعل لهم عليه سبيلا ينتقضون به على حكمه . ولم يكن يرى أن يدع حبه للعدل يعرض ولايته لفتنة يعود

شرها عليه ، فاضطر أن يجيبهم إلى ما طلبوه ، وهو عليهم ساخط ، ولم يكن عن نفسه راضيا ، وأقلقه الحرج الذى وقع فيه من جراء عنادهم وظلمهم ، وحنق عليهم حنقاً بالغاً .

وكان بيلاتوس يقدر قائد جيشه حق قدره ، وكان يعجبه منه إخلاصه وحماسته فى القيام بما يراه واجباً عليه . وكان يعلم أنه ضيق الفكر محدود الذكاء قليل الحظ من العلم ، وأنه لم يهذب طبعه أدب ولا فلسفة . ولم ينقص ذلك من تقديره إياه ، لأنه كان يعلم أن عظمة جيش الرومان لم تقم إلا على ما فى رجاله من صلابة وشدة وقوة ، ولعله كان يرى أن قدراً من الغباوة وجفاء الطبع ضرورى لنمو هذه الصفات ، وأن الذكاء والعلم ورقة النفس قد تذهب بخير صفات الجندى المقاتل .

جاءه رسول من المعسكر ينبئه بما تم فى ذلك الصباح من محاكمة الخائن وقتله ، وقال له إن القائد عاد إلى داره فاعترته حمى عالية جعلته يهذى . وأن كثيرين يظنون أن ما فعله بالجندى كان فيما أصابه من حمى مخيفة ، وان كان بعضهم يقولون إنه إنما اعترته الحمى التى تعترى الجنود حين يقاتلون فى المستنقعات ، وأنه لا علاقة لها بوخز ضميره أو اضطراب نفسه .

وبينا هو في قصره يفكر في أعباء الحاكين وما تضطرهم إليه حياتهم من ظلم وقسوة، إذ قدم عليه صديقه الفيلسوف اليوناني وأخذ يحدثه :

ـ أرأيت ما فعله قائد جيشك اليوم ؟! علم عن رجل من جنده خيانة فحاكمه وقتله . ولا يعنيني أن يكون حكمه خطأ أو صوابا ، ولكنه اختار له قتلة شنيعة دلت على غلظة عجيبة وقسوة بالغة . وما كان أغناه عن ذلك لو أنه أوتى حظا من الفلسفة ، إذن لرق طبعه ، وتهذبت نفسه ، وأصاب القصد في عمله .

ـ دعني من فلسفتك هذه ، فقد وقر في نفسي منذ اليوم أننا نحن رجال العمل لا نجدفيها غناء حين يحز بنا أمر جلل . إن الفلسفة قائمة بذاتها شيء جميل . ولكننا حين يجد الجد لا نجد فيها هداية ولا رشدا ، وإذا أراد رجل العمل أن يفيد من علم أهل الفكر قامت دون ذلك صعاب كثيرة، أصلها ما لا بد منه من نقل لغة الفكر إلى لغة العمل ، فإن المطابقة بين الألفاظ ومدلولاتها في كل منها أمر عسير . ذلك أن الفلسفة تقوم على تعريف الأشياء وحكم الفلاسفة على الأشياء فرع من هذا التعريف . ولكن رجل العمل لا يدري ما تعريف عمله قبل أن يقوم به . ولهذا أخفقت الفلسفة في

هداية رجال الحكم إلى الصواب ، فالشجاعة عندكم مثلا وسط بين التهور والجبن ، وهـذا حق لا مراء فيه ، ولـكنى لا أدرى ولا يدرى قائد جيشى هل ما عمله كل منا فى يومنا هذا يعد تهورا أو جبنا أو شجاعة . والفلسفة لا تدلنا على حقيقة ما نعمل ولا تهدينا يقينا إلى التعريف الحق لما نعمل إلا بعد أن يتم العمل ، وأ كثر أحكامها على الأعمال تحليلية ، وعمل رجال الحكم بناء لا تحليل . لذلك كانت هدايتكم لنا ضئيلة جدا .

وليس رجال الدين بأهدى لنا منكم فى حياة العمل . إن حديثهم عن الحق والباطل ، والخير والشر حديث بديع ما ظل حديثا وعقيدة وإيمانا . حتى إذا حان وقت العمل صار كل ذلك غامضا مبهما . ألا ترى أن اليهود وهم أحرص الناس على اتباع تعاليم دينهم القيم يرون أن إيقاد شمعة يوم السبت ذنب كبير ؟ وأن صلب صاحب الدعوة الجديدة واجب يحتمه الإخلاص للدين والوطن ؟! ورجـــال الدين فى نصحهم لنا لا يفرقون بين المهم والأهم . والأمور عندهم حلال أو حرام . وليس فى مبادئهم ما يساعدنا على الاختيـــار بين حلالين أو التفضيل بين أمرين كلاهما حرام حين لايكون عن أحدهما مندوحة .

إن فضائلنا مدنية ، وفضائلكم عقلية ، وفضائل اليهود دينية ، وقد ثبت عندى أن الجمع بين هذه الفضائل محال ، فدعونا ندبر أمرنا على ما تقضى به فضائلنا ، فنحن أدرى بما يصلح لنا . أما ما نحاوله من الاهتداء بفضائلكم فلن نجنى منه إلا بلبلة الفكر واضطراب النفس وخور العزيمة .

لا أريد أن أبحث فى الجرم الذى قتل به الجندى ، ولا أريد أن أبحث هل كان الحكم عليه ظلما أو عدلا . ولكنى كنت أود أن لا أرى فيكم من تبلغ به القسوة هذا المبلغ من الفظاعة . وكنت أود أن أرى رجالكم أرق قلبا من أن يقطعوا الناس إرباً إربا على نحو ما رأيت ، سواء أكان ذلك عدلا أم ظلما، ومهما يكن الذنب الذى جنوه . إن عاطفة الرحمة لا تذهب بشىء من قوة العدل إن كان الحكم عدلا . وهى تخفف من وطأة الظلم إن كان الحكم ظلماً .

هذا الذى تسميه فظاعة لا يعنينى ، إنما يعنينى أن أعرف العدل فأتبعه والظلم فأجتنبه . أما الرقة فى الظلم فهى كالإنسانية فى الحرب . كلاهما خداع للناس حتى لا يزعج ضميرهم الظلم أو الحرب . كيف يستقيم عقلا أن تظلم رجلا ثم تكون رحيما به حين يقتل ؟ وتسوق رجلا إلى الحرب ليقتل فإن جرح أخذتك به الشفقة والحنان . أليس ذلك رغبة منا فى أن نخفف

عن الناس وقع الظلم أو الحرب عليهم ؟ أليس ذلك كله رياء يخدع به الأحياء أنفسهم حتى لا تثور عليهم ضمائرهم ؟ إنى إنما أبغى وسيلة تمنعنى أن أظلم الرعية ، فان لم أهتد إلى ذلك فسواء فى الظلم والحرب أن أكون رقيقا أو غليظ القلب .

— إنك ترغب أن تهديك الفلسفة والعقل هداية محددة فيما يعرض لك من مشكلات الحكم . ولا أحسب ذلك مستطاعا ، لأن أمور الحياة والعقل والدين أشد تعقيداً من أن تساس بهذه السهولة ، وتقدير الصواب فيها أصعب من أن يقاس بمعايير بسيطة . والمعايير فيها مختلفة دائما متناقضة أحيانا . ولا يعنى ذلك أن الفلسفة عقيمة حيث يستهديها رجال العمل . إن الفلسفة تهيىء العقل للتفكير الصحيح ، وتقوى فيه صفاته الهادية ، حتى إذا حان وقت العمل كان الإنسان أصوب حكما وأعدل رأيا . فهى مرانة عقلية تعد العقل للعمل الحسن ، وأثرها فى ذلك أكثر من أثرها فى تحديد نوع العمل الذى ينبغى .

— ليس فى ذلك ما يؤكد لى أنها تهدى إلى الحق ، فالفلسفة تقوى فى العقل صفاته كلها ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وكثيرا ما يكون الشر أغلب . ورجال الدين لهم عليكم أيها العقليون فضل . إنهم يرغبون رغبة صادقة فى هداية الناس وتحديد ما يجب أن يعمل وما يجب أن لا يعمل .

— أنى لا أنكر عليهم هذه الرغبة فى هداية الناس . ولكنى أعيب عليهم أمورا تتعلق بطريقتهم فى التفكير ، فانهم يلمونه على شعث لا يتعلق بأصول الدين بل هو من عـدم مراتتهم على الطريقة المثلى التى حدد معالمها وبين أركانها التفكير الفلسفى ، فهم يقولون بأمور لايقوم عليها برهان ، وهم يفرضون فروضا كبرى لا مقدمات لها ، وأكبر فروضهم فرض وجود الله ، فإن ذلك حل مشاكلهم كلها . ولكنه لايزال عندنا فرضا . ثم هم يخلطون بين ما هو عقيدة وما هو حكمة وحسن بصيرة ، ويخلطون بين ما هو دائم وما هو مؤقت . وهم يحملون ما هو عقلى بحت على ما هو دينى خالص . وهم يدافعون عن النظم الاجتماعية التى يعتقدون خيرها على أنها من الدين ، ولكن النظم تتغير دائما ولا يصح عقلا أن تربط بالدين وهو ثابت أبدا .

— أتظن أن أثبت علومكم لايقوم على فروض لم يقم عليها برهان ؟ إن خير العلوم عندكم وأثبتها هو الهندسة ، وقد بناها أهلها كلها على فرض لم يقم عليه برهان ، وهو أن المتوازيين لايلتقيان ، ولم يثبت ذلك بل اكتفى بقوله انهما إذا التقيا لا يكونان متوازيين . وعلى هذا الأساس الواهى قام علم هو عندكم أثبت العلوم . ألا ترى أن هذا الأساس

أوهى من خيوط العنكبوت ؟ وأنه فرض طفلى إذا قيس بعظمة الفرض الدينى الأول وهو وجود الله ، فإن له أصلا ثابتا فى النفس الإنسانية ، ولنا من شعورنا النفسى ما يدل على صدق هذا الفرض . وليس للفروض العلمية شىء من ذلك ، وإذا كان الفرض الهندسى يثبته صدق نتائجه والخصب الذى جعله يثبت حقائق عدة لا يمكن أن تقوم على باطل ، فإن فرض وجود الله فرض خصب جدا يرجع إليه كل ما فى الإنسانية من خير وجمال وروعة تجعل صدق الفرض أمرا محتوما عقلا .

— أنى لا أعيب عليهم فرض وجود الله ولكنى أعيب عليهم خلطهم بين أمور العقيدة وأمور العقل .

— سمعت من قيافا أن رجال الدين مضطرون أن يملأوا فراغا فى نفوس الناس أصله نقص فى نمو عقولهم ، وأنهم لايرون بأسا أن يدعو للعقل كل ما يتعلق به حين يستطيع أن يحمل العبء وحده .

— إنهم وضعوا للناس بعملهم هذا مشكلة كبرى سينوءون بحملها قرونا طويلة حين يضطرون إلى التمييز بين الأمور العقلية والدينية التى خلط بينها أمثال قيافا حين رأوا هذا الرأى ، وسيسمون ذلك مشكلة الدين والعقل . وليس

لها من أصل الا هذا الخطأ فى التفكير . إن الحقيقة فى غنى عن كل هذا الاضطراب .

— أراك لا تزال تسعى إلى معرفة الحقيقة ، ولا أريد أن أجعلك تعدل عن هذا البحث ، أما أنا فانى أبحث عن الهداية ، وقد كنت أحسبنى سأبلغها عن طريق الدين ، أو الدين والعقل . ولكن مافعله بنو اسرائيل اليوم باسم الدين قضى على كل أمل لى فى الهداية . ولن أسعى اليها بعد اليوم . وسأظل رومانيا خالصا أعمل ما تمليه على مبادىء قومى وتاريخهم وإجماعهم .

— ولم كل هذا اليأس ؟ إن الحياة والعقل والدين ميادين للانسان كلها حق وكلها جميلة رائعة ، وإذا كان التوفيق بين ما يتطلبه كل منها محالا ، وإذا كان أحد لم يستطع حتى الآن أن يجعل منها وحدة تمثل الإنسانية فى أرقى مظاهرها ، فلعل العصور القادمة تستطيع مالم نقدر عليه فى عصرنا هذا .

— هذا حلم جميل أرجو أن يتحقق ، وكنت أحلم به قديما ولكنى اليوم غيرى بالأمس . فاعلم عنى أنى سعيت إلى الهداية جاهدا فأخفقت ولم أعد أرى سبيلها واضحا .

أما أنت فانك لاتعنى إلا بالبحث عن الحقيقة وانى لأرجو أن لاتبوء بمثل ما أصابنى من الخيبة والقنوط .

ورأى الفيلسوف أن بيلاتوس تكب فى نفسه نكبة كبرى حين أطاع بنى اسرائيل وأن محنته هذه حملته على اليأس ، وأنه لم يعد يرى الا ما يراه الرومان من الايمان بالحياة ولذاتها ، وأنه لم يعد يؤمن بقوة الدين ، ولم يعد يؤمن بقوة العقل على هداية الناس .

وذهب من فوره إلى جبل كالفارى ، ليرى نهاية هذا الأمر الذى حمل صديقه على الكفر بكل ما كان يؤمن به ، وبلغ قمة الجبل قبيل الظهر .

وبعد قليل أظلمت الدنيا .

ثم أظلمت الدنيا

كان الوقت ظهراً وكانت السماء صافية . ثم تجمعت السحب الثقال من كل صوب فى دقائق معدودات ، وخيم الظلام على أورشليم واشتد حتى أصبح الرجل لا يرى يده إذا مدها أمامه ، ونزل البرد وهبت رياح هوج عصفت بالمدينة فاقتلعت بعض أشجارها ، ولم يكن لأهل أورشليم عهد بمثل ذلك فى هذا الوقت من السنة ، ولم يذكر أحد أنه رأى عاصفة مثلها إلا قليلا من المعمرين قالوا — وما أكثر ما يقول المعمرون — إنهم رأوا مثل ذلك من قبل .

أظلمت الدنيا ساعات ثلاثاً .

وحسب الناس هذه الساعات الثلاث دهراً لا ينقضى ، وشملهم الخوف والاضطراب ، وجزعوا من أمر هذا الظلام ، وكان بنو إسرائيل يعلمون أن الله أهلك أمماً قبلهم بمثل هذه الريح وهذا الظلام ، فظنوا الساعة قائمة ، وذكروا حينذاك أنهم اقترفوا من الذنوب ما يصح أن ينزل بهم

م — ١٥ قرية ظالمة

غضب الله من أجلها ، وذكروا أنهم حين لم يحل بهم عقاب على ذنوبهم أسرفوا وازدادوا إثماً ظانين أن عذاب الله بعيد ، وأيقنوا أن اليوم يوم الجزاء الأكبر .

وعبثاً حاول الجنود الرومان أن يخففوا من وقع هذا الحادث الغريب ، وقالوا لهم إنهم يعرفون بلاداً نائية يقع فيها مثل هذا الظلام كثيراً ، وأنه أمر مألوف عندهم لا يعدونه نذيراً بعذاب ولا علامة من علامات الساعة ، وإن كانوا لم يعلموا ما هى الساعة . وأخذ الرومان يضحكون ويسخرون من هؤلاء القوم الرعاديد الذين يرون فى كل شىء خطرا يؤرقهم ، وفى كل حادث طبيعى نذيرا يزعجهم ، كأن أسرار العالم كلها لم تخلق الا لبث الرعب فى نفوسهم .

والواقع أن الناس حين يفجؤهم حدث طبيعى يجهلون مداه وكنهه : فريقان : فريق لايضطرب ولا يجزع ولا يهرب ، وهم الأقلون . وفريق يجزع جزعا شديدا وهم الأكثرون. ولا يرجع موقف هؤلاء وهؤلاء إلى الشجاعة أو الجبن ، ولكنها طبيعة الأنسان حين يواجه بمجهول عنيف ، ويختلف ذلك اختلافا تاما عن موقفهم من خطر معروف . فقد يكون أشجع الناس وأشدهم إقداما على قتال ، أضعفهم قلبا حين يلم به ظلام دامس أو خطر غير معروف ، ويتبين ذلك واضحا

عند الأطفال ، فمن صغارهم من لايخشى مايجهل ويقدم عليه؛ على حين يكون أخوه أشد مايكون رعبا ، وكلاهما طفل لايفهم شيئا مما يعمل .

ثم اشتدت الرياح وثارت العاصفة وسمع لها صوت أرهب أهل أورشليم فلزموا بيوتهم، وخلت الشوارع من الناس . وكان الظلام على أشده فوق جبل كالفارى ، وكان عند قمته خلق قليل . كان هناك عدد من الجنود الرومان يمرحون ويضحكون ويتسامرون قبل أن ينزل عليهم الظلام ، وكان هناك قليل من النسوة الصالحات اللائى آمن بالمسيح جئن ينظرن إلى سيدهن ويبكين قبل أن ينقل إلى غير هذه الدنيا ، وكان هناك رجل من أهل أورشليم أهمه أمر دينه فجاء يرى نهاية البدعة ، ويشهد القضاء على الفتنة وصاحبها ، وكان قد سبق له فى الصباح أن جاذل التاجر المصاب وخرج من عنده غاضبا على الطغمة الكافرة . وكان هناك الحكيم الماجى الذى آتاه الله من العلم مالم يؤت غيره ، وكان قد ترك الحواريين يرحلون إلى الجليل وجاء يشهد أفول النجم الذى اهتدى بنوره إلى بيت لحم منذ نيف وثلاثين عاما . وكان هناك الفيلسوف اليونانى وتلك الراعية الصغيرة وأغنامها ، وكانت أشد الحاضرين قلقا واضطرابا حين حل

الظلام ، فجاءت فصرخت صرخة عالية وأجهشت بالبكاء ، ودل ذلك الحاضرين على مكانها فأقبلوا صوب هـــذا الصوت يستطلعون خبره .

وكان أقربهم إليها الفيلسوف اليونانى ، فسـأألها عن سبب بكائها فقالت إنها لن تستطيع العودة إلى خيامها بعد أن حل هـــذا الظلام ، وإن أباها سيضربها حين يرى أنها لم تعد إليه قبل مغرب الشمس . فلما قال لها ان هذا الظلام ليس ظلام الليل لم يهدأ روعها وقالت اذن هذا الظلام هو ما كانت تخبرنى به أمى ، وكنت إذا خالفت لها أمرا تقول لى إن العفاريت ستخرج على فى ظلام حالك ثم تنقلنى إلى أرضها التى تسكنها ، وكنت أعصيها فلا يقع شىء مما تقول ، وكنت أيقنت أن قولها تهديد لا أصل له ، ولـكن ها هو ذا الظـــلام الذى حدثتنى عنه وستأخذنى الجن إلى حيث لا أعوذ .

وأقبل الجنود الرومان . فلما سمعوا هذا الحديث ضحكوا سخرية من هـــذه الطفولة الساذجة ، وقالوا انهم يعرفون هذا الظلام معرفة تامة ؛ وإنه سينقشع عما قريب ؛ فيعودون جميعا إلى منازلهم على خير ما يكونون .

وجاءت النسوة المؤمنات إلى هــذه الفتاة التى كانت

وترتعد رعبا ، ولما أحست بهن اطمأنت اليهن أكثر من اطمئنانها
الى رجال غرباء ، وأخذن يهدئن من روعها وقلن لها إن هذا
الظلام لا شأن له بالجن ولا بمخالفتك أمر أمك ولن يصيبك
منه ضرر . وكان قد وقع فى نفوسهن أن سبب هذا الظلام
ما ارتكبه الناس من ظلم فادح للرسول الطاهر الذى حكم
عليه فى يومهم ذلك ، ولكن لا يشككن أن الله يسخر الظواهر
الطبيعية ليتعظ بها الناس فلا يقدموا على الشر ، وأنه لولا
ذلك ما ارتدع أحد عن ارتكاب المنكر ، وأن هذه سنة الله
وطريقه الى الإبقاء على بعض الخير بين الناس فتستقيم
أمورهم .

وكان اليهودى الذى معهم يظن أنه فعل خيرا حين قاوم
البدعة الجديدة بقوة وعنف ، وفرح لأنه سيشهد القضاء
عليها بنفسه ، فلما أظلمت الدنيا اضطرب وجزع جزعا شديدا
لأنه كان يعلم أنه من الذين أرهقوا النبى الجديد بالتعذيب
والتكذيب ، وقال لنفسه : انى من الآثمين الذين أراد الله
عقابهم فأرسل لهم هذا الظلام نذيرا . وناهيك بالنبى الذى
يرسل الله الصواعق على الناس من أجل ظلمهم إياه . ان
بنى إسرائيل قتلوا الأنبياء من قبل فلم تنزل عليهم آية كهذه
الآية . وأخذ يفكر فى أمر هذا النبى وأنه لابد أن يكون

فوق أنبياء بنى إسرائيل قدرا . وحل بقلبه الإيمان ، وندم على أنه لم يكن أكثر حصافة وحكمة من قبل .

أما الجنود الرومان فلم يحاولوا أن يفهموا مغزى هذا الظلام فهو عندهم سحاب يغطى الشمس ، لا حاجة بهم الى أن يبحثوا عن مغزى له .

أما الحكيم الماجى والفيلسوف اليونانى فقد استمعا الى كل ذلك،وسأل ثانيهما أولهما عن رأيه فى هذا الظلام ، وأخذا يتجادلان فيه ، وطال أمد الظلام وامتد بهما النقاش .

قال الحكيم الماجى :

— إنى أعلم من أحداث هذا اليوم مالا تعلمون . ان الله رافع السيد المسيح اليه . وهو نور الله فى الأرض ، فلما أبى أهل أورشليم الا أن يطفئوه أظلمت عليهم الدنيا . وهذا الظلام آية من عند الله تدل على أنه حرمهم نور الايمان وهدى الضمير .

— هذا شعر ورمز . ولا علاقة له بالحقيقة وليس عليه برهان .

— أى حقيقة تعنى وأى برهاتنشد ؟ أتريد أن آتيك برجل أو جماعة ثم أقتلع منهم الإيمان والضميرفيحل عليهم الظلام ؟ أتريد أن لا تقتنع الا بهذا النوع من البرهان .

— أريد من كل انسان دليلا على صدق ما يعتقد وصواب ما يرى . ولا يقولن لى أحد إن الحقيقة نسبية أو متغيرة أو أن هناك حقيقة لا تثبت بالبرهان . تلك فوضى التفكير . وهى تؤدى حتما إلى حال تستوى فيها الخرافات والعقل والدين . وأنت تفرض وجود عامل معنوى فى حادث هذا الظلام وهو أمر مادى بحت . وليس لك ذلك إلا أن يعجز التفسير المادى عن إيضاح أصله وعلته. وهذه الراعية المسكينة تفرض وجود عامل معنوى آخر . ولابد لى من مقياس العقل أعرف به أن رأيك يرجح رأيها فانى لا أريد أن أؤمن بخطأ .

— يعنينى أولا أن تكون من المؤمنين سواء أكان ما تؤمن به خطأ أم صواباً ، فالإيمان هو الإحساس الذى يستطيع به الإنسان أن يتبين معنويات ما يحدث حوله ومغزى ما يقع له . فان كنت ممن يرون أن بين المعنويات والماديات صلة ما فأنت من المؤمنين . والمؤمنون وغير المؤمنين يكادون يكونون جنسين مختلفين من البشر بصرف النظر عن ما يؤمن به المؤمن وما يكفر به الكافر .

— انى لا أرى صلة ما بين المعنويات والماديات ولا أستطيع أن أفهم عقلا كيف يكون الكفر سبباً فى تجمع السحب فى السماء .

— الإيمان بوجود الأشـياء لا يتعلق بفهم كنهها وحقيقتها عقلا . وليس لك أن تنكر مالا يدركه العقل . ألا ترى أن بين البرق والرعد وانهمار المطر سببا وإن لم نفهمه وقد تفسره الخرافات خطأ وقد يفسره العلم خطأ أو صوابا،وقد يـكون غاب عنا أصل ذلك كله ولـكن وجود السبب أمر لا شك فيه .

ثم ان عمـل المعنويات فى المـاديات أمر مألوف على نحو ما . ألا ترى أن الخجل وهو أمر معنوى خالص يسبب حمرة الوجنتين وهى أمر مادى بحت يحدث فى الخجل وغير الخجل كالحمى؟ وقـد يـكون طبيعياً أحياناً . والتفسير المادى كاف جداً لشرحه ولو وقفنا عند منطقك لأنـكرنا عـلاقة الخجل بحمرة الوجنتين . والخجل أثر من آثار التربية والعادات ، والصلة بين هذه وتمدد أوعية الدم فى الوجه بعيدة جداً . ولو أنك حاولت أن تقنع فتاة من عادتها العرى أن العرى يسبب حالة نفسية عنـد الفتيات الخفرات من قومنا تؤدى إلى حمرة الوجنتين ؛ لعدت ذلك رمزا وشعرا،ولحسبته لا يـكون حقيقة .

ألا يمكن أن تكون المعنويات والماديات نتيجة لحـالة واحدة كما يـكون الرعـد والبرق والمطر نتيجة لحالة واحدة؟ وهل تجد من المستحيل أن تتصور أن تجمع السحب واشتداد

العاصفة مرجعه إلى ارتفاع المسيح إلى السماء كما يكون صعود الدم إلى الوجنتين مرجعه الى نشأة الفتاة وتربيتها ؟ إن إنكار الأسباب المعنوية لما هو مادى قد يفوت علينا فهم أهم عناصر الحقيقة فيه .

— ان ايمانى بوجود صلة ما بين ارتفاع المسيح الى السماء وحلول هذا الظلام لا يزيد فى علمى بحقيقة هذا الظلام . ذلك أنى لا أرى لرأيك فضلا عن رأى هذه الفتاة الجاهلة مادمت لا تقبل العقل حكما بينكما . ولا أعرف مقياسا للخطأ والصواب غير العقل . وأراك لاتحتكم اليه فى أمور الايمان،ولم تستبدل به حكما آخر . وأراك تلجأ الى الرمز فى تفسير الحقيقة . والإسراف فى الرمز يدعو الى الشطط. ولو تركنا لخيالنا العنان يتصور من العلاقات بين الأمور ما يشاء لعمت الفوضى وضاع الحق .

— كل ما أريده أن تؤمن أن هناك قوى تعمل فى حياتنا لا نفهم كنهها ولا نستطيع أن نفهمها الا اذا استطاع الحيوان المذبوح قربانا الى الله أن يفهم أن سبب ذبحه التعبد والتقوى والتكفير عن ذنوب من ذبحوه .

فاذا آمنت بوجود هذه القوة المعنوية وأنها تؤثر فى حياة الناس فأنت عندى أشد إيمانا من الذين لا يؤمنون الا تقليدا .

أما تحديد الخطأ والصواب فيما تؤمن به فانه يرجع الى المؤمنين وحدهم ، يقيسونه بمقياس الايمان نفسه . ولو أن الايمان دخل قلبك لسهل عليك أن تعرف الخطأ والصواب فيما تؤمن به . والإيمان لاينقص من فضله شيئا أن يكون موضوعه خطأ .

ألا ترى أن الحيوان غاية فهمه الإلهام ؟ ولما كان العقل فوق الإلهام فان الحيوان لا يستطيع بالهامه أن يتصور العقل أو يفهم كنهه . كذلك الإنسان غاية فهمه العقل ، ولما كان الإيمان فوق العقل فان الانسان لا يستطيع بعقله أن يتصور الإيمان أو يفهم كنهه .

— ومن الذى وضع الإيمان فوق العقل ؟

— هذا واضح . ان الإيمان لا يكون إلا فى العقلاء . أما العقل فيكون فى المؤمنين وغير المؤمنين، وهذا يعنى فى الترتيب الطبيعى أن الإيمان فوق العقل . وهذا لا يعنى أن الأول يمحو الثانى بل يدل على أنه قد يكون فى الإيمان مالا يستطيع العقل أن يكون حكما فيه .

— كل هذا يزيد الأمور غموضا . ألا ترى أن ما حدث أمامنا اليوم من الصلب وحلول الظلام أمور محددة يجب أن تكون الحقيقة فيها واحدة واضحة محددة ؟

– كيف يكون ذلك ؟ لو أنك سألت كل واحد ممن شهدوا هذه الأحداث لأكد لك حقيقة كاملة ثابتة تختلف عن الحقيقة الكاملة الثابتة التى يؤكدها الآخرون . .

لو سألت جزئيات هذا الحجر وذراته عما حدث اليوم لأخبرتك أن شيئا لم يحدث مطلقا . وذلك لأن القوانين التى لم تخضع لها الجزئيات والذرات لا تؤهلها لمعرفة وجود الظلام أو الموت . فهى حين تقرر أن شيئا لم يحدث تقرر الحقيقة كاملة ولو قررت غير ذلك لكان تخيلا وكذبا

ولو سألت أوراق الشجرة عن الظلام لأخبرتك به، فهى تتأثر بالنور والظلام ولكنها لا تعرف شيئا عن سببه . ولو سألتها عن الصلب لأخبرتك ان شيئا لم يحدث لأنها لا تفهم قوانين الحيوان. وهى فى كل ذلك تقرر الحقيقة كاملة ثابتة .

ولو سألت الأغنام لقالت لك ان هذا الظلام هو الليل . وها هى ذى قد أعدت نفسها له . ولو سألتها عن المصلوبين لقالت انهم ماتوا وعلقوا كما مات اخوة لها من قبل وعلقوا . فهى ترى ان ما اصابهم هو الموت المألوف ، ولا تستطيع ان ترى فى امرهم شيئا غير ذلك لأنها لا تفهم العقاب ولا الظلم ،وليسا عندها من الحقيقة فى شىء .

ولو سألت الجنود الرومان عن الظلام ما رأوا فيه الا ظاهرة طبيعية . ولو سألتهم عن الصلب لقالوا انه عقاب على جرائم ارتكبها المصلوبون فنهم لصان وثائر على قومه . فهم يفهمون الجريمة والعقاب ولكنهم لايفهمون التكفير أو الفداء .

ولا يغرنك غزارة علمك وقوة تفكيرك فانك لاترى فيما حدث الا ما يستطيع أن يراه هؤلاء الجنود وإن كنت أسلم منهم تفكيرا وأنفذ بصيرة . ولا شك أن رأيك أقرب إلى الصواب مما يراه هؤلاء لجهلهم ، ولكن الجهل والعلم والذكاء لاتعين نوع التفكير الذى يحدد ما يستطيع كل انسان أن يبلغه فى تقريره الحقيقة .

أما أنا وهؤلاء النسوة المؤمنات، وهذه الراعية الصغيرة فلنا شعور خاص يدفعنا إلى البحث عن مغزى ما حدث وعن معنويات ما وقع . وقد نخطىء ونصيب ، وقد نكون دونك فى كل ما يتعلق بالعقل، ولكن قدرتنا على الشعور بالمعنويات تكسبنا قوة ليست لك وليس لك أن تحكم على ما نؤمن به، إنما يكون ذلك الينا نقيسه بمقياس الإيمان وحده .

— كأنك تريد أن تقول إن الحقيقة مرهونة بما فى طباع المقررين لها من القدرة على التأثر بالقوانين المختلفة طبيعية

كانت او حيوانية او إنسانية . وإن ذلك لا يتعلق بالذكاء او العلم، او صواب مذهب التكفير . هذا راى لم اسمع به فيما بين يدى من المذاهب الفلسفية .

— إن المذاهب الفلسفية حتى حين تتناول ما تفهم ومن عادة العقليين الإنكار وهو خطأ .

واشد من هذا خطأ انكم لا تريدون ان يؤمن الناس بالله حتى يفهموا صفاته عقلا ولا تريدون ان يهتدى الناس بشىء حتى يتبينوا ماهية هذه الهداية . وهذا منكم عجيب . كأنكم تريدون ان لا يستخدم الناس النار للدفء حتى يعلموا طبيعتها . وان لا يهتدوا بالنور حتى يفهموا حقيقته . وان لا يستخدموا السفن حتى يعرفوا قوانين « ارشميدس » . اليس ذلك يكون خبالا ؟ أترى أن البحار الذى ينظر إلى السماء فيقول هذا يوم نوء لا اخرج فيه يعد مخطئاً لأن قوله ليس عليه برهان ؟ إنه يبنى حياته على خبرته . والخبرة الإنسانية برهان صدق فى الأمور الإنسانية البحتة ونحن المؤمنين نقول للعقليين : دعوا الناس يهتدوا بالله، ولا تقفوا بهم دون هذه الهداية حتى يفهموا عقلا كنه الصلة بين الله والناس . ولا تشككوهم فى المعنويات إلى حين يتبين الناس عقلا ما بين المعنويات والماديات من علاقة . ولا تحرموهم

مزايا الأخلاق إلى ان يفهموا كنه العلاقة بينها وبين قوانين الحياة كما نراها فى الحيوان . ومن العقليين من ينكر كل ما هو إنسانى محض ، لأنهم لا يعدون شيئاً طبيعيا إلا إذا كان له مثيل عند الحيوان . وهو قول واضح البطلان . مثلهم مثل الشجرة تعد الحركة فى الحيوان شيئاً غير طبيعى لأنه ليس له مثيل فى النبات . إن الإنسان من أخص صفاته الإحساس بالمعنويات والإيمان بها ، وهو الجزء من الإنسان الذى هو فوق الحيوان ، وليس لنا ان ننكر المعنويات إذا كان سبب إنكارها ان الحيوانات لا تخضع لها ولا تعرفها . ولعل التوراة حين قالت عن آدم انه اول إنسان لم تقصد إلى انه اول من مشى على رجلين، بل لعلها تعنى انه اول من ادرك الخطيئة واول من أحس بأثر الضمير فأصبح بذلك إنسانا . هذا روح الله الذى نفخه فيه فأصبح بنعمته قادراً على الإيمان وعلى ان يخلف الله فى الأرض . هذه أخص صفات الإنسانية .

— لو انكم قصرتم الإيمان على التصديق بالمعنويات والضمير والله ما وجدنا ذلك علينا عسيرا ، ولكنكم تريدوننا على أن نجعل بين ما هو فوق الإنسان وما هو دونه صلة ، وتؤكدون أن بين خلق القمر والنجوم وبين الضمير والأخلاق سبباً ، وترجعون ذلك كله إلى الإيمان، ولا يتم الإيمان عندكم

الا بهذا الجمع مابين هو مادى وماهو معنوى،وبين ماهو من عمل العقل وما هو من عمل الضمير .

— لعل أصل ذلك موسى عليه السلام ، فقد بلغ من صفاء النفس أن يتحدث إلى ضميره حديثا صريحا لالبس فيه فتجلت له حقيقة مافوق الإنسان على نحو لم يسبق لغيره من الناس . ولكنه لم يكن نبيا فحسب بل كان حكيما ، وكان حاكما . فهداه عقله الجبار أن بين هذه الحقيقة العليا وبين الحكمة وبين الشرائع التى يجب أن يسير عليها الناس صلة . ورجح فى نفسه أن أصل ذلك واحد هو الله . ولم يجد عقله فى ذلك غضاضة . فقد رأى النور والدخان والبخار والانفجار والدوى وذوب المعادن على اختلافها ترجع إلى أصل واحد هو النار . ودعا الناس إلى الإيمان بالله فهو أصل كل ماتراه فى الكون .

— أراك تعود إلى الرمز والتشبيه ، ولهما حد فى تبيان الحقيقة . والإسراف فيهما يعرضنا للخطأ .

— ليس الرمز عيبا فى التفكير فهو السبيل الوحيد الذى يستطيع به الإنسان أن يعبر لنفسه ولغيره عن المعانى التى لاتقع تحت حسه .

— انى ما زلت أبعد ما أكون عن فهم حقيقة ما حدث أمامنا اليوم .

— لا عليك من ذلك ! ستظل أحداث هذا اليوم موضع جدل بين الناس قرونا عديدة. وسيظل الخلاف قائما بينهم فى فهم حقيقتها ومغزاها. وسيظل الإيمان بها أو الكفر بها حدا فاصلا بين طائفتين من الناس، إحداهما مؤمنة والأخرى كافرة . ولست وحدك عاجزا عن فهمها .

ورأى هذا الفيلسوف أن العلم بالحقيقة فى أبسط الأمور عسير جدا . وأصابه من اليأس ما أصاب بيلاتوس . وعلم أن الحقيقة والهداية كلاهما بعيد المنال واضطربت نفسه وحزن حزنا عميقا حين أدرك أن سعيه وراء الحقيقة إنما هو سعى وراء سراب صوره له عقله، وأن الواقع أنه ليست هناك حقيقة من النوع الذى كان ينشده .

وأخذ الظلام يخف رويدا حتى ظهرت الشمس ثم سطعت على ما كانت عليه قبل الظهر .

فرحوا جميعاً حين عادت الشمس ، وأسرعت الراعية الصغيرة إلى أغنامها ، وسارت مسرعة إلى دارها ، وكانت فرحة أن الجن لم يختطفوها حين أظلمت الدنيا ، وعزمت أن لا تعنى كثيرا بتهديد أهلها .

واتقضت الساعات الثلاث ، وبقي كل من الحاضرين على ما كان عليه من عقيدة ، ولم تغير هـذه الآية شيئاً من موقف أحد منهم ، فبقى الكافر على كفره ، والمؤمن على إيمانه ، والجاهل على جهله . ظل الحكيم الماجى على رأيه أن الظلام له بالضمير صلة ، والمؤمنات على أن الظلام مرجعه إلى ظلم اليهـــود للنبى ، والرومان على أن ذلك كله شيء طبيعى ، والفيلسوف على أن انقشاع الظلام يمنع أن يكون سببه الظلم ، فان الظـلم قائم والظلام قـد انقشع ، وظلت الفتاة الراعية على شكها فى أن الجن سـيخطفونها يوما . ولم يغير أحد من عقيدته إلا ذلك اليهـــودى الذى حضر ليشهد مصرع الضلالة ، فقد آمن أن الدين الجديد ليس بدعة ولا فتنة ، وعاد إلى داره وهو مؤمن بالسيد المسيح .

هـكذا آيات الله لا تهدى إلا من به استعداد نفسى للمؤثرات الدينية . فهو مؤمن بطبعه ، ومن السهل أن يخرج من الإيمان بالخطأ إلى الإيمان بالصواب . أما حيث يكون الرجل غير معد للايمان فإن الآيات لا تؤثر فيه . هكذا نرى آيات الله لا تصلح إلا من فى طبعهم الإيمان ومن تـكون أنفسهم مهيأة للاحساس الدينى والشعور بالمعنويات .

عود إلى موعظة الجبل

أسرع الحكيم الماجى إلى الجليل ليلقى الحواريين حيث واعدهم . ولما جاءهم قبيل المغرب وجدهم يتعبدون ويصلون وهم لا يكادون يعلمون ما يفعلون ، ووجدهم على أشد ما يكون الإنسان من اليأس والألم ، وزاد حسرتهم ما شاهدوه فى طريقهم من الظلم وما غشى المدينة من ظلام . ولم يكن من شأن هذا الظلام أن يخفف عنهم ألم الوزر الذى حملوه عن أنفسهم وعن الناس جميعا حين تركوا المسيح يعذبه الجاهلون .

وأقبل عليهم يقول :

— ما بالكم لا يزال الحزن يفتتت أكبادكم ؟ إن كنتم تحزنون من أجله فان الله قد رفعه إليه ، أمر لا ريب فيه ؛ وسيأتيكم نبؤه عما قريب ، وإن كنتم تحزنون لما وقعتم فيه من تقصير فاعلموا أن الله غفر لكم ذلك من أجل طاعتكم ، ولأنكم لم تعترضوا ما أمر به الدين من الحرص على السلام . واعلموا أن الله ادخركم للتبشير بالدين

الجديد . وان كنتم تحزنون خوفا أن ينقرض هذا الدين من بعده فاعلموا أنه سينتشر على أيديكم أنتم ومن يأتى بعدكم حتى يبلغ أقصى الأرض . وإذا بقيت فيكم بقية من هذا اليأس فإنكم ستعجزون عن القيام بواجبكم المقدس وتكون معصيتكم أكبر وأخطر .

إن السيد المسيح يأمركم أن تنتشروا فى الأرض ، تدعون إلى الدين الذين علمكموه، وعليكم أن تستمدوا منه القوة الخارقة التى أنتم فى أشد الحاجة إليها للقيام بهذه الدعوة . وأنتم فى حاجة إلى ما يهديكم الحكمة ، ويعلمكم الصواب فيما أنتم مقدمون عليه . وإنكم لتجدون الهداية كلها فى موعظة الجبل ، فعليكم أن تعوها حق الوعى ، وأن يكون إيمانكم بها وطاعتكم لأوامرها أسمى مما يراه عامة الناس ، وستظل الموعظة عند أغلب المؤمنين مثلا أعلى لا يتفق تحقيقه إلا للقليلين ، وسيلتمسون الأعذار للخروج على أوامرها حين تثقل عليهم وطأتها . والواقع أن الله علم ما فى الناس من ضعف فخفف عنهم ، ولو كان فيهم جميعاً صفاء النفس الذى أراه فيكم لحملهم على خطة أهدى ، ولأمرهم بما هو عليهم أشد وأقصى أما أنتم فيجب أن يكون إيمانكم بها أعمق وأقوى مما هو فرض على عامة الناس ، وعليكم أن تفهموها

الفهم الحق ، وأن تتبعوا تعاليمها فى أسمى ما تدعو إليه ؛ وأن لا تقنعوا بما تستطيعه طباعكم . وإنكم لتذكرون يوم سمعت معكم أنا وإخوانى هذه الموعظة فوق الجبل أول مرة . فلما عدنا إلى بلادنا محصناها تمحيصا ودرسناها درسا عميقا فتبينت لنا فيها عبر ومواعظ . أريد أن أحدثكم اليوم عما أدى إليه بحثنا فيها .

يأمركم الشرع أن لا تقتلوا ، وتأمركم الموعظة أن لا تغضبوا فان الغضب يدعو إلى البغضاء والشر ويؤدى إلى القتل والأذى . ألا إن عليكم أن تعلموا الناس أن من ساق رجلا غيره إلى قتل رجال آخرين فقد قتله وقتلهم ، والقتل أو الإيذاء لا يكون خيراً أبدا ولا يسوغه مقصد مهما يكن ساميا. سيقول الناس إن القتل حلال حين يكون قطعا للفتنة والفساد ، ألا فاعلموا ان الله ورسله وحدهم يعلمون ما هو فتنة وما هو فساد ، وليس لرجل لا يوحى إليه ان يحكم على أمر أنه فتنة تدعو إلى القتل ، وليس لأحد من التفوق على غيره ما يجعل أمره بالقتل صواباً ، وليس لأحد من الحكمة والعلم بالغيب ما يحل له أن يحمل الناس على الموت من أجل رأى رآه .

سيحل الناس القتل والإيذاء بدعوى الدفاع عن الدين

وحماية العقيـدة حينا ، وبدعوى الدفاع عن الوطن والنفس حينـا آخـر ، ألا فاحـذروا الأمرين . إن من حمـل السـلاح أو آذى الناس دفاعا عن الدين فقـد وضع الدين فوق الله الذى يأمر بالحب لا بالقتل ، والله كفيل بحفظ دينـه،وليس فى حاجة الى عبيد خاطئين ينقذونه ، وليس لأحد من العصمة ما يجعل رأيه فى زيغ العقيـدة صوابا لا يأتيه الباطل الى حد يسوغ فيـه القتل . ان الذين يدافعـون عن الدين بايذاء النـاس انمـا يدافعون عن رأيهم وحـدهم ، بل أكثرهم انمـا يدافع عن حقوقه ومزاياه ، ويتخذ الدفاع عن العقيدة عذرا يعتذر به .

أما الدفاع عن الوطن بالاعتداء على الأعداء فهو باطـل يزينه للنـاس رجال أخطأهم التوفيق ؛ ولو كانوا أكثر حكمة لجنبوا قومهم الموت فى سبيـل أخطاء ارتـكبوها . والذى يسوق قومه الى الحرب انما يقتل قومه قبل أن يقتل أعداءه ، وكلا المتقاتلين يظن أن عدوه المعتدى ، وأنه هو الذى يدافع عن نفسه وعن وطنه ، وهو وهم يخدعهم به رجال بين أمرين: إما أن يـكونوا لاضمير لهم ولا رادع . وإما أن يكونوا جهلاء مخطئـين . والقتـل يدعو الى الثأر والمتقاتلان أحدهما مهزوم حتما،فالشر جزء منـه لا يتجزأ ، فان الظلم يقع على المهزوم

لا محالة ، والمنتصر لا يستطيع العدل ، وظالم العدو تقوى شهوته الى الظلم فيظلم أهله بعد النصر . ولن تجد قوما ظالمين لأعدائهم ثم يظلون عادلين بين قومهم . ومن أراد أن يعود ساسته العدل فليمنعهم أن يتعودوا الظلم بالاعتداء على من يظنونهم أعداء . والدفاع عن النفس لا يكون حلا للرجل الا إذا وقع عليه الاعتداء مباشرة ، أما دعوى الاعتداء العام على أمة أو بلد فهى دعوى باطلة لاتسوغ حمل الناس على القتل الجماعى كما نراه فى الحروب .

ان لله وحده الحق على الإنسان أن يسلبه الحياة أو يلحق به أذى فى نفسه ، وليس لإنسان أن يكون سببا فى موت أحد أو إيذائه كائنا ما يكون السبب ، فذلك اعتداء على حق ليس لغير الله . واذا كان الإنسان لا يستطيع أن يرد الحياة الى أخيه اذا فقدها ، ولا يستطيع ان يهبه الصحة اذا حرمها ، فليس له ان يعترض حياته او صحته ، ومن يفعل ذلك يتعد حدود الله وينسب لنفسه علما وحكمة ليست الا لله وحده .

وقد بينت لكم الموعظة امر مملكة السماء فقالت لكم إنها للفقراء والبسطاء والمحزونين والمتواضعين والساعين الى الحق والرحماء وطاهرى القلوب والداعين الى السلم .

وعليكم أن تبينوا لغير هؤلاء من الأغنياء والأذكياء والأقوياء طريقهم الى مملكة السماء ، ذلك بأن الفقر والبساطة ليس لهما فضل الا ما يصحبها من طهارة النفس . فالغنى يشحذ الشهوات الجامحة ، والقوة والذكاء يغريان بالظلم . والنجاح يقضى على صفاء القلوب بما يحمل الناس عليه من خضوع لنظم الحياة التى يضعونها لأنفسهم وما فيها من نقص وسوء . والذين يستطيعون أن يحافظوا على طهارة نفوسهم من الأغنياء والأذكياء والأقوياء يكونون عند أهل مملكة السماء فقراء من غير فقر، بسطاء من غير بساطة . ولهم أن يدخلوها آمنين . فليس الغنى وليس الذكاء بمانعي أحد من أن يدخل مملكة السماء فان العبرة بطهارة النفس وصفاء الضمير .

ويقول لكم الشرع لا ترتكبوا الفحشاء ؛ وتقول لكم الموعظة : من نظر الى امرأة فاشتهاها فقد ارتكب الفحشاء . ومن الناس من يظن أن هذا وحده مظهر الفحشاء ، وأن شرور العالم كلها أصلها عقاب من الله على مايكون بين رجل وامرأة لا تحل له ، وأن أكبر الذنوب : الشهوة الى النساء . ألا فاعلموا وعلموا الناس أن هذا ليس الا مثلا للشهوة الجامحة ، اختارتها الأديان مثلا لما فيها من قوة غالبة ، ولأن من كبح جماحها استطاع أن يكبح جماح كل

شهوة غيرها . حقيقة التحريم فى شأن النساء أن الله يحرم كل شهوة جامحة تدعو الى اعتداء الناس على حق غيرهم ، ومن الشهوات الأخرى ماهو أبعد أثرا وأشد ضررا وأدعى الى الفتنة والقتل . وفوضى الشهوة أمر يأباه الضمير الانسانى سواء أكان ما يشتهيه الانسان امرأة أم مالا أم جاها . ومن الخطأ أن تقولوا للناس ان التحريم يرجع الى حفظ الأنساب وحماية الأسرة ، وقد تتغير النظم الاجتماعية فلا يكون ذلك رادعا ، والنهى عن الفحشاء على كل حال أعمق من ذلك كثيرا . ثم انى أوصيكم أن لا تسرفوا فى تركيز الاثم كله فى الشهوة إلى النساء ، فقد يظن الناس أن غيرها من الشهوات مباح وبذلك تفوقون عليهم حقيقة التحريم ، فان الشرع اراد تحريم كل شهوة غالبة . علموهم أن كل من نظر الى ما فى يد غيره فاشتهاه شهوة تجعله يفكر فى ايذائه ليبلغها فقد ارتكب الفحشاء .

قيل للناس قديما أحبوا جيرانكم واكرهوا أعداءكم ، والموعظة تقول لكم أحبوا أعداءكم وادعوا للذين يسبونكم. ألا فاعلموا أنه يجب أن يكون لكم أعداء ، فان العداوة لا تقوم بين الناس الا حين تقوى شهوتهم الى ما عند غيرهم فيريدون أن يسلبوهم ما عندهم عنوة ، واكثر ما يشتهون

أمور لا تتعلق بها السعادة ولا الهناء ، وأكثر ما يحسد الناس بعضهم بعضاً من أجل ما يكون فى المأكل والملبس ومظاهر الترف وما يبلغه الغنى بماله ، وكل ذلك لا يدل على السعادة. فأطباق الذهب لا تقوى الشهية ، ولباس الحرير لا يجلب الصحة . كل ذلك لا يستحق عداوة ولا بغضاً ولا حسداً . ولو تعلم الناس أن ينعموا بما حولهم من جمال وما فى نفوسهم من خير ، وما فيهم من قوة وصحة ، ماحقد فقير على غنى . وليست العداوة والبغضاء والحسد طبيعة فى الناس ، وإنما هى أمور أصلها عجز الناس عن تذوق ما فى الحياة من جمال ، وظنهم أن لا خير إلا ما عند غيرهم ، وسوء تنظيم العلاقة بين الناس .

ولقد نهت الشرائع كلها عن عبادة الأوثان والشرك بالله ، وجعلتها أكبر الذنوب وأخطر المحرمات ، ولو أن المراد من هذا التحريم أن لا يعبد الناس الحجارة ما حفلت بها الأديان وما جعلتها على رأس الكبائر كلها . ذلك أن عصر عبادة الحجارة يزول من تلقاء نفسه حين يخرج الناس عن طور البداوة الأولى . وسيأتى يوم قريب لا يكون فيه على وجه الأرض إنسان يرى أن يعبد حجراً أو حيواناً . والعقل الإنسانى وحده كاف لهداية الناس إلى أن الحجارة لا تعبد

ولا تقدم لها القرابين . وما كان أغنى الشرائع عن كل هذا التأكيد في تحريم عبادة الأوثان والشرك بالله لو أن الأمر مقصور على عبادة الأصنام . وإنما أرادت الشرائع النهى عن أمر أخطر من ذلك كثيراً هو أصل الشرور كلها .

ألا فاعلموا وعلموا الناس أن من الأوثان التي يعبدونها ما ليس حجارة ولا أصناماً ، وسيصنع الناس لأنفسهم أصناماً ليست من الحجارة يعبدونها من دون الله فيضلون بها ضلالا أبعد من ضلال عبادة الأصنام . وسيسمونها مبادىء ، وسيضفون عليها من الإجلال ما يزيد على إجلالهم الضمير ، وسيقدمون حياتهم لها قرباناً على مذابحها ، وستلهيهم عن الهدى حتى يقشعرالناس ن ضعف ضمائرهم وضلال عقولهم وفساد أحلامهم ، كل ذلك تضحية لأوثان يعبدونها من دون الضمير . وكلما قضى على معبود مما يخلقون صنعوا غيره ونبذوا الأول واحتقروا من عبدوه قبلهم . ومن هـــذه الأوثان التي سيعبدها الناس الكرامة القومية ، والوطنية ، والولاء ، والحرية ، والطاعة لأولى الأمر ، والقانون ، وسيسمون ذلك الفضائل المدنية . وهناك أوثان أخرى يسمونها الفضائل كالشجاعة والتضحية والصالح العام . وسيعكفون على تقديس النجاح والتفوق ، وستبلغ

بهم عبادة الأوثان أن يقتلوا أنفسهم دفاعاً عن أعلام جيش، أو حدود دولة أو رد لكرامة ملك . كل هذه أوثان يعبدها الناس ، وقد لا يكون فيها ضرر حتى تصطدم بالضمير أى بأمر الله ، عند ذلك يكون الخضوع لها وعبادتها من دون الضمير كفراً وشركا وضلالا دون اثمها ما تكون عليه عبادة الأصنام . إن من يعبد الدين نفسه عبادة تحمله على أن يتخطى حدود الضمير فيؤذى الناس فى سبيل حماية الدين، يكون قد أشرك بالله . وسيضل الناس حين يعتقدون أن الجماعة أعظم من الفرد ، وأن خيرها أعظم من خير الفرد ، وأن نفعها يسوغ الاغضاء عن ضمير الفرد . إنما الجماعة صنم يدعوكم إلى عبادة من تنفعهم هذه العبادة . ويزينون لكم أن الجماعة تسعد وإن لم يسعد أفرادها ، وهو وهم يقول به من يعنيه أن يشقى عدد كبير من الناس ليسعد عدد قليل منهم . إن الصالح العام لأخطر الأوثان وأشدها ضرراً حين يعبد فيطغى على أوامر الضمير .

قولوا للناس « لا يغرنكم ما يقوله الذين يدعون إلى هذه المبادىء ويزينونها لكم كأنهم لا يبغون لكم إلا الخير ، وليس عليكم أن تطيعوا أمرهم إذا كان أمرهم أن تخالفوا ضمائركم ، فإن هذا طريق الضلال واضحا » .

والشريعة تأمر النـــاس أن لا يسرقوا ، وليست السرقة ما أصطلح عليه الناس عادة ، إنما الواقع أن كل من كسب شيئاً لم يبذل فيه جهداً فقد سرق ، ولو كانت طريق هذه السرقة مما يبيحه القانون الوضعى . ومن أحرز شيئاً بذكائه ودهائه دون جهد بل ابتزازاً ممن بذل فيه غاية جهده فقد سرق . والموعظة تقول لـكم إنـكم لا تستطيعون أن تعبدوا الهين ، وأنـكم لا تستطيعون أن تجمعوا بين عبـادة الله وعبادة المال .

وعليـكم أن تؤكدوا للناس أن خير ما يعبدون به الله أن يحب بعضهم بعضاً ، فإن الشريعة الموسوية أكدت العدل أكثر من تأكيدها الحب . وإذا رأيتم الناس لا يستطيعون هذا الحب وحدهم فاهدوهم أن يحب بعضهم بعضاً فى الله ؛ ذلك سر التقوى وأصل الخير . ولن يجد أحد شيئاً يفرح به طول حياته فرحاً لا تشوبه شائبة من ندم أو أسف أكثر من أن يتاح له إسعاد غيره ، ولن يندم الإنسان على شىء ندمه على إيذاء غيره فى سبيل نجاح مؤقت أو شهوة طارئة . إن سر السعادة أن يسعد الإنسان إنساناً آخر ولا يكون هـــذا إلا بالحب .

أما الدعوة إلى الدين بين أهل الأرض فعمل مرهق لـكم ،

ولا أخشى على الدين شيئاً مما حدث اليوم ، إنما أخشى عليه أموراً من أنفسكم وممن سيحملون عبء الدعوة من بعدكم ، ومن الصدام بينه وبين حياة الناس ، وبينه وبين العقل الإنسانى حين يشتد ويقوى .

أخشى عليه حماستكم فى حمل الناس على الإيمان به جملة وتفصيلا ، لا تفرقون بين أصله وفروعه ، ولا بين ما هو دين وما هو حكمة ، وما هو رأى صائب ، وبين ما هو حق دائم وما هو صلاح موقوت ، وبين ما يرجع إلى طبيعة الإنسان ، وما يرجع إلى نظم وضعية من عمل الناس — هذا الخلط سيزعجكم ويزعج كثيراً ممن تدعونهم إليه .

والرأى عندى ان تقيموا دعوتكم على اصول ثلاثة للدين لا تعدونها ، أن لا يعبد الناس الأوثان على اختلاف أنواعها ، وأن يحب بعضهم بعضاً ، وأن يجتنبوا الشهوة الجامحة حين تخرج بهم عن حد الضمير . هذه الأسس الثلاثة ، الإيمان والحب وكبح الشهوة هى التى تدعون إليها على أنها دين ، وادعوا إلى ما عدا ذلك على أنه حكمة وسداد رأى ، فقد تتغير الحكمة ويتغير الرأى. واجعلوا رقعة الدين واسعة حتى لا يصعب على الناس أن يظلوا داخلها ، واتركوا لهم حرية العمل الذى يعرض لهم كل يوم . اجعلوا

الدين أوامر ونواهى كبرى لها قيمة دائمة فذلك أدعى إلى احترامها .

وأخشى على الدين أن تسرفوا فى السمو به عن طباع الناس فلا يتبعونه . إن عليكم أن تجعلوه مقبولا لكل من فى طبعه الإيمان . وأخشى على دينكم أنه قام بينكم على عقائد لا يصدقها إلا المتصوفون ، وعلى مبادىء لا يفهمها إلا خيار الناس ، وعلى أخلاق ليست سهلة إلا على البسطاء والفقراء والزهاد . وسيأتى يوم يقل فيه المتصوفون فلا يفقه أحد عقائده ، ويقل فيه خيار الناس فلا يفهم أحد مبادئه، ويقل فيه الزهاد والبسطاء فلا يتبع أحد أخلاقه .

ولتحدثوا الناس بما يفهمون ، ولا تسرفوا فى الرمز ، فإن ذلك يصلح للساميين ومن طبعهم الإيمان . واعلموا أن لغتكم السامية لغة زاهية براقة . فيها ضخامة فى التصوير وشدة فى التخيل تجعل الرمز حقيقة والخيال واقعاً . منتفخة الأوداج . محتقنة الأسلوب . أما لغات الذين تدعونهم إلى الدين الجديد ففيها دقة وحدة ونفاذ . لغة لايكون الحديث فيها رمزاً . فلو أنكم قلتم لفلاسفة اليونان إن القوة الحيوية فى الناس تدفعهم إلى الشر وتسوقهم إلى إيذاء بعضهم بعضا ، وإن فى طبائع النـــاس ضميراً يمنعهم أن تطغى عليهم هذه

القوة فيهلكوا ، فالضمير أصل الخير ، والقوة الحيوية الكامنة فينا أصل الشر ، لو قلتم ذلك لفيلسوف يونانى لفهم عنكم ذلك حق الفهم ، ولعله بعد ذلك يطمئن اليكم فيفهم العبادات والصلاة والتحريم والخطيئة . ولو أتكم ألقيتم اليه ذلك كله فجأة لوجدتم منه إحجاما ونفورا لاختلاف أسلوب تفكيره عن ما نشأتم عليه .

وأخشى على الدين ، بل على الأديان كلها عامل الزمن وعامل الرقى ونمو العقل ، فان للدين صفة الدوام ، وعليكم أن لا تجعلوه يعرض لما يستطيعه العقل ؛ فان الرقى العقلى يغير من فهم الناس لهذه الأمور ، ولا يجوز على الدين أن يتغير معها حتى لا يفقد قدسيته .

ولا يدعون أحدكم الناس إلى اتباع الدين لأن فيه صلاح أمورهم الدنيوية ، فانكم إن تفعلوا تجعلوا للناس سبيلا إلى إنكار الدين كله حين يرون أن اتباعهم لأوامره يعرضهم لخطر أو يحرمهم متعة فى الحياة . وانما يدعى اليه على أنه ايمان ، وأن الإيمان جزء لا يتجزأ من تكوين الإنسان ، وأن الإنسان بدونه يظل بالطبع حيوانا .

سيطلب الناس اليكم أن يمنع الدين الظالم أن يظلم ، وسيطالبونكم أن تقفوا للظالمين بالمرصاد ، وأن تضعوا

للناس نظاما يقضى على الظلم ، وليس ذلك من عمل الدين ؛ فان الدين يحكم الضمير ، والجماعة لا ضمير لها،انما يؤثر الدين فى النظم والجماعات وسياستها على طريقة غير مباشرة ، فهو يؤثر فى الجماعة حين يؤثر فى الافراد . فلو أن كل فرد حرص على أن لا يخرج على ما يوحيه اليه ضميره لامتنع الشر عنـــد الافراد والجماعات ، يستوى عند ذلك النظام الحسن والسيء، والنظام القديم والحديث. أما أن يحاول الدين أن يغير نظاما بنظام فعمل لا يتعلق به ، ثم إن النظام الجديد لا يلبث أن يصبح فى حاجة الى التغيير لأن هذه النظم تتكون وتقوى ثم تنهار لأسباب خارجة عن الدين ، خارجة عن سلطان الفرد . ولو أن الدين وضع للناس نظاما للحياة ثم رأوا أن يعدلوا عنه الى غيره لذهب ذلك باحترام الدين وطاعة الناس له فيما هو من أخص أوامره .

إن النظم الاجتماعية تتغير دائما ، وهى فى حاجة الى هذا التغير ، والدين لا يتغير، فهما أمران يجب ان لا يتعلق أحدهما بالآخر ، وقد درست أنا واخوتى أسباب الضلال بين الناس فوجدناها عبادة الأوثان ، والشهوة الجامحة ، وانعدام الحب . وقد لا ينفع الناس كثيرا أن نهديهم تفصيلا الى الخير ، بل قد يكون أنجع لو علمناهم الايمان والحب

وكبح الشهوة ، وتركنا لعقولهم أن تنظم أمورهم فى حدود مالا يحرمه الضمير .

كان كثير من قوله يتعلق بأمور لاعهد للحواريين بها ، فهم لم يكونوا قد خبروا التبشير بعد ولم يكونوا قد علموا شيئا من صعابه وطرق النجاح فيه ، ولم يكونوا قد علموا من دينهم الا ما هو نفسى فردى . فلما تبين لهم ماهم قادمون عليه دبت فيهم الحياة ، وشملهم فرح الرجاء ، وأحسوا أن أمامهم جهادا طويلا ينجيهم من ألم الحسرة ، وذل الضعف ومرارة الاستسلام . وعلموا أن هذا هو الجهاد الحق الذى ينفع الناس ولا يضر أحدا ، وعزموا أن يضربوا للناس فى ذلك مثلا لم يعرفه التاريخ من قبل ، وانتشروا فى الأرض يدعون إلى الحق .

خاتمـــة

لو كان الناس متعظين بشىء لكانت لهم فى أحداث ذلك اليوم عبر وعظات . ولكنهم لايتعظون أبدا . وقد علموا كيف ضل أهل أورشليم ضلالا مبينا ، حين عصفت بهم قوى متباينة ، فيها الخير والشر ، فغلب الشر الخير وغلب الضلال الهدى،وهم لايدرون ما يفعلون . ولا يزال الناس فى مهب هذه القوى تعتورهم فيضلون بها كما ضلت أمم كثيرة من قبل ، وهم لايقدرون على توجيهها وجهة تكفل لهم العصمة من الخطأ .

القوى التى تعمل فى حياة الناس ثلاث : القوة الحيوية وما فيها من غرائز وشهوات ونزعات . وقوة العقل وما فيها من قدرة على المعرفة . وقوة الضمير وما فيها من إدراك للحق والباطل . وفى كل من هذه القوى خير وشر . أما القوة الحيوية فالخير فيها أنها تحفز إلى العمل ، وتدعو إلى بذل الجهد ، وهى مصدر النشاط ، ولولاها لخمدت الحياة الجسمية والنفسية . وشرها أنها عنيفة ملحة وأنها قوة عمياء ، لاغاية لها الا الإبقاء

على الحيـــاة، لاتسموفوق ذلك ولا تعرف لنفسها حدودا ولا هداية . أما العقل فالخير فيه أنه نور يضىء للناس سبل الحياة بما يهيىء لهم من علم، وما يزيد فيهم من قوة وخبرة ومهارة . والشر فيه يأتى من الغرور وايمان أهله أنه ليس وراء العقل مذهب يعلو عليه . أما الضمير فخير كله ، إلا أن الذين يقومون بأمره يكثر فيهم ضيق الصدر والضجر بما يخالف عقائدهم ، والرغبة فى حمل الناس جميعا على واجبات محددة يفرضونها عليهم لايقدرون فى ذلك مافى الطباع من تباين وما فى العقول من اختلاف .

ومن عجب أن أوجه الخير فى هـــذه القوى الثلاث تتعـارض وتتصادم، فيمحو خير كل منهـا خير الأخرى وينجم الشر ؛ على حين أن أوجه الشر فيهـا تتساند وتتمان فيشتد بأسها . ذلك أن النشاط فى القوة الحيوية يصطدم بالعقـل فيأبى أن يخضـع لعلمه أو يهتدى بحـكمته . ثم تعترضه أوامر الضمير وحدوده فـــلا يأبه لهـا . والعقل لايريد أن يعبأ بقوة الغرائز ، ولا يريد أن يحفل بالضمير : أوامره ونواهيه ، والقوامون على أمور الضمير يرون أن يكبتوا القوة الحيوية، وأن يسخروا العقـــل حتى لايشذ عن سلطانهم . هـــذا التصادم كفيل بالقضاء على الخير فى هذه القوى . أما فى الشر

فان طغيان القوة الحيوية يتفق وغرور العقل ، وكلاهما يوافق مافي مذاهب التفكير الديني من ضيق صدر وضجر .

كيف السبيل إلى المواءمة بين أوجه الخير في القوى حتى تشد كل منها أزر الأخرى في الخير فتستقيم حياتنا على الحق ؟

لكل من هذه القوى فريق من الناس يؤمنون بها ويدعون اليها ، ويرون أنها منفردة تؤدي إلى استقرار الحياة ، وأنها لاتخفق الا لأن القوى الأخرى تعترض سبيلها وتضعف من شأنها، فرجال الحياة يرون أن الغرائز قوة لا تقهر وأن العبث بها يؤدي إلى أمراض نفسية متعددة ، وأن محاولة القضاء عليها مقضي عليها بالإخفاق حتما . وهم يرون أنها تدعو إلى الكفاح وتنازع البقاء ، وذلك يؤدي إلى بقاء الأصلح . وأن شرها يأتي من مقاومتها وكبتها . ورجال العقل يرون له السيطرة على كل شيء يستبد بقوى الحياة فيقهر منها ما يشاء ، ويتجاهل من الدين مالا يتفق وعلمه وخبرته . وهم يرون أنه كفيل بهداية الناس لو ترك وحده يدبر أمورهم ، وأنه انما أخفق لأن قوى الحياة تطغى عليه أحيانا ، ولأن الضمير يعرقل سيره ويفت في عضده . ورجال الدين يريدون أن يكون الأمر أمرهم في شئون الحياة كلها صغيرها

وكبيرها ، ما يدخل منها فى العقائد وما لا يدخل . وهم لا يعبأون باختلاف الطباع واختلاف العصور ، ولا يريدون أن يقبلوا من الغرائز أو العقل شيئا يخالف رأيا رأوه .

يرى كل فريق أن تسود القوة التى يؤمن بها . وهذا التفكير خطأ، وهذه الأثرة أصل الداء. والنمو البالغ لاحدى هذه القوى يزيد فى طغيانها فيشتد التصادم بين خيرها والتساند بين شرورها. والناس على كل حال يختلفون فى قبولهم للتأثر بكل منها ولا يفيدون الا من هذا الذى يقبلونه ولا يؤثر فيهم الا خيره .

كلا . ليست هذه وسيلة الإصلاح . وليس سبيل الخير أن يتعصب كل فريق لرأيه . وليس الاصلاح ان نحدد للناس أعمالا مفصلة دقيقة ، من اتبعها أصاب ومن خالفها أخطأ . وليس الإصلاح أن تقوى احدى هذه القوى فتطغى على الأخرى مهما يكن فيها من خير ، فان الضمير نفسه — على ما فيه من خير — لم تصلح به وحده حال الناس الا فى العصور الأولى لكل دين ؛ حين يكون الدين قويا نقيا طاهرا ، وحين تكون الحياة بسيطة والعقول هادئة، حتى اذا امتد به الزمن وقع الخلاف بينه وبين الحياة والعقل ؛ ويكون من أثر ذلك أن يصيبه الضعف حتى لا يتأثر به أحد ،

أو يشتد بطشه فيذبل العقل ويضعف النشاط . أما سلطان القوى الحيوية وحدها فشر لا شك فيه ، ولا يقنع به الا أهل البداوة والجهل ، وان كان علماء الحياة يسرفون فى التحدث عن روائع نظامها . وأما العقل فانه حين يعظم سلطانه وحده — كما هى الحال فى عصرنا — يصبح الناس منه فى رعب مستمر وخوف دائم . ونحن اليوم فى قبضة هذا السلطان وجبروته ، ويروعنا منه قوة الشر التى تكمن فيه . والناس يلهجون اليوم بالحديث عن هذا الشر ويرون أنه من الضرورى أن يصحب نمو العقل نمو فى قوة الضمير وما فيه من خير ، وذلك قول لا غناء فيه . وإذا كان الضمير لم يستطع فى أوج قوته أن يمنع الشر وهو ضعيف،فهو على منعه بعدأنعظمت قوته أضعف .

طبيعة العقل أن يكون دليلا هاديا وطبيعة الضمير أن يكون رادعا ونذيرا ، ولو بقى كل منهما على طبيعته لعم خيرهما . أما أن يكون الضمير هاديا والعقل رادعا ، فهو خروج عن طبيعة كل منهما .

انما يكون الاصلاح فى تهذيب هذه القوى وتحديدها ورياضتها على أن لا تطغى احداها على غيرها حتى فى الخير ، فان الخير حين يتعدى حدوده يصبح شرا لما يؤدى اليه من

اختلال التوازن . والاعتدال وحده هو الذى يجمع هذه القوى على الحق فتكون القوة الحيوية مصدر النشاط، وتكون قوة العقل دليلا ، وتكون قوة الضمير مانعة لهما من الشطط ، على أن يكون لكل منها ميدان واسع تعمل فيه ، يتسع لاختلاف مشارب الناس وطباعهم ومدى قبولهم للتأثر بما فيها من خير .

وقد جرى أكثر المفكرين والمصلحين على أن يحددوا غايات الخير والصواب ووسائلهما ، وأن يعدوا كل ما عدا ذلك شرا وخطأ ، وهذا وهم لم يتحقق به صلاح حال الناس فى أى وقت . إنما علينا أن نحدد للناس الشر والخطأ وأن نعلمهم أن كل ماعدا ذلك خير وصواب ، وأنهم اذا لم يخطئوا فى حق القوى التى تعمل فيهم فهم بمنجاة من الشر . فخطؤهم فى حق القوى الحيوية يكون بالخمول ، وخطؤهم فى حق قوة العقل يكون بالجهل ، وخطؤهم فى حق قوة الضمير يكون بعبادة الأوثان — مهما يكن نوعها — والشهوة الجامحة والبغض بين الناس . ولنعلمهم أنهم أحرار فى حياتهم بعد ذلك ماداموا يجتنبون هذه الأخطاء ، فكل ما عداها خير وصواب .

فى أحداث يوم الجمعـة ذلك كل عوامل الضلال والخطأ ، وفى كل يوم مَن أيام الحياة تتـكرر مآسى ذلك اليوم . فليتدبر الناس هذه العـوامل ، وليجتنبوها ، وسيجدون بعـد ذلك أمامهم مجالا واسعا لعمل الخير ؛ يسعدون به فينعمون بحياة طيبة جميلة .

الثمن ٤٠ قرشا

دار القومية الع
تليفون ٣٤